الصحراوات المصرية

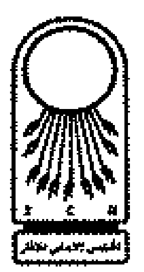
المجلد الثاني

واحات البحرية والفرافرة



ترجمة : د. جاب الله علي جاب الله

مراجعة : د. شوقي عبدالقوي عثمان



وزارة الثقافة
المجلس الأعلى للآثار

تصميم وتنفيذ: آمال صفوت الألفى
مطابع المجلس الأعلى للآثار

نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية
مشروع المائة كتاب

٣٠

الصحراوات المصرية

المجلد الثانى

واحات البحرية و الفرافرة

تأليف : د. أحمد فخرى

ترجمة : د. جاب الله على جاب الله

مراجعة : د. شوقى عبدالقوى عثمان

تقـديم

فى واقع الامـر لم يدر بخلدى يومـا أن يكتب اسـمى بجـوار اسم استـاذى الراحل المرحوم الدكتور / أحمد فخرى . هذه الشخصية التى لاتنسى ، حيث درس لنا فى كلية الاداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٨ وكنت أتتبع محاضراته فى السنوات التالية وأواظب على حضورها رغم انها كانت غير مقررة علينا . ومنذ ذلك التاريخ لم يفتر اعجابى بهذه الشخصيةالساحرة . وحقا لم أكن الوحيد الذى أسرته شخصية الاستاذ ، فقد اتيح فيما بعد ان أجول فى الصحراء الغربية مرات عديدة ، ودائما ما كان يذكر اسم الاستاذ خلال أحاديثى مع الناس اما فخرا وتشرفا بمعرفتـه ، واما تأكيدا على صدق المحدث .

كنت أتمنى ان تظهر مؤلفات الاستاذ التى كتبها بلغات أجنبية مترجمة إلى اللغة العربية حتى يسعد بها قارئ اللغة العربية ، واستمر ذلك التمنى إلى أن ظهر إلى النور كتاب الدكتور / فخرى «واحة سيوه» مترجما بقلم الدكتور/جاب الله على جاب الله وهو ايضا تلميذ للأستـاذ ، حيث تتلمذ على يديه طوال سنى الدراسة وبعدها حيث جاب معه الصحراء منقبين عن آثارها .

أما الكتاب فأننا نلحظ أن الاستاذ رحمة الله عليه لم يكن عالما للآثار فقط بل كان انثروبولوجيا وفولكلوريا عايش الناس واختلط بهم واندمج معهم فأصبح عمدتهم الذى يلجأون اليه . لاحظ معايشهم وعاداتهم وازياءهم وجمع أغانيهم فى المناسبات المختلفة .كما تكلم عن الاصول السكانية لهم ، رصد كل ذلك وغيره كثير ، بل أنه فى مواضع عدة كان يعود بنا إلى زمان سابق لنرى كيف كانت ممارسة تلك العادة موثقا كلامه بصورة فوتوغرافية ألتقطها بنفسه .

ولا أبالغ إذا ذكرت أن ماصوره الأستاذ خاصة الاشكال من ١٠ إلى ١٨ هي صور نادرة . فقد حفظ لنا صورة شاملة ونادرة حكيا وتصويرا عن حياة الناس ومعايشهم في كل من البحرية والفرافرة . والأهمية تنبع من أن الأثر غالبا باق يمكن قراءته في اى وقت ، ولكن عادات الناس وأساليب حياتهم تتغير باستمرار حسب المؤثرات الثقافية.

عند تناول الأستاذ للآثار والمادة التاريخية تشعر بأن الأثر ذلك الجماد قد بعث حيا فيجعلنا نعيش الأثر ، نجوس خلاله ونتعايش مع أحداثه .

وتتضح قدرة الأستاذ وصبره وتمرسه بعلوم عدة في أعتنائه بالاحصاءات والمقارنه بينها وتحليلها ليخرج في النهاية بنتائج صحيحة عن المشاكل التي واجهت الواحة .

ولكي يسعد المصريون بهذا الكتاب فقد شاءت الاقدار ان يتوفر على ترجمة هذا الكتاب استاذ فاضل وعالم كبير هو الاستاذ الدكتور / جاب الله ، ولاأبالغ إذا ذكرت أنه أمتداد أصيل لأستاذه الدكتور / فخري علما وخلقا وتواضعا وحبا للناس .

لذلك تميزت الترجمة بالسلاسة وسهولة العبارة فليس بها إسهاب بل جاء الكلام على قدر المعنى ، كما توخى الدكتور / جاب الله الدقة ، هذه الدقة التي جعلته يؤجل نشر الكتاب أعواما عدة حتى يحصل على البيانات الحديثة الخاصة بالسكان وآبار المياه .

يبقى في النهاية أن الدكتور / أحمد فخري رحمة الله عليه لم يكن ينقب ويرصد ويحلل فقط ، بل كان يفكر في مستقبل الناس بالصحراء وماذا يحمل المستقبل لهم ، بحس رقيق ومشاعر فياضة تكاد تبكي الانسان ، فلنقرأ قوله عندما يتحدث عن الفرافرة ، ... ثم استلقيت على الرمل وجعلت أتامل نجوم السماء محاولا ان – أتعرف عليها وأخذت أفكر في الحياة التي تتغير بسرعة في الواحة ، وتساءلت لأى مدى يمكن لأهل الواحة أن يحتفظوا بتقاليدهم العريقة وقد أحزنني كثيرا فكرة احضار عدة آلاف من وادى النيل ، وهل سيحاصر مواطنو الفرافرة الطيبون المسالمون ويلقون جانبا ...

حدث ذلك فعلا ياأستاذي العزيز وقد تم ذلك في تسعينات هذا القرن حيث أصبح أهل الفرافرة قلة بل غرباء في واحتهم ، لتوافد كثير من أهل مصر وهؤلاء الوافدون

ليسو من منطقة واحدة ، ولكنهم من جميع انحاء مصر لذلك كانت النتيجة التى توقعها الأستاذ فقد حوصر اهل الفرافرة فى قريتهم القديمة وزاد تقوقعهم وتوجسهم من كل وافد .

عاشق الصحراء وفارسها ، كاشف اسرارها ومحى تاريخها . أحب أهلها فبادلوه حبا بحب ، ولازال ذكره إلى الآن يتردد بين جنبات تلك الصحراء حبا وعرفنا .

أما أن لنا ونحن كشعب نحفظ الجميل ان نطلق اسم الاستاذ الدكتور / أحمد فخرى على احدى القرى الجديدة التى تنشأ فى الصحراء الغربية ، حيث كان عشقه وامنيته بأن يعيش هناك مع أناسها الطيبين ولما له من فضل على تلك الصحراء فقد بعث تاريخها مرة أخرى . ومن المؤكد أن أحد ا لن يطاول الأستاذ فى فضله على الصحراء، وإنا لمنتظرون .

د. شوقى عبد القوى عثمان حبيب

تصـــدير

ولد أحمد فخرى فى آحدى قرى محافظة الفيوم عام ١٩٠٥ وتوفى بباريس فى السابع من يونيو عام ١٩٧٣ عندما كان يحاضر عن أبحاثه فى الواحات وقد سلبت وفاته علم الدراسات المصرية شخصية كانت تتميز بالكرم والنبوغ فى آن واحد ، فمن جهة كان انسانا ولبقا ، كما أنه وهب عبقرية التنقيب فى أكثر المواقع الأثرية عطاء من جهة أخرى .

كان أحمد فخرى فى طليعة الشبان المصريين الذين انكبو على دراسة الآثار المصرية فى جامعة القاهرة ، وبعد أن نال اجازة الليسانس فى سنة ١٩٢٨ حصل على منحة حكومية لمدة أبع سنوات لمتابعة دراسته وابحاثه فى انجلترا واوربا بصفة عامة. ومن عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٤٤ تولى مناصب متنوعة فى تفاتيش مصلحة الآثار حيث أكتسب سمعة رجل الآثار المتمكن والباحث المدقق الذى لايكل ، وكان يشتاط غضبا ويتقد حنقا اذا ما تعرضت المقابر أو المعابد المصرية للسرقة والنهب بحثا عن قطع فنية تباع فى الأسواق ، وعندما كان تفتيشه يشمل الواحات بدأ يوجه اهتمامه إلى دراسة الصحراء الغربية ، وبناء على نصيحة منه انشأت مصلحة الآثار قسما لأبحاث الصحارى ، ومن سنة ١٩٤٤ حتى ١٩٦٠ ثابر الدكتور فخرى ، كرئيس لهذا القسم ، على البحث والتنقيب فى واحة سيوة ،وواحة البحرية ، والواحة الخارجة ، ورغم أنه كان أثريا بالمهنة الا ان اهتمامه الشديد بأهالى الواحات الحاليين دفعه الى تسجيل مجموعة من الملاحظات الانثروبولوجية تعد على جانب كبير من الأهمية .

وبعد أعتزاله التدريس بالجامعة بأربع سنوات ، انتدب الدكتور فخرى مرة ثانية عام ١٩٦٩ لمعاودة أبحاثه فى الصحراء ، وحينذاك قام باكتشاف فذ ، اذ عثر على

عاصمة الواحات في العصور الفرعونيه في الواحة الداخلة ، كما كشف عن رسوم تصور دائرة البروج فضلا عما عثر عليه من لوحات وتماثيل ، وكان يحلم دائما بالعودة إلى الصحراء في شتاء عام ٧٣ – ١٩٧٤ ، ولكنه كان يدرك أن العمل هناك يتطلب مواسم حفر عديدة ولذلك راح يبحث عن شخص يشاركه حماسه لأبحاث الصحراء .

ولم يكن أحمد فخرى عالما رائدا فى الصحراوات المصرية فحسب ، ولكنه كان كذلك عالما رائد في دراسة الأهرامات وفي التنقيبات الأثرية باليمن ، فحينما كان مديرا لمشروع دراسة الأهرامات فيما بين ١٩٥٠ ، ١٩٥٥ كانت اكتشافاته في دهشور الهرم والشواف دليلا جديدا على عبقريته في العثور على آثار هامه رغم أن الشواهد الظاهرة تبدو ضئيلة فى نظر غيره من المنقبين . وقد تمكن من إدراك أهمية اليمن أثريا من خلال زيارة واحدة لهذا القطر عام ١٩٤٧ .

عمل الدكتور فخرى أستاذا لتاريخ مصر والشرق القديم بجامعة القاهرة من عام ١٩٥٢ حتى تقاعد عام ١٩٦٥ ، وقام بالتدريس كذلك بجامعة عمان فى المملكة الأردنية وفي فرع بركلي من جامعة كاليفورنيا ، وفضلا عن ذلك قام برحلات واسعة زار خلالها الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا وجمهورية الصين الشعبية والمكسيك ، وان نظرة عابرة خلال كتبه ومقالاته المكتوبة بلغات أربع تبين أى نوع من الرجال الأفذاذ كان فخرى .

كان رفقاء المهنة وعامة الناس سواء بسواء يعتزون بأحمد فخرى الصديق ، وكان فخرى مسلما متمسكا بدينه ومواطنا غيور ومع هذا كان كرمه يغمر أناسا يدينون بديانات مختلفة وينتسبون الى أوطان متباينه ، كان على استعداد دائم لتقديم يد العون والنصيحة المخلصة لمن يحتاجها ، وكان محاضرا جذابا حتى بدون وجود مذكرات بين يديه . وحينما كان يرافق معرض توت عنخ أمون فيما بين ١٩٦١ – ١٩٦٢ أثناء تجوله فى الولايات المتحدة تقرر أن يلقى محاضرة فى مدينة شيكاغو ، وضاقت بالحاضرون ولم يجد مئات آخرون مقاعد لهم ، ولما علم فخرى بذلك ارسل اليهم من يخبرهم بأنه على أستعداد أن يعيد المحاضرة اذا انتظروا لمدة ساعة ، ولم تكن محاضرة المعادة بأقل وضوحا أو حيوية من الأولى .

وان من المستحيل أن يتصو الانسان رجلا بهذه الحيوية وقد سكن إلى الأبد ، لقد ترك فخرى عملا لم ينته ، فالتنقيبات في الصحراء يمكن أن تستمر أعواما متواصلة والحاجة إلى استمرارها ملحة اذ أن تغييرا سريعا نسبيا راح يطرأ على الواحات وان من حسن الحظ أن مخطوطات الدكتور فخرى عن عمله بالصحراء تعد كاملة نسبيا بحيث يمكن نشرها ، ونحن نأمل ان تثير من الحماس ما يعاون على استمرارا الأبحاث .

منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة خلت اثنت بردية تشستربيتى على الكتاب القدامى قائلة : ان اسماءهم ستخلد بفضل ماألفوه من كتب ، لأنها كانت (كتب) مفيدة وأن ذكرى ذاك الذى كتبها ستبقى إلى أبد الأبدين .

جون أ. ويلسون

جامعة شيكاغو

كلمة للناشر

ما كاد أن يتم طبع المجلد الأول من هذه السلسة تحت عنوان واحة سيوة في يونيو سنة ١٩٧٣ حتى فاجأت المؤلف أزمة قلبية في باريس ، ولكننا تمكنا من ارسال النسخ الأولى من الكتاب اليه بطريق الجو حيث أطلع عليها ونالت موافقته ، كان الدكتور فخرى فى طريق العودة الى القاهرة من جامعة بنسلفانيا حيث كان يحاضر كأستاذ زائر بها ، وخلال وقفه قصيرة فى باريس وبمجرد أن أتم القاء سلسلة من المحاضرات فى السربون بدأت تظهر عليه أعراض الأزمة القلبية ثم مالبث أن وافته المنية فى ٧ يونيو سنة ١٩٧٣ .

ولم يصدم خبر وافاته مصره الحبيبة فحسب وانما هز العالم بأسره اذا أن الدكتور فخرى كان من أكثر علماء الآثار المصرية شهرة كما كان يحظى باحترام كبير . فقد كان لديه من العلم والظرف والعطف والتفهم ما جعله يستحوذ على قلوب أصدقاء ومريدين كثيرين فى وطنه وفى كل أرجاء المعمورة .

ولعل من حسن الحظ أن الدكتور فخرى كان قد أكمل مخطوط المجلد الثانى قبل سفره الى فيلادلفيا ، أما المجلد الثالث الذى يعالج الواحات الخارجة والداخلة فان جزءا فقط من النص معد للنشر وقد صمم ابنه على فخرى ، وهو متخصص أصلا فى الآثار المصرية وان كان يعمل حاليا فى السلك الدبلوماسى ، على أن يرى هذا المجلد الأخير ضوء النهار ولذلك سعى إلى تجنيد عدد من تلاميذ والد ه المخلصين ، وهم حاليا علماء آثار مرموقون وعلى دراية بأبحاث أستاذهم الراحل ، لاستكمال المخطوط واعداده للنشر ومن المتوقع أن يتم ذلك فى صيف عام ١٩٧٤ . ومن الجدير بالذكر أن المجلدات الثلاث ستترجم الى اللغة العربية .

الناشر القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٧٣

مقدمـــة

حتى عام ١٩٦٩ كان الطريق إلى البحرية مجرد درب صحراوى يبلغ طوله حوالى ٣٤٠كم(١) ، يبدأ بالقرب من أهرامات الجيزة ويسلك طريقا قديما للقوافل، وكان يعد أصعب الطرق الصحراوية التى تؤدى الى أى من واحات صحراء مصر الغربية واكثرها خطورة فى نفس الوقت وذلك لأن مساره لم يكن محددا كما انه فى كثير من الأماكن يجتاز كثبانا رملية . وغالبا ماضلت السيارات طريقها وتعطلت خلال أسفارها وعانى كثير من المسافرين أشد المعاناة بل ولقى بعضهم حتفه . ولكن الصورة تغيرت الآن فالطريق صار مرصوفا منذ بدايته بالقرب من الأهرامات حتى موقع مناجم الحديد التى تبعد بمسافة ٣٥كم من الباويطى عاصمة هذه الواحة . ومن المأمول أن ينتهى العمل فى رصف الجزء الباقى فى عام ١٩٧٣ . وقبل معرفة استخدام السيارات كان المسافرون الى البحرية يصلون اليها على ظهور الأبل اما من الفيوم ، أو كما كان يحدث كثيرا ، من المنيا وكانو يتخذون طريق القوافل القديمالذى يمر بالبهنسا والذى ظل مستخدما منذ العصور الفرعونية ، وكانت الرحلة تستغرق أربعة أيام فقط . غير أن أحدا لم يعد يستخدم الجمال للوصول إلى البحرية فيما عدا بدو الفيوم الذين يقصدونها للتجارة أو لرعى أبلهم . ومهما يكن من أمر فعلى حين أصبحت الرحلة إلى البحرية مأمونة بل وسارة فان الطريق الى الفرافرة لايزال شاقا سواء ابتغى الرحالة الوصول إلى الواحة بالسيارة من البحرية أو من الداخلة .

لقد غدا السفر بالابل قصة الماضى فلا يقبل موظف حكومى أو أحد من سكان الواحة أن يستخدم الجمل ثانية لاسيما وان السفر بالجمل كان حقا أمر شاقا أو خال من

---

١) تم رصف الطريق من الجيزة إلى الفرافرة: المراجع

المتعة والتجربة ؟ لقد استخدمت الجمل في بضع رحلات ولا زلت أذكر كم كانت ممتعة ومفيدة تلك الرحلات .

السفر في الصحراء :

لم يعد المسافرون في أيامنا الحالية – خاصة الأثريون منهم – يهتمون باستخدام الجمل في أسفارهم ، بل أنهم يفضلون السيارة لا سيما في العشرين عاما الأخيرة حيث أن الاطارات البالونية وعربات الجيب واللاندروفر تجعلهم يشعرون بالأمان التام أثناء أجتيازهم للمناطق الرملية . وحينما يأتيني الشباب سائلين رأيي حول بعض الأمور قبل أن يخطو في الصحراء لاجراء بعض البحوث فاني أسألهم دائما لماذا لايستخدمون الجمال وتكون اجابتهم في العادة واحدة : ان وقتهم محدد . ولكني ألمح شيئا آخر في أعينهم ، فهم يعتقدون أنهم يتحدثون إلى رجل "دقة قديمة ".وربما نصف مجنون يريد منهم أن يعانوا مشاقا لانهاية لها وأن يعرضو أنفسهم للتعب والنصب وربما لأخطار كثيرة . أنهم ولاشك مخطئون لأن السفر بالسيارة فيه أحيانا متاعب أكثر بكثير من متاعب السفر بالجمل .

ان رحلتي الأولى بالسيارة في قلب الصحراء بحثا عن الأماكن الأثرية جرت ، كما قلت في كتابي عن سيوة ، في ديسمبر سنة١٩٣٣ ، وربما كان من المناسب أن أحكيها هنا بشئ من التفصيل . في ذاك الوقت كنت مفتشا للآثار بالأقصر وحدثني أحد أصدقائي ، وهو مالك أرض ثرى ، عن رجل من قبيلة العبابدة يذهب بين الحين والآخر الى وديان الصحراء الشرقية حيث يرعى ابله ويعمل احيانا كدليل للمنقبين عن المناجم . وأضاف صديقي أن محمود (وهذا هو اسم الرجل :المترجم) أخبره أنه يعرف مكانا توجد به أحجار كثيرة مكتوبة ، وفي اليوم التالي مر على صديقي ومعه ذلك البدوي من العبابدة وكان يبلغ من العمر قرابة خمسة وعشرون حولا . وعلمت منه أن المكان الذي يقصده يوجد في وادي دغبج وليس عن طريق الحمامات وحينما سألته عن المسافة وعن الزمن الذي يستغرقه قطعها أكد لي أننا يمكن أن نصله من الأقصر بالسيارة في مدى ثلاث ساعات ونصف وأننا لن نغيب عن الأقصر أكثر من تسع أو عشر ساعات على الأكثر .

وتحدد وقت الرحيل بالساعة الرابعة من فجر ٢٣ ديسمبر ، وفعلا بدأنا رحلتنا في الزمن المعين وكانت جماعتنا تتألف من السائق والدليل وصديقي وأنا . ومن الأقصر قدنا السيارة إلى واحة لقيطة الصغيرة ثم تقدمنا في طريقنا عبر وديان مختلفة . وبعد

مسيرة أربع ساعات توقفنا للتناول طعام الافطار ، وسألت الدليل متى يمكن أن نصل إلى هدفنا فأعاد ما سبق أن كرره خلال الساعات الأربعة الماضية : " حالا" وأشار إلى جبل عند الأفق قائلا حينما نصل إلى هذا الجبل سنسير في واد على الجانب الأيسر . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر وبعد مسيرة تسع ساعات (غير الوقت الذى استغرقة أفطارنا) وصلنا إلى محطة مناجم قديمة وهنا وجدنا كتلتين من الجرانيت عليهما نصوص يونانية مكتوبة بمداد أسود . وحولنا تناثرت قطع زجاج وفخار من العصر الرومانى المبكر وبقايا أكواخ عمال المناجم . وأتممت فحص الموقع بأسرع ما يمكن ثم بدأنا رحلة العودة فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

قبل مغادرتنا الأقصر كان سائق السيارة قد أحتاط للأمر وأحضر معه عدة صفائح بنزين تكفي لضعف المسافة التي ذكرها الدليل وتكفل صديقي بمسألة الطعام والماء ولكن بما أن أحد منا لم يكن يتوقع أننا لن نعود للأقصر فى نفس اليوم فأننا لم نأخذ معنا بطانيات أو اكياس نوم . وكنت قد ارتديت ملابس كافية فى اعتقادى لتدفئة مسافر الى بلاد الاسكيمو ولكن لم يخطر ببالي أننا سنقضي الليلة في الصحراء . كانت مؤنتنا من البنزين كافية على أى الأحوال لنصف المسافة فقط هذا اذا اتخذنا في رحلة العودة نفس الطريق الذى جئنا به . وبمناقشة الموقف مع الدليل وبعد استشارة خريطة كانت بحوزتنا وجدنا أنه لامناص من التوجه إلى ادفو لانها أقرب بكثير من الأقصر وبدأنا نتجه بالفعل نحو ادفو على أمل أن نصلها في نفس المساء ثم نخبر الاقصر هاتفيا بوصولنا سالمين .

غادرنا وادى دغبج ودخلنا وادى مياه الذى أدى بنا إلى معبد سيتي الأول في وادى عباد على بعد حوالي خمسين كيلو متر من ادفو ولم تكن الفرصة قد سنحت لي من قبل لزيارة هذا المعبد ولذلك صادف تغير خطة السير هوى في نفس . وعلى أية حال فبعد مسيرة أقل من ساعة بدأت أصوات غريبة تصدر عن محرك السيارة التي توقفت تماما بعد بضعة دقائق . وبذل السائق كل ما في وسعه لاصلاح المحرك ولكن لم يلبث الليل أن أرخى سدوله فوضع حدا لكل مجهوداته . وقررنا الانتظار حتى طلوع نهار يوم جديد . لم يكن ينقصنا الطعام أو الماء فتناولنا وجبة بين الضحك والمداعبات لا سيما حين رحنا نفكر في القلق الذى سيلم بأولئك الذين ينتظرون وصولنا . بدأ الشك يساورني هل سيكون بامكاني اقامة حفل عيد الميلاد (الكريسماس) الذى كنت اعتزم إقامته في اليوم التالي والذى عزمت اليه ثمانية من الأصدقاء الأجانب وفكرت كيف سيكون موقف زوجتي اذا فشلت في العودة في وقت مناسب .

كانت ليلة قارسة البرد وأسفنا لعدم وجود بطانيات . وكنا نشعر بالتعب وبرغبة ملحة في النوم ، وأصررت على أن ينام السائق الذى جهد أكثر من أى واحد بيننا ، على المقاعد الأمامية بالسيارة بينما ينام صديقي على المقاعد الخلفية مع أحكام أغلاق الابواب حتى لايشعرا بوطأة البرد ، أما الدليل فقد قال أنه معتاد على النوم فى الصحراء المكشوفة وكان معه " حرام" يستخدم كغطاء ، وفيما يتعلق بي فقد ظننت أن ملابسي الشتوية ومعطفي ولفاعي كلها كافية لتدفئتي ، ولكني كنت مخطئا ، لقد أستغرقت في النوم على الفور ولكن بعد انقضاء ثلاثة أرباع الساعة أيقظني البرد القارس ، كانت أعضائي متجمدة وجسدي يرتعد ، وكان محمود غارقا في سباته ولكني أيقظته واعترف لى بأنها ليلة نادر بردها واتفقنا على أنه من الأصوب أن نظل مستيقظين وأن نشعل نارا ، كان محمود عارفا بالمنطقة تمام المعرفة فسرنا حوالي أربعين دقيقة حتى جئنا واديا حيث جمعنا في الظلام بعض أغصان السنط الجافة وفى خلال بضع دقائق أشعلنا نارنا وقضينا بقية الليل قربها نتحدث عن قبيلة العبابدة وعن مختلف الأجانب الذين عمل معهم محمود دليلا ، خلال الليل احتسينا الشاى بضع مرات وقد أكد لى أنه اذا لم يتم اصلاح السيارة في الصباح فمن الممكن أن نأخذ جمالا من بدو العبابدة الذين يرعون حيواناتهم في واد لايبعد أكثر من مسيرة ساعتين على الأقدام وهكذا يمكننا ان نتصل ادفو بسلام خلال يومين ، وقد حاولنا أن ندفئ انفسنا فجعلت أدق على علبة صفيح فارغة بينما راح محمود يرقص رقصة عبابدية خاصة تتألف اساسا من القفز في الهواء وحينما جاء دورى لتقليده فشلت فشلا ذريعا فأقلعت عن المحاولة .

ومن حسن الحظ أن السيارة قد تم أصلاح عطبها فى التاسعة صباحا وتمكنت من زيارة معبد وادى عباد وتفحصت النصوص القريبة منه بل وحاولت أن أستخرج مياها من البئر العميقة القديمة التي حفرها سيتي الاول منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام ولازالت صالحة للاستعمال . ولم أتوقف كثيرا في أدفو*بل وأمكنني أن الحق بضيوفي في العاشرة من مساء ذلك اليوم .

وطوال ماتبقى من عمرى ظللت ممتنا لهذه الرحلة التي تعلمت منها دروسا كثيرة ساعدتني فى كل رحلاتي اللاحقة ففي أى وقت ذهبت فيه إلى الصحراء فيما بعد كنت أتخذ جميع الاحتياطات الضرورية ، فمن الأسلم دائما اصطحاب سيارتين حتى إذا عطبت واحدة أدت الاخرى المهمة وأن تتوفر كل الأدوات وقطع الغيار وكافة

الضروريات الاخرى فى حالة اذا ما اضطررت لقضاء ليلة أو بضعة أيام أكثر مما كان متوقعا . وتعلمت ألا أحدد مسبقاً أى وقت للوصول لأن هذا فى الحقيقة أمربيد الله .

وفى رحلات تالية تعرضت لمصاعب كثيرة ففى احدى المرات قضيت مع رفيقين أربعة أيام بجانب سيارة معطوبة على الطريق بين البحرية والقاهرة وكان ذلك أثناء أشد شهور الصيف حرارة ولمدة ست وثلاثون ساعة لم تكن لدينا قطرة ماء . وفى لحظات مثل هذه يبغض المسافر الصحراء ويبغض نفسه ويقسم أن لايعود إليها ثانية ولكن بعد مرور الوقت ينسى هذا كله وتنتابه نشوة عارمة وهو يعد العدة لرحلة جديدة .

ومن الممكن أن يكون للصحراء مزاجها المتقلب اذا يمكننا أن تظهر حبها وعطفها فى بعض الأحيان ويمكنها كذلك أن تذيق محبيها طعم الجحيم ، الا أنه فى الصحراء يمكنك أن تشعر أنك قريب جدا من الله وتبدأ تشعر بحاجه ملحة لأن تعرف نفسك ، حيث تستطيع أن تختبر صبرك ومقدرتك على مواجهة كافة أنواع الصعاب ، وهنا كذلك تتذوق لذة الانتصار ، انه فى الصحراء حيث تشعر أن الهواء الذى تتنفسه يبدو نقيا وأن الماء يبدو أعذب مذاقا ، وفى سكونها تكون أفكارك دائما نبيلة وقلبك حافل بالتسامح .

وعلى الرغم من تقدمي فى السن فأننى لازلت أعشق السفر فى الصحراء وأتعشم ألاأحرم من هذه المتعة طالما بقيت على قيد الحياة . وطوال السنين الثمانية وثلاثين التى تفصل بينى الآن وبين رحلتى إلى وادى دغبج فأنى لازلت أذكر كل التفصيلات الصغيرة ولازلت أسمع صوت محمود الرقيق الخفيض حينما كان يتكلم أو يغنى وسأظل ما حييت أراه يقفز عاليا فى الهواء بجوار النار وسأظل دائما أذكر محاولاتى الخرقاء والفاشلة لمحاكاته .

وأثناء الثماني وثلاثين سنة التالية قمت برحلات كثيرة معظمها فى سيارات مختلفة الطراز وأحيانا بالطائرة كما قمت بست رحلات طويلة استخدمت فيها الجمل ولابد من الاعتراف بأن السفر بالجمل كانن بالنسبة إلى أعظم متعة من غيره وان كل تفصيلاته عميقة الجذور فى ذاكرتى ولكن يحتم علينا الصدق أن نقول أنه لأمر شاق أن يركب الإنسان جملا لأيام طويلة فى الصحراء إن صيفا أو شتاء ان السفر

بالجمال يتطلب جلدا ولياقة بدنية ليست متوفرة لكل انسان ولكن في نظرى هذه هي الطريقة الوحيدة اذا أراد المسافر أن يستشعر جمال الصحراء . ان من الامور الرائعة أن يسافر المرء مع البدو وان يحيا حياتهم ويتعلم من خبرتهم .

ويجد الشخص عديم التجربة الصحراء مملة . فنفس الشيئ يتكرر بلانهاية ولكن هذا غير صحيح على الاطلاق ، فحيثما نظرت وجدت شيئا مختلفا عما رأيته أو عرفته من قبل ، وحينما تسافر بالجمل في صحبة قافلتك الصغيرة يمكنك أن تدرس أكثر وأن تكون مجموعة طيبة من الصخور أو النباتات أو الحشرات اذا كنت تبحث عن مثل هذه الأشياء ، ومن المؤكد ان المزايا أعظم بكثير من مجرد قيادة سيارة عبر أديم الصحراء بسرعة فائقة . فراكب السيارة يتحتم عليه أن يسير في درب محدد وتجده قلقا دائما على البنزين والزيت وفي لهفة للوصول الى غايته في الوقت الذى سبق أن حدده . ويعتبر البدو راكب السيارة غريبا ، ففي حين يرحبون بك في خيامهم (في مقابل مدفعة ينتظرونها منك) فان السيارة تقيم حائلا بينك وبينهم . ولكنك اذا سافرت بالجمل فستلقى منهم ترحيبا حارا ويعتبرك البدو صنوا لهم يفعل ما يفعلون ، وفي أى وقت كنت أصل إلى خيامهم بالسيارة كان يخرج رجل أو أثنين للترحيب بى سائلين ما اذا كنت في حاجة إلى خدمة وربما يتجرأ بعض الأطفال ويقتربون منى في حين تبقى السيدات بعيدا . ولكن اذا سافرت بالجمل فان البدو يلاحظونك من مسافة بعيدة وعند وصولك يستقبلونك بترحاب وكرم حقيقيين لاسيما اذا كان أحد رجال قافلتك تربطه بهم صداقة قديمة أو كان من أفراد القبيلة التي تسافر علي ترابها .

رحلة بالجمل :

كما ذكرت من قبل كانت معظم رحلاتي في الصحراء تتم بالسيارة أما القليل فقد استخدمت فيها الجمل ، ولآن وبعد سنين عديدة فأنني كلما أذكر تلك الرحلات فأنني أتذكر كل تفاصيل رحلاتي التي استخدمت فيها الجمل في حين كادت رحلات السيارة أن تدخل في غياهب النسيان .فأني أتذكر فقط تلك الحوادث التي اضطررت بسببها للبقاء في الصحراء يوما أو يومين بدون ماء أو التي عطلتنا فيها كثبان الرمال .

في أحد أيام صيف عام ١٩٤٢ وبعد أن أنهيت موسم الحفائر في الواحة البحرية قررت أن امضى عشرة أيام أخرى لدراسة أحوال السكان وبينما كنت واقفا مع صديق

لي من أهل الواحة رأيت قافلة من حوالي أربعين بعيرا تقترب وقال صديقي أن هذه العير من الفيوم وجاءت الى الواحة للرعي . وقد أدى هذا بحديثنا إلى موضوع السفر بالجمال وذكرت انني آمل أن أذهب إلى وادي النيل يوما ما على ظهر جمل وضحك صديقي وقال .. ان هذا لن يحدث ، والواقع أنك لاتستطيع أن تفعل ذلك . ثم أضاف أنه حتى في الشتاء يرتعد البدو من مجرد التفكير في مثل هذه الرحلة أما في الصيف فأنهم يتجنبونها تماما . ولا أدري لماذا آلمني هذا الكلام ولكنني أخبرته أنني ساعود الآن ، في شهر يوليو ، إلى وادي النيل على ظهر جمل اذا أعارني هؤلاء البدو واحدا من ابلهم .

وبعد ساعتين كنت قد حسمت المشكلة برمتها وحددت يوم الرحيل ، وارسلت سيارتي النقل الخاصتين بي وبهما مساعدي والطاهي في اليوم السابق على مغادرتي الواحة . ومثل أي مسافر عادي في الصحراء كنت مصمما أن أتم الرحلة دون أن يكون هناك أحد يقوم على خدمتي وحينما جاء وقت الرحيل لم أتمكن من العثور على سرج جمل مناسب ولاحتى مظلة ، فالشخص الوحيد الذي كانت لديه مظلة هو القاضي وكان قد أخذها معه حينما ذهب ليقضي اجازته في القاهرة ، ورغم كل هذه العقبات بدأت رحلتي في الوقت المحدد بدون سرج جمل وبدون مظلة .

كان معي ثلاثة جمال ورجلان أحدهما بدوي يعرف الطريق جيدا أما الآخر فكان من أهل الواحة وكان يسافر بنفس الطريق مرتين على الأقل في العام وكان من بين الرجال الذين يعملون معي في الحفائر . وعندما سألاني عن أنواع الاطعمة التي أبغي أن اتناولها أثناء الرحلة أجبت : " اعتبراني واحدا منكما ، فسآكل ما تأكلون ولن أمس أي طعام خاص" . ولن انسى ما حييت صباح اليوم الأول ، كانت الساعة حوالي الحادية عشر وكان الحر خانقا وليس ثمة نسمة هواء وأحسست كأنما سيغمى علي ، ولأكثر من مرة فكرت في العودة إلى الباويطي ولكنني لم أشأ أن أخاطر بهيبتي ودفعني الغرور الأحمق إلى الاستمرار ، كنت أركب جملا بينما كان الرجلان يسيران على أقدامهما وقد غطيا رأسيهما بلفاعتين لحمايتهما من الشمس ، وفجأة بدأ أبو هشيمة البدوي يغني وعلى الفور حثت الجمال الخطى وأدخلت الانغام السرور إلى نفسي وحينما انتهى من أغنيته الأولى راح يترنم بأغنية ثانية كان لكلماتها مفعول السحر في نفسي ، ويمكن تلخيص كلمات هذه هذه الأغاني الطويلة الحزينة التي راح يرددها كما يلي : " طالما نصحتني أمي وكثيرا ما قال لي أبي : دع النوم في السرير

والجلوس في الظل " . وهي كلمات مناسبة تماما للوضع الذى كنت فيه ، فالرجل الذى يذهب إلى الصحراء لاينبغى له أن يفكر فى راحة الأسرة ولافى مقعد تحت ظلة فالصحراء الواسعة هى بيته .

وكان الرجلان يكرهان ركوب الجمال الا في حالة التعب الشديد فخلال رحلة ستة أيام لم يركب أبو هشيمة الا مرتين ولمدة ساعتين فقط أما أبو غانم الذي كان متقدما في السن فكان يركب يوميا لساعة أو ساعتين . وكنا اذا وجدنا صخرةأوينا الى ظلها لساعة أو اثنتين في الظهيرة ولم تكن نتناول أية وجبة بل نأكل فقط بعض البلح أو كسرة من الخبز، وقبيل غروب الشمس كنا نتوقف وننزل المتاع عن الجمال ونقضى الليل فى المكان الذي نجد أنفسنا فيه ، ولم يكن لدينا خيام وانما كنا نلف أنفسنا بكل بساطة فى الشيلان أو البطاطين وننام تحت النجوم ، كان الرجلان يعدان وجبة العشاء كل يوم ، كان يخبزان رغيفا كبيرا على الرمال ويطبخان العدس بالبصل والزيد وكان ثلاثتنا يأكلون من نفس الطبق وبعد العشاء كنا نحتسى الشاى طويلا ويمتد بنا السمر ساعة أو ساعتين وكان الحديث يدور غالبا حول تجاربهما على هذا الطريق وفى أماكن أخرى من الصحراء .

كان الخبز يسوى بالطريقة المتبعة فى الصحراء ، فتقام نار من أغصان الأشجار وروث الجمال الجاف فوق رمال نظيفة وتحترق بشدة لحوالى نصف ساعة حتى يصبح الرمل ساخنا تماما ، وكنا نأخذ بعض الدقيق ونعجنه فى طبق بالماء والملح ثم يفرش بين طبقتين من الرمال الساخنة وبهذه الطريقة يكون لذيذ المذاق وإنما يجب أكله بسرعة اذ أنه يصير صلبا تماما فى ظرف نصف ساعة . ولم تكن ايام رحلتنا دائما مملة لأن عبد الغنى كان قصاصا مجيدا عارفا بكل قصص أو زيد الهلالى البطل المثالى فى نظر كل الفلاحين العرب وكل البدو ، وكان يحكى القصص شعرا مما أبهج أبو هشيمة وأبهجنى اذ أن هذه كانت من القصص المحببة الى نفسى فى صباى. وفى أحد الايام حدثت مشادة بين الرجلين فقد كان عبد الغنى يتغنى نثرا بقصة بطل عربى أخر مشهور هو الزير سالم ووصل الى النقطة التي طلبت فيها زوجة أخ البطل منه أن يأتى لها بالماء من بئر الأسود حيث أنها كانت تريد التخلص منه وتحكى القصة أن الزير سالم صارع أربعين ليثا وصرعهم جميعا وحصل على الماء ، وعندما وصل عبد الغنى إلى الجزء الذى أقترب فيه الزير سالم من البئر ووقع نظره على الأسود ، قرر أن يتوقف عن الغناء حيث أن حنجرته كانت قد بدأت تؤلمه،

وهنا أشتد الغضب بأبي هشيمة وطلب أن يعرف كيف يمكن لشخص أن يترك الزير سالم في موقف مثل هذا دون أي ضمان بالأمان ، وضحك عبد الغني قائلا :" أنت تعرف جيدا أن الزير سالم خرج من هذا المأزق سالما " ولكن هذا الرد لم يرض أبو هشيمة فقال : " ليست هذه هي المشكلة ، اذ ليس من العدل في شئ أن تترك الزير سالم هناك ، لابد أن تخرجه من الخطر الذى يواجهه " .

وبدأ الرجلان يتبادلان السباب ولكني وضعت حلا للمشكلة بأن وعدت عبد الغني عشر سجائر اذا استأنف الغناء ، وقد فعل ذلك حتى عاد الزير سالم إلى بيته سالما وسر أبو هشيمة كثيرا . كانت مثل هذه الحوادث البسيطة تستغرق وقتنا ولكن أسعد الساعات لدينا كانت حينما نتناول وجبتنا ونجلس نتسامر ونقص كل أنواع الحكايات .

وكان من بين العوامل التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة أن بعض البدو أخبروني بوجود بقايا أثرية في وادى الريان ، وقد وصلنا الى مكان السقيا هذا في اليوم الخامس، وكانت مياهنا قد نفذت نهائيا قبل وصولنا الواحة بأربع ساعات غير أن ظمأ أربع ساعات ليس شيئا ذى بال في الصحراء ، ومما أثار أشمئزازنا كثيرا اننا وجدنا جمالا عديدة ترتوى من نفس البئر وقد لوثت مياهه برائحة أنفاسها الكريهة ، وكان باستطاعة الرجلين أن يشربا هذا الماء ولكنني لم أستطع أطلاقا ، فقمت بغليها لعمل الشاى وحتى هذا لم أستسغه بالمرة ، وبناء عليه أبلغتهم بأننا يجب أن نغادر وادى الريان فورا ونتيجة صوب وادى المويلح ، وهى مسافة تستغرق ثمان ساعات سيرا ، لكي نحصل على الماء الصالح لشرب ، ووافق عبد الغني على الفور ولكن أبو هشيمة نظر إلى هنية ثم قال بهدوء :" انني لفي دهشة أن اسمع منك هذا القول ، لقد أخبرني كل من الواحة أنك رجل عطوف ، فكيف تتصرف بهذه الطريقة تجاه جمالنا المسكينة التي قضت خمسة أيام في الصحراء دون طعام أو شراب ؟ دعهم يأكلون وينالون قسطا من الراحة " فأحنيت رأسي وأخبرته انه على حق ، وهكذا أمضينا اليوم في وادى الريان حتى تستطيع الجمال ان ترعى وتشرب ولكنني لم أذق طعم الماء بل كنت فقط أبلل شفتي من ووقت لآخر .

وعلى أى حال فمنذ وصولنا وادى المويلح تلقيت جائزة عظيمة ، ففي دير القلمون رحب بي أربعة رهبان كانوا يعيشون فيه وعاملوني بمنتهى الرقة والعطف . لقد كانوا يراقبون مقدمنا من فوق جدران الدير وحينما وصلنا وقرعنا الجرس نظر واحد من أعلى الحائط وسألنا عما نبغى ، فأخبرته عمن نكون وأننا أتينا لزيارتهم ولدى الدير ،

فجاء الرهبان الأربعة إلى الباب ورحبوا بنا ولابد أنني كنت أبدو ظمآنا وعلى وشك الاغماء اذ بمجرد ان وقعت أنظارهم على أسرع واحد منهم وأحضر لى كمية من الماء ، حوالى نصف كأس ، ونصحنى ألا أشربها كلها مرة واحدة ولم أرى مناصا من أتباع نصيحته ، وحينما دخلنا حجرة الضيوف أعد لنا الرهبان شيئا من الشاى ولكن أبلغ لفته منهم كانت الطريقة التقليدية للرهبان فى الترحيب اذ جاء الأنبا حاملا مياها دافئة فى اناء وخلفه الرهبان الثلاثة يترنمون بالصلوات ، وأصر على خلع حذائى بيديه وغسل قدمى بنفسه ، وهو تقليد عظيم متبع منذ أيام السيد المسيح عليه السلام ، ورغم أننى كنت قد أخبرتهم قبل دخولنا الدير أننى ورفيقى مسلمون فإن ذلك لم يؤثر فى معاملتهم لنا أدنى تأثير ، على العكس لقد أبدى أباء الصحراء الورعون كل عطف وكرم وضيافة تجاه إخوانهم المسلمين وربما أكثر مما لو كنا مسيحيين ، وبعد أن قضيت أربع ساعات برفقتهم غادرت الدير وأعدا اياهم بالعودة وقد نفذت ما وعدت به بعد عام لاحق .

وثمة ذكرى أخرى لهذه الرحلة تتعلق بالليلة السابقة على وصولنا الفيوم ، فكنا قد قد عزمنا على قضاء الليلة بين كثبان الرمال جنوبى الغرد على أمل أن ندخل المدينة فى الصباح الباكر ليوم التالى ، وكنا فى غاية الاجهاد حتى أننا أجلنا تنظيف أوعيتنا حتى الصباح وألقينا بها متناثرة على الرمال حولنا ، وكانت جميع متعلقاتى فى حالة فوضى مماثلة فيما عدا أوراقى وحافظة نقودى التى كنت أحتفظ بها دائما ، وفجأة وعند منتصف الليل هبت علينا عاصفة رملية شديدة ، ولأكثر من ساعتين بذلنا جهدنا للابقاء على الجمال فى أماكنها حتى يتسنى لنا تحميلها بمتاعنا، وطبيعى أننا فقدنا أوعيتنا فى الرمال كما ضاع معطفى وبمجرد وصولنا فى الصباح إلى أول قرية استدعيت سيارة أجرة لتأخذنى إلى الفيوم أما أبو هشيمة فقد رفض أن يترك بعيره ويصاحبنى حيث أنه كان ينوى العودة فى اليوم التالى الى البحرية ، وكنت قد توقعت أن يرافقنى عبد الغنى إلى الفيوم ومنها إلى القاهرة حيث يستطيع العودة من هناك إلى البحرية بالسيارة ، ولكن أخطأ ظنى ، فقد نظر إلى وقال : " ماذا عسانى أن أصنع فى الفيوم أو القاهرة ؟ اننى لن أجد صديقا ولارفيقا أفضل من أبى هشيمة ، وسيكون من العار أن أتركه للصحراء وحده ، لقد أتينا معا ولابد أن نعود معا " .

لم تكن هذه الرحلة أولى رحلاتى بالجمل ولم تكن آخرها ، ولكن قبل أن أترك هذا الموضوع ربما كان من المناسب أن أضيف بعض الملاحظات عن هذا الحيوان

المدهش الذي قل من فهمه من الناس ، يعتقد البعض أن الجمل حيوان قاسي ، غبي ومحب للإنتقام وربما كان هذا صحيح إلى حد ما ، ولكن الجمل حيوان طيب بصفة عامة ، بل الواقع أن له قصص حبه الصغيرة .

قصة حب جمل :

في عام ١٩٣٨ أخذت ثلاثة إبل في رحلة إلى معبد عين عمور بين الخارجة والداخلة ، وفي ذلك الوقت كانت قبيلة العمايم ، وهي أحدى قبائل مصر الوسطى ، ترعى أبلها في الواحة الخارجة ، ومن النادر أن يؤجروا جمالهم لأحد في وقت مثل هذا اذ أنهم يفضلون أن تنال الجمال قسطا من الراحة وتعطي الفرصة للرعي ، وعندما قصدتهم لاستئجار احد جمالهم رفضوا في أول الأمر ولكن عندما علموا أنني أنحدر من أصل بدوي وأن القبيلة التي ينتسب إليها أسلافي كانت من ابناء عمومتهم ، غيروا موقفهم وقدموا لي أفضل أبلهم لكي أتم بها الرحلة من الخارجة الى المعبد والتي تستغرق ما بين أربعة وخمسة أيام .

أخذت ثلاثة أبل : كان أولها يدعى " مبروك " وهو جمل قوي ناضج سلس القياء راسخ الخطو ويستطيع أن يتحمل عبئا ثقيلا ، أما الثاني فقد حملنا ، بمتاعنا وبغذاء الجمال ، أما الثالثة فكانت ناقة تدعى " غزالة " كانت جميلة وأطول من أي جمل عرفته من قبل ، بيضاء اللون وذات جسم ممشوق ، وأخبرني العمايم أنها أفضل لاني من أبناء عمومتهم ، وكانت " غزالة " مشهورة بسرعة العدو وكان هذا يناسبني تماما لأني كنت أعتزم أن أتحرك هنا وهناك في مقدمة الجملين الآخرين لاستكشف كل التلال بحثا عن نقوش الجرافيتي والرسوم ... الخ التي قد تكون في الطريق ، وفي اليوم الأول وحينما كنت أعدو على ظهر غزالة متقدما على الآخرين ، توقفت الناقة فجأة وراحت تتلفت حولها ، فسقطت من فوق السرج على عنقها ثم على الأرض ، وكما يفعل أي جمل أصيل لم تغادرني بل انتظرت حتى استويت على قدمي واقفا ، لم يكن قد أصابني سوء فتمكنت من ركوبها مرة أخرى ولكنها رفضت باصرار أن تتقدم نحو الأمام وإنما أصرت على العودة واضطررت أخيرا إلى التسليم بما أرادت، وعند لحقنا بالآخرين أخبرت التابع بما حدث ، فأجاب بأنه هو الملوم ، وقال أنه كا ينبغي أن يحذرني وراح يعتذر بشدة ، وأراد أن يتأكد أنني لم أصب بسوء ثم أخبرني بأن غزالة غارقة في حب مبروك حتى انها لاتدعه يبعد عن عينها ، وإذا لم تتمكن من

رؤيته فانها تضطرب وترفض عمل أى شئ حتى تراه ثانية ، وأضاف التابع أن هذا هو سبب سلوكها معى ، ومنذ تلك اللحظة جعلت أراقب الجملين فى أوقات راحتنا أثناء الظهيرة أو حينما ننصب مخيمنا فى المساء لنتناول وجباتنا ، كانت غزالة دائما ما تأتى إلى جوار مبروك وتحاول أن تهرش له رقبته وتبدى الكثير من علامات العشق ، وكان من عادتها كذلك أنه كلما كانت الجمال تأكل التبن والعلف كانت تدفع بنصيب من من علفها إلى مبروك وتأكل هى التبن فقط ، كانت غزالة تبلغ من السن خمسة أعوام وهو ما يقابل حوالى خمسة وعشرين عاما من سن المرأة ، أما مبروك فكان عمره أكثر من عشر سنوات أى ضعف عمرها على الأقل ، كان دائما هادئا ، عطوف ولكن بتحفظ بما يتلاءم مع سنه بينما كانت هى العاشقة الوالهة .

ويمكن أن تكون الجمال أكثر حساسية من بنى الانسان وتقدرالجميل ، ولكنهم لاينسون أبدا الغلظة أو القسوة فى المعاملة ، ولابد من الإعتراف أننى أحب الجمال وأعتبرهم أروع الحيوانات بالنسبة للبدوى يشاركونه حياته الصعبة بصبر وجلد ولايمكنه الاستغناء عنهم بأى حال ، ومن الضرورى أن نذكر هنا أن أستعمال الجمل فى صحراوانا على نطاق واسع يرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد فحسب ، وقبل ذلك التاريخ كانت الحمير تستخدم للسفر بين وادى النيل ومختلف الواحات ، ومن المؤكد أن المصريين عرفوا الجمل فى فترة قبيل الأسرات وفى العصر العتيق ولكن ليس فى العصور التاريخية ، وقد وفد الجمل إلى مصر مع الغزاة الفرس عام ٥٢٥ق.م . ومنذ ذلك الحين ظل استخدامه فى الصحراء وتأثيره على الحياة فيها فى ازدياد مطرد .

فى العصور الفرعونية استخدمت قوافل الحمير ويذكر حرخوف (وهو مستكشف رحل حتى غربى السودان فى عصر الأسرة السادسة) أنه كانت لديه قافلة تتكون من ٣٠٠ حمارا ، وحتى الآن فان بعض سكان الواحات خاصة سكان البحرية والفرافرة ، لايزالون يستخدمون حميرهم للسفر إلى وادى النيل ، وفى قافلة مثل هذه لابد وأن يحمل عدد من الحمير كميات كبيرة من الماء حيث أن هذه الحيوانات لابد وأن تشرب فى الصيف كل يوم ، وبخلاف الجمال فأن الحمير لاتستطيع أن تصمد بدون ماء لمدة أربعة أو خمسة حتى سبعة أيام ، ويمكن للجمال أن تكتفى بترطيب أفواهها من بعض النباتات التى تأكلها ومن المعروف انه فى الشتاء يمكن أن تظل الجمال بدون ماء لمدة عشرة أيام ، ومع هذا فعندما يعيش الجمل فى القرى حيث يستخدمه الفلاحون لنقل

منتجاتهم إلى المدينة فانه يزداد وزنا ويصبح في حاجة إلى للماء يوميا ، وبعبارة أخرى فانه يفقد أفضل خصائصه بل وان عمره يصير أقصر زمنيا (١)

لقد قلت مافيه الكفاية عن الجمال واستخدامها للسفر في الصحراء ، ولايفضل أي مسافر حديث إلى البحرية أن يستخدم الجمل بدلا من السفر المريح بالسيارة على طريق معبدة في ظرف خمس أو ست ساعات من القاهرة .

ودعنا الآن نزور الواحة وننعم بحدائقها ونقابل أهلها المسالمين وندرس آثارها .

---

(١) لم تكن شبه الجزيرة العربية أو آسيا هى الوطن الأصلي للجمل وانما شمال أمريكا بالتحديد نبراسكا ، وقد هاجر إلى العالم القديم عبر مضيق برنج منذ حوالى ٢٠٠٠ر٢٠ سنة مضت وجاء إلى آسيا حيث تطور إلى نوعين : الجمل وحيد السنام والجمل ذو السنامين والاخير منتشر في أواسط آسيا في الوقت الحاضر ، وفى جميع مناطق الشرق الأوسط فان وحيد السنام يدعى " جمل " أما النوع ذو السنامين فأنه غير معروف هناك . وفى الأصل لم يكن ارتفاع الجمل أكثر من ثلاثة أقدام (٩٠سم) ولكن حجمه راح ينمو طولا منذ ذلك الحين ولدى متحف التاريخ الطبيعى فى نيويورك أفضل عرض لتاريخ الجمل من بدايته حتى يومنا هذا .

الجزء الأول
الواحة البحرية

الفصل الأول
بحرية : الواحة الشمالية

فى الواحة البحرية :

في عصر الأربعاء الثاني عشر من شهر يناير سنة ١٩٣٨ وصلت بالسيارة إلى الباويطي عاصمة البحرية بعد رحلة مرهقة ، لقد اقتضى الأمر سفر يومين لاتمام ما كان يعرف حينذاك بأصعب رحلة في واحات الصحراء الغربية .

ولم تمض هذه الساعات الستة وأربعين فى سفر مستمر بل الواقع أننا قضينا معظم الوقت في إصلاح سيارة عتيقة أو لأخراج عجلاتها من الرمال . وإبان الرحلة لم أنم أكثر من أربع ساعات حيث لففت نفسي بالبطانيات واستلقيت على الأرض تحت النجوم بينما كان برد الليل قارسا .

وما أن وصلنا مشارف الواحة ورأينا أشجار النخيل حتى نسيت كل التعب ونسيت رحلة ٣٤٠كم في صحراء قاحلة (شكل ١) ، ولما أقتربنا من المنازل سمعنا أصوات الطبول والمزامير ، وأخبرني قائد السيارة أن هذا هو أحد موسمى الزواج بالواحة ، لقد باع الناس زيتونهم وزيت الزيتون وأن مالايقل عن ثمانية زيجات تتم خلال هذا الاسبوع ، ولمدة الأيام السبعة يجتمع الأقارب والجيران كل عصر في منازل عائلات العرائس ويقضون ساعات العصر وأوائل الليل في الرقص .

وفي أقل من نصف ساعة من وصولي رحب بي الموظفان الحكوميان الجديدان بالواحة وفي خلال نصف ساعة آخرى كنت أقوم بجولة معهما في القرية ، فعرفاني ببعض شيوخ عائلات الباويطي كما أخذاني إلى ثلاثة منازل كانت تجرى بها

الاحتفالات وجلست مع المحتفلين أشاهد الرقصات (شكل ٢) ، وفي كل منزل من المنازل الثلاثة كانت العروس تأتي للرقص بنفسها تحية للضيوف ولكن كان وجهها مغطى دائما كما كان العريس يقف بجانبها يحكم بين الحين والآخر الشال الأحمر أو الأسود الذى كان يغطى رأسها وظهرها .

وقد جعلتنى مظاهر المودة والكرم التى أبداها القرويون والموظفان أشعر وكأننى في بيتى ، ورغم مرور أكثر من ثلاثين عاما على زيارتى التى أعقبتها خمسة عشرة زيارة أخرى فان انطباعى الأول لم يتغير ، فلاتزال البحرية واحتى المفضلة ويسعدنى دائما أن أقابل أصدقائى الكثيرين حينما اذهب اليها أو حينما يأتون إلى القاهرة .



(شكل ١) واحدة من حدائق البحرية

وقد دهش كل من الموظفين والأهالي حينما علموا أنني جئت الواحة لأدرس آثارها القديمة ، فمصلحة الآثار لم تعين خفراء بها ولم يسبق لاحد من موظفي المصلحة ان قام بزيارتها كما أنه لايوجد اى سجل يحدد مناطقها الأثرية . وفي اليوم التالي أرسل المأمور مستدعيا عمدة القرى الأربعةوبعض المشايخ للحضور ألي مكتبة ، وقد أكدوا لي جميعا أنه لاتوجد أية آثار من أى نوع في الواحة ولم يسبق لهم أن سمعوا عن وجود أية أحجار منقوشة أو مكتوبة ، وانما توجد فقط بعض الكتل ملقاة بوسط قرية القصر .

وبرغم ذلك فقد كنت أعرف ما كتبه عن الواحة كل من كايو cailliaud وبلزوني Belzoni وشتيندورفSteindndff الذين زاروها في مناسبات مختلفة ، وأخذت أوجه الاسئلة لرؤساء القرية ولكنهم أصروا على القول بعدم وجود أي آثار بالمنطقة ، أما اذا كان أي شخص قد رأى أي شئ منذ مائة عام أو مائة وثمان وثلاثين سنة فلابد أن الرمال قد غطتها أو أنها لاقت الدمار . ولم أصدقهم بالطبع ، وأنما أحسست أنهم يريدون أرضاء المأمور اذ أن الحكام المحليين من مصلحة الحدود لم يكونوا في تلك الأيام يرحبون بأي غريب قد تتيح له فرصة الاقامة الطويلة أن يلاحظ كيف تصرف الأمور فقد كانوا يستمتعون بسلطات غير محدودة كانو يسيئون استخدامها لخدمة أغراضهم الشخصية .

وفيما بعد جلست مع عمدة القصر أمام منزله بينما أحاط بنا ما لايقل عن عشرين شخصا فضوليا ، ودار موضوع حديثنا حول الآثار وأكد لي العمدة أنه لايوجد منها سوى الجدار الحجري الذي يقف أقل من ستين مترا حيث كنا ، فسألته عن الحجرة المبنية من الحجر والموجود داخل حديقته والتي زارها ستيندروف منذ ثمانية وثلاثين عاما حيث كانت تستخدم كحجرة نوم لخدمة أبيه فأجاب بأنه لايعرف شيئا عنها ، فاتجهت بالرجاء إلى الاشخاص المتقدمين في السن الذين كانوا جالسين معنا ولكنهم ابتسمو قائلين : " لا ، لم يسبق لنا أن رأينا أو سمعنا عن مثل هذه الحجرة " .

وفي طريق العودة أخبرني قائد السيارة أن موقف العمدة ناتج عن إشاعة تقول أنني أتيت إلى الواحة لاضع يدى على الأماكن القديمة كأملاك أميرية ولكي يتجنبوا هذا الخطر قرروا فيما بينهم ألا يقدموا لي أي عون ، فعدت أدراجي إلى القصر وبعد ربع ساعة مع العمدة صرنا صديقين ، فأخذني إلى حديقته وأراني الغرفة ذات

النقوش التي سبقب لشتيندورف أن وصفها ولم تكن تبعد أكثر من خمسين مترا من منزله وكانت مستخدمة كحظيرة لايواء بقرة وحمارين.



(شكل ٢) شارع في قرية الباويطي.

وفي نفس الليلة علمت من القرويين بوجود كثير من المقابر المنحوته داخل المنازل بالباويطي (شكل ٣) وغيرها متناثرة هنا وهناك وحينما سألت عن مقبرة ذات جدران مصورة كان قد لاحظها من قبل مفتش للري يدعي بكلي Buckly أخبروني أنهم يعرفون أين يمكن العثور عليها ، وزادت آمالي كثيرا بعد مناقشة مع حمدي عباس مهندس محطة اللاسلكي وصديقه أحمد عرابي وهو تاجر ذكي نشط وينتسب لاغنى عائلة في الواحة ، وقد أخبرني أنه كثير ما يتم العثور على قطع عملة وحبات خرز وأحيانا أحجار شبه كريمة منقوشة وكانت كلها تعرض للبيع على موظفي الحكومه أو تؤخذ للبيع في سمالوط أو القاهرة ، وقد ألهمتني هذه النقطة الاخيرة فكرة كيف أبدأ دراساتي الأثرية .

مهنا : منادى المدينة :

قبيل مقابلتي مع حمدى عباس وصديقه كنت قد مررت برجل طاعن في السن يدعى " مهنا " وهو المنادى المعترف به والذى يعلن على الملأ تعليمات الحكومة فحينما يريد المأمور أن يعلن على الناس أمرا كان مهنا يسير من شارع لآخر صائحا بأعلى صوته معلنا التعليمات ، وكان أهل القرية يقصدونه كذلك ليعلن عن غياب طفل أو ضياع حيوان أو أى شئ من هذا القبيل ، وبعد أن تركت صديقى أرسلت فى طلب " مهنا " الذى جاءنى بالاستراحة الحكومية حوالى الساعة الحادية عشر مساء . كان منادى المدينة رجلا مولعا بالفكاهة ومنذ البداية راح يمازحني فسألني إذا كنت أريده أن يعلن على الناس رغبتى فى الزواج ودون انتظار لاجابتى نصحنى أن أنتظر حتى العام القادم لأن كل الفتيات الجميلات قد تزوجن بالفعل ، ثم أضاف مداعبا أننى ربما استطعت الحصول على إمرأة جميلة ولكن "مستعملة " أى مطلقة هذا اذا لم يكن لدى مانع وأجبته بأننى أقدر اقتراحاته وسأفكر فيها فيما بعد ولكن العمل الذى أطلب منه تنفيذه فى صباح اليوم التالى يختلف فى طبيعته عن هذا تماما ، وحينما شرحت له أننى أريد منه أن يتجول فى أنحاء المدينة معلنا بأعلى صوته رغبتى فى شراء كل أنواع الآثار ، أغرق من الضحك ثم قال أنه أمضى أكثر من أربعين عاما كمناد للمدينة لم يسبق أن طلب منه أحد مثل هذا الطلب الغريب ، وعلى أى حال فقد قبل القيام بالعمل واخترنا كلمات الاعلان ورحنا نتدرب عليها أكثر من مرة وكان الطاهى والحارس بمثابة جمهورنا والواقع لقد تسلوا برؤية كيف نفذ كبير مفتشى الآثار الاعمال المنوطة به . وقضيت نهار اليوم التالى فى زيارة كافة قرى الواحة برفقة صديقى حمدى وعرابى وحينما سمع عمدة القرى أننى خلال زيارتى الطويلة سألحق عددا كبيرا من رجال المناطق التى سأعمل فيها كعمال بدأوا يغيرون موقفهم وراحوا يخبروننى عن الآثار حتى أنهم حددوا لى بالاسم بعض الأماكن التى توجد بها .

وعند عودتى عصرا إلى الاستراحة فى الباويطى سمعت من موظفى الحكومة أن مهنا أدى واجبه على الوجه الأكمل . وبطبيعة الحال لم يمر اعلانه الغريب دون بعض التعليقات الملتوية التى لم تخل ردوده عليها من ظرف وكادت احدى ردوده هذه أن تورطه فى معركة مع سيدة عجوز فحينما بدأت تستفهم منه رد عليها بما معناه أنها اذا كانت تفكر فى نفسها فأننى غير مهتم بشراء مومياوات .

ومع هذا فقد آثار الاعلان الاهتمام فوجدت رجلا يناهز الخمسين ينتظرنى خارج الاستراحة ، ودون لف أو دوران فتح لفافة قماش كانت بها خرزات قليلة عديمة القيمة من العصر الروماني ، فدعوته للدخول ودار بيننا حديث طويل حول المكان أو الأماكن التي وجد فيها هذه الخرزات ، ورغم أنها لم تكن تساوى أكثر من نصف قرش صاغ فأنى أعطيته عشرين قرشا وأخبرته أن يعتبر نفسه واحدا من عمالي ابتداء من اليوم التالي وخلال حديثنا كنا نرتشف الشاى من كؤوس صغيرة وقبل أن يغادر الاستراحة أهديته كمية من الشاى والسكر له ولأطفاله ، وانصرف بعد أن وعد بأن يحضر لى مزيدا من الخرز والأشياء الاخرى فى صباح اليوم التالي .



(شكل ٣) مقبرة الشيخ البابويطى .

وفى السادسة صباحا وجدت طابورا من ستة رجال ، بينهم بما فيهم صديقى الليلة السابقة ، يقدمون لي خرزا لاقيمة له وقطع عملة وتمائم ، كنت كريما معهم جميعا ولكني أصررت على معرفة المكان أو الاماكن التى تأتى منها الاشياء فالحقتهم جميعا للعمل معي، ثم انطلقنا لزيارة المواقع التى أخبرونى عن وجودها حول قريتى القصر والباويطى . وعندما عدت بعد الظهر كنت أعرف تماما أين سابدأ حفائرى .

بدأت التنقيب فى اليوم الخامس من وصولى البحرية ، فقسمت العمال إلى ثلاث مجموعات وبدأوا العمل فى ثلاثة موقع مختلفة وعلى رأس كل مجموعة وضعت ريسا أختاره لى صديقى أحمد عرابى ، كنت بمفردى وكان على أن أقوم بعمليات المسح والتصوير ونقل النصوص .. الخ وزيادة على ذلك كان على أن أعلم العمال كيف يستخدمن فؤوسهم حيث أن العمل فى الحدائق يختلف تماما عن العمل فى الحفائر ، كان متوسط الأجر اليومى للعمال فى ذلك الوقت قرشين ونصف ولكنى جعلته ثلاثة قروشونصف وطلبت منهم أن يحضروا معهم مقاطفهم وفئووسهم أو معاولهم ، كان القرويون يعانون من الاملاق وكان مستوى معيشتهم منحطا ورغم أن شهر يناير يعتبر من أفضل شهور السنة لأنه موسم جنى الزيتون فقد كان يأتينى من الرجال أكثر مما كان العمل يحتاجه (١) .

وفى غضون الأسابيع الثلاثة الأولى كانت نتائج حفائرى التمهيدية مشجعة جدا بل وأكثر من كل ما توقعت ، لقد وجدنا مقابر منقوشة من الأسرتين التاسعة عشرة والسادسة والعشرين ومعابد من الأسرة السادسة والعشرين وجبانات من العصور البطلمية والرومانية ، ولقد أصبح واضحا لى أنه توجد هنا فى البحرية فرصة بادية للعمل فى الواحة ولكن إلى جانب الآثار.

فقد أحببت الناس كما هم بسطاء لم تفسدهم الحياة وبكل مافيهم من مثالب ، وقررت أن أعطى البحرية مكان الأولوية فى أبحاثى .

علمت من الأهالى أن شهور الصيف هى أقسى شهور السنة حيث يكون معظمهم بلا عمل ينتظرون بفارغ الصبر موسم جنى محصول البلح ولذلك عدت للعمل فى البحرية فى ذلك الصيف لمدة ثلاثة أشهر وعدت مرة أخرى فى صيف عام ١٩٣٩

---

(١) فى عام ١٩٦٨ بلغ الأجر اليومى للعامل غير الماهر ٣٥ قرشا ، ونظرا لان المشروعات الجديدة فى الواحة تمتص معظم الأيدى العاملة فقد أصبح من العسير العثور على العمال .

متوسط أجر العامل الآن (١٩٩٨) حوالى ثمانية جنيهات: المراجع

لمدة أربعة أشهر ولكن اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية أثر في عملي في الصحراء ورغم كل العقبات عبرت عام ١٩٤٢ ، ولقد زرت البحرية مرات عديدة خلال العشرين عاما الماضية دون أن أقوم بأية تنقيبات ولكن هذا لايعني أن الحفائر في البحرية قد استنفدت أغراضها ، على العكس فالبحرية تكاد تكون بكرا وتحتاج إلى عمل كثير ، وليس لدى أي شك في أن أي عمل هناك في المستقبل سيعطى نتائج مجزية . وقبل استعراض تاريخ وآثار هذه الواحة دعني أعط وصفا للمكان ذاته .

بعض الحقائق حول البحرية :

الواحة البحرية هي احدى منخفضات صحراء مصر الغربية وتقع بين خطي عرض ٢٧° و٤٥ دقيقة و٢٨° و٣٥ دقيقة شمالا ومن خطي طول ٣٠° و٢٩° و١٠ دقائق شرقا اما قراها فهي على ارتفاع يتراوح بين ١٢٠ ، ١٢٨ مترا فوق مستوى سطح البحر وعدد القرى الرئيسية بالواحة أربعة تقترب كل اثنتين منهما حتى لتكون مجموعة واحدة ة، وتقع المباني الحكومية والاستراحات في الباويطى وتوأم الباويطى هي قرية القصر ولا يوجد خط فاصل بينهما بل يشير الاهالي الي حجر في أحد الشوارع على أنه بداية القصر وعلى مسافة ثمانية كيلو مترات شرقي الباويطي تقع المجموعة الثانية والتي تتكون من قريتي منديشة والزبو ولا يفصل بينهما أكثر من كيلو متر واحد . والي جانب هذه القرى الأربع فانه توجد ثلاث عزب صغيرة هي العجوز (أو منديشة العجوز) وتقع على الطريق بين الباويطي ومنديشة وعلى بعد ثلاث كيلو مترات من هذه الأخيرة ، والحارة وتقع في الشرق قرب نهاية المنخفض على بعد ٣٥كم من الباويطي وأخيرا الحيز الواقعة على بعد ٤٧كم إلى الجنوب من الباويطي (شكل ٤) .

وطبقا لاحصاء عام ١٩٦٦ ، وهو آخر ما لدينا ، فأن تعداد سكان هذه الواحة يبلغ ٩٦٠١ نسمة موزعين على النحو التالي : الباويطي ٣٣٧٠نسمة ، القصر (بما في ذلك الحيز) ٢٣٩٠ نسمة ، الزبو١٠٤٧نسمة ومنديشة (بما فيها العجوز) ٢٩٧٤ نسمة (١) .

وسكان البحرية عبارة عن خليط من ثلاث مجموعات : السكان الأصليون بالواحة، البدو الذين نزحو إليها من الصحراء الغربية إما من الساحل وأما من ليبيا

---

(١) طبقا لإحصاء ١٩٨٦ عدد سكان الواحة البحرية ١٩٥٧٠ (الباويطي والقصر ٢٧٢ر١٠ ، الحيز ٧٢٧ ، منديشة ٣١١٦ ، الزبو ٢٠٤٥، الحارة ١٨٣٢ ، المناجم ١٥٧٨ . والآن حسب بيان مكتب التموين في ١٩٩٨ يبلغ عددهم حوالي ٢٧٠٠٠ نسمة: المراجع

وأخيرا اؤلئك الذيم جاءوا من مصر العليا وبوجه خاص من محافظة المنيا . وفي كل قرية توجد عائلة يشار إليها على أنها اقدم عائلة بها وأن اعضاؤها كانوا آخر النصارى الذين تحولوا إلى الدين الاسلامي ومن بين هذه العائلات عائلة الدوايدة في الباويطي وعائلة سوبي في الزبو ، والحارة (عدد سكانها حوالي ٦٠٠ نسمة) عبارة عن فرع من منديشة والزبو بينما ينحدر سكان الحيز (حوالي ٣٠٠ نسمة) من عائلات القصر أما العجوز فلها قصة أخرى إذ يسمى أهلها " السيويون " وكان بعض أجداد الجيل الحالي يتكلمون اللغة السيوية ، ويعرف زوار الواحة جيدا أن سمعة نساء العجوز ليست فوق مستوى الشبهاتوليس لديهن أي مانع للترحيب بأولئك الذين يشعرون بالوحدة ، ومن الجدير بالذكر أنه حتى أقل من ثمانية عامل مضت كان من عادة أهل سيوة أن ينفوا بعض نسائهم إلى البحرية ، وكانت العجوز هي القرية التي يأتين إليها [١]

الطرق التي تربط البحرية بغيرها من الأماكن:

كانت توجد عدة طرق قوافل بين البحرية ووادي النيل وبينها وبين شاطئ البحر المتوسط وغيرها من الواحات وكان أهم هذه الطرق هو ذلك الذي كان يبدأ من البهنسا (أكسور ينخوس القديمة)[٢] فقد كان هو الطريق الرئيسي بين هذه الواحة

---

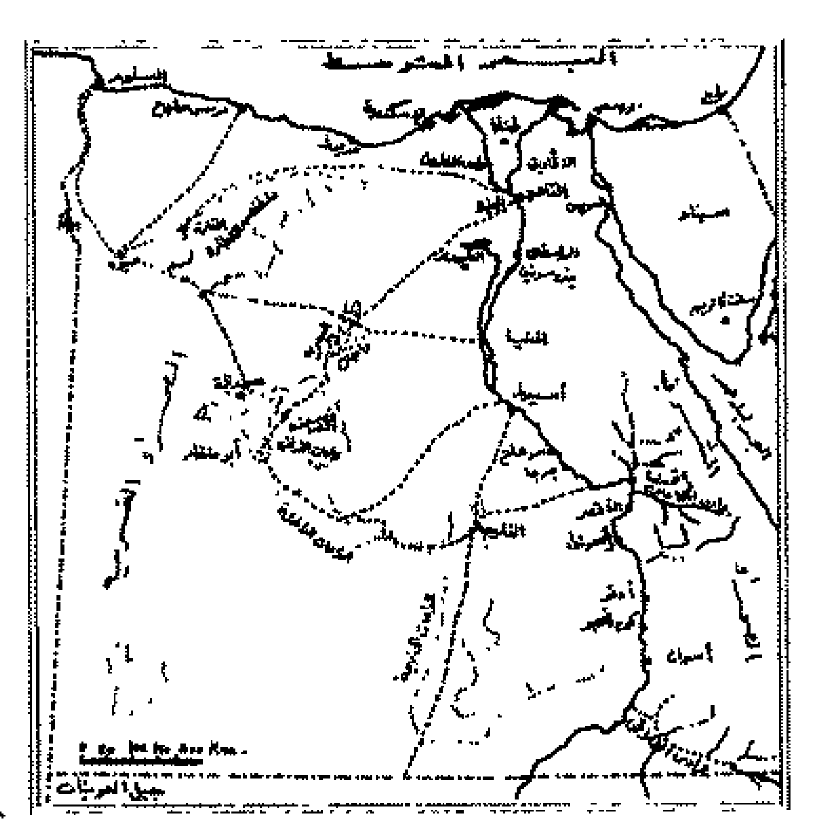
(١) في مخطوط سيوة الشهير الذي يقص التاريخ المحلي لواحة سيوة والذي أشرت إليه مرات عديدة في مجلد سيوة نقرأ ما يلي : " كانت النساء اللاتي ترتكبن فاحشة الزنا يعاقبن إما بالقتل أو النفي إلى الواحة البحرية " وفي عام ١٩٤٤ كتبت في كتابي Siwa Oasis : Its History and Antiquities.p10, Footnote 3

" ربما يكون هذا صحيحا لأنه توجد في البحرية مستعمرة للسيويين في قرية تدعى العجوز وكان أهلها يتكلمون اللغة السيوية ولكن آخر شخص كان يتكلم هذه اللغة وافته المنية عام ١٩٣٨ وقد توفيت زوجته قبله بعام واحد ولذلك فان اللغة انقرضت ، واهل العجوز سيئو السمعة ومشهورون بحبهم للهو " ولم يطرأ عليهم أي تغيير منذ ذلك الحين . وقد قابلت ذلك الرجل الذي كان يتكلم السيوية قبل وفاته وكان يتكلم العربية كذلك .

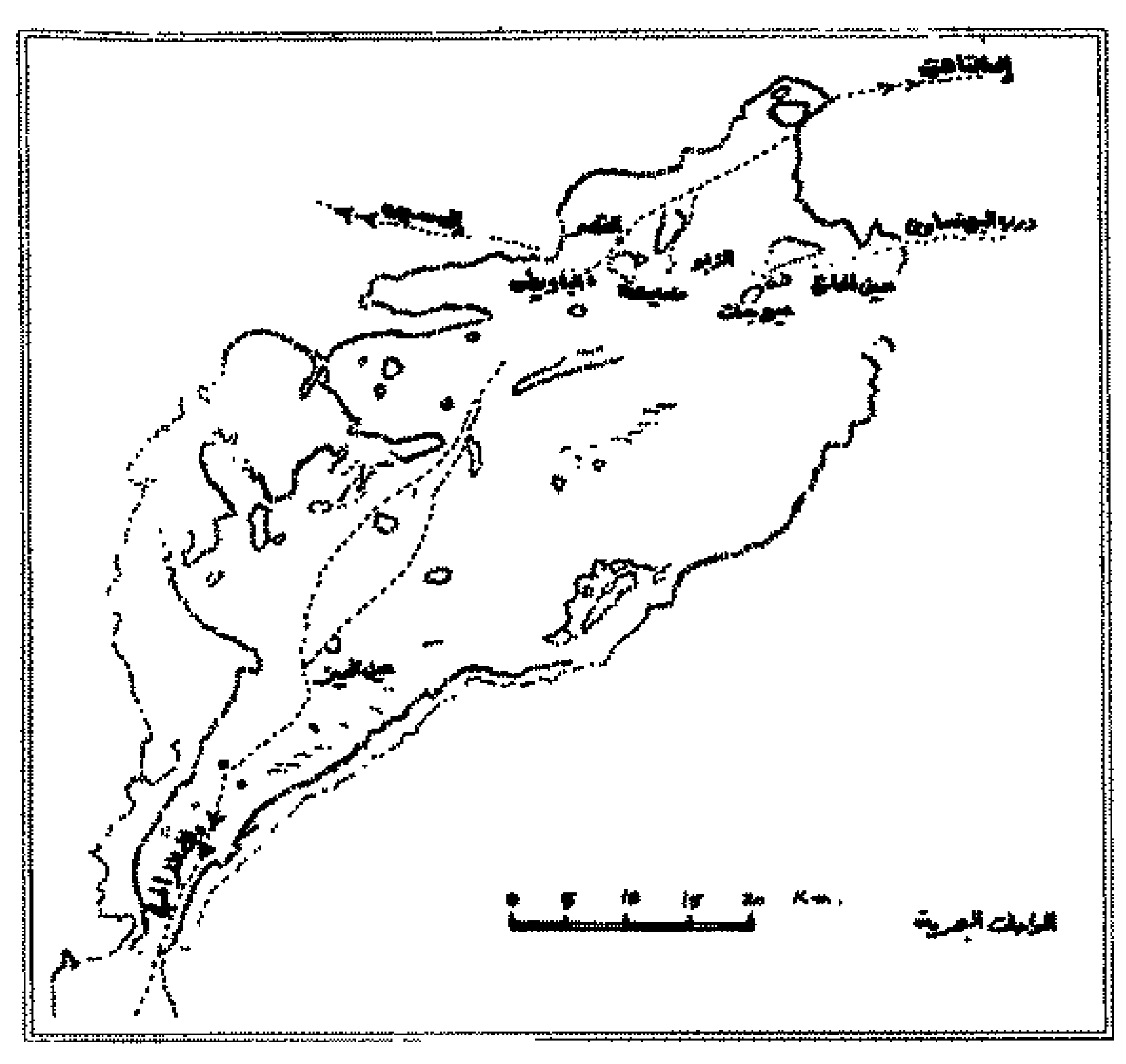
(٢) ربما أختلف نقط بداية هذا الطريق ولكن كل تفرعاته الثانوية تتقابل في نقطة تبعد حوالي ١٥كم من حافة الأرض الزراعية وتندمج كلها في طريق واحد حتى ينحدر من الجرف المحيط بالمنخفض عند الحارة ويستمر بعد ذلك حتى الزبو والباويطي ، ومن بين نقط البداية نجد بني مزار وسمالوط وبنجه وصندفة الفار .

ووادي النيل خلال العصور الفرعونية ،وفي كتابات الجغرافيين العرب كانت هذه الواحة تدعى "واح البهنسا" وإبان العصر المملوكي وعهد محمد علي وحتى إنشاء إدارة الحدود عام ١٩٧١ كانت البحرية تعتبر جزءا من محافظة المنيا ، ويبلغ طول هذا الطريق حوالى ١٩٠كم وكانت الجمال تقطعه في أربعة أيام وكان يستخدم لنقل تجارة الواحة وبواسطة كل الرحالة وموظفي الحكومة حتى عام ١٩٣٤ .

وعندما أستخدمت السيارات على نطاق واسع في الصحراء الغربية كانت سيارات ادارة الحدود وسيارات النقل الخاصة بالتجار تسافر إلى البحرية من سمالوط ولكنها فضلت طريقا قديما آخر وهو الذى كان يربط بين هذه الواحة وبين القاهرة وكان حزام كثبان الرمال العظيم الذى يعترض الطريق بعد حوالى ٨٠كم من النيل يمثل عقبة حقيقية ولذلك لم يكن في مقدور أي سيارة أن تصل إلى الواحة دون حادثة إلا إذا كانت سيارة قوية ، خفيفة وصغيرة ويقودها رجل متمرس يعرف الطريق والمعابر الصحيحة خلال كثبان الرمال .



(شكل ٤)
خريطة الواحات



(شكل ٥) خريطة لمنخفض الواحه البحرية

وكان طريق البهنسا – البحرية مستخدما بواسطة الجمال التى كانت تحمل البريد إلى البحريةحتى عام ١٩٣٧ ، وفى عام ١٩٣٨ طرأ تغير ، فقد تعاقد أحد الاشخاص على نقل البريد بالسيارة من القاهرة ، ورغم أنه كان من المفروض نظريا أن تسافر السيارة للبحرية كل عشرة أيام فقد كانت العادة أن تتأخر يوما أو يومين فى القيام من القاهرة ، وبعد ذلك فإن ان السيارة كانت معرضة للعطب فى الطريق فكانت

تتأخر ريثما يتم اصلاح العطب أو لتنقذها سيارة أخرى ولذلك فلم يكن أحد يعرف على الاطلاق متى يصل البريد [1] . ويبدأ رجل البريد وموظفوا الحكومة يتحسرون على الماضي حينما كان البريد يصل الواحة على ظهر الجمل فقد كان يغادر سمالوط في فجر يوم محدد ولايستغرق سوى أربعة أيام حتى يصل البحرية ، وفي عصر اليوم الثالث كان يقوم ثلاثة أو أربعة موظفون ومعهم رجل البريد بطبيعة الحال حيث ينتظرون قدوم البريد وهكذا يوفرون يوما ، وفي مكتب البريد بالباويطي كانوا يجلسون جميعا حول مائدة يفرزون الخطابات والطرود ، وكان الجمل يصل دائما في ميعاده بحيث لايتأخر أكثر من ساعة وحتى هذا كان نادرا جدا . وفي عام ١٩٦٨ علمت أن مشكلة وصول البريد إلى البحرية لاتزال على حالها بل أن مشكلة وصول البريد إلى الفرافرة قد ساءت أكثر .

الطريق بين أهرامات الجيزة والبحرية :

ان طريق القوافل الذى تستخدمه السيارات منذ عام ١٩٣٠ ما هو الاطريق قديم يبدأ عند قرية كرداسة بالقرب من أهرامات الجيزةويربط بين البحرية والقاهرة وعلى طول الطريق الذى يبلغ ٣٤٠كم لايوجد أى مصدر للمياه ويقطعة الجمل في تسعة أو عشرة أيام ، وعندما بدأت السيارات تسافر على هذا الطريق فانها استخدمت دروب الجمال تقريبا ولكن بمرور الوقت أتلفت الدروب فما كان على السيارات إلا أن تدور حول نقط معينة (شكل٦) ، وبالاضافة إلى ذلك فان كثبان الرمال التى تمتد فوق حافة المنخفض تحتاج إلى دورة أخرى قبل أن تصل السيارات إلى الطريق القديم الذى ينزل إلى الواحة عند نقب الغرابى وبسبب هذه الانعطافات في الطريق وبسبب الالتفاف حول حزام الكثبان الرملية فان طول الطريق قد زاد من ٣٤٠كم في عام ١٩٣٨ إلى ٣٧٠كم عام ١٩٦٨ .

وحينما قررت الحكومة المصرية منذ بضع سنين مضت أن تستغل الكميات الهائلةلخام الحديد في هذه الواحةفانه أصبح من الضرورى إنشاء طريق سكه حديد لنقل الخام إلى حلوان وفي عام ١٩٦٧ بدئ في تعبيد طريق يسير موازيا لطريق السكة الحديد المزمع انشاؤه ، وقد توقف العمل في هذا الطريق لعدة أشهر ابتداء من يونيو

---

(١) كان وصول البريد يعتبر دائما حدثا مثيرا لاسيما بين موظفي الحكومة ، وكانت الخطابات والطرود ترسل بالجمل إلى الفرافرة مع بداية كل شهر وتستغرق الرحلة بين البحرية والفرافرة أربعة أيام .

سنة١٩٦٧ ولكنه استؤنف عام ١٩٦٨ . وقد أنتهى العمل في الطريق حاليا ولكن فقط حتى موقع المناجم ، أى حوالى ٣٥كم من الباويطى . بينما بدأت الاستعدادات لانشاء الخط الحديدى في عام ١٩٦٨ .

وسيغير الخط الحديدى الحياة في البحرية تغييرا جذريا كما أنه سيساعد الواحة اقتصاديا حيث ستصير بقعة مفضلة يقصدها المسافرون بعد رحلة ممتعة في الصحراء تنتهى بواحة وارفة الظل حافلة بالمناظر البهيجةوتحتوى على عدد من الينابيع الطبيعية الخلابة وكثير من الآثار القديمة . وأهم من هذا أن أهلها دمثوا الاخلاق مهذبون .

الطريق بين الواحة البحرية والفيوم :

كان هذا الطريق هو ثانى الطرق في الاهمية بعد طريق البهنسا ، ويبلغ طوله ٢٤٠كم وتقطعه القافلة في خمسة أو سته أيام حتى تصل الواحة حيث أنه كان محتما أن تتوقف لمدة يوم أو نصف يوم للرعى وسقيا الأبل في وادى الريان ، وهذا هو الطريقالذى يفضله بدو الفيوم الذين يفدون للتجارة أو لرعى ابلهم ، وتعتبر كثبان أبو مخرى (وليس ابو محرق كما يظهر في بعض الخرائط) عقبة جديدة لأنها من أصعب الكثبان التى تجتازها الابل ، وبعد نهاية عملى في احدى رحلاتى إلى البحرية في يونيوسنة ١٩٤٢ قررت السفر إلى الفيوم بالجمل وكان هدفى هو أن أعرف الطريق وأن أزور وادى الريان ودير القديس صموئيل القديم المعروف باسم وادى القلمون في وادى المويلح جنوبى الفيوم .

الطريق بين البحرية وساحل البحر المتوسط :

بالاضافة إلى الطرق الثلاثة التى تربط البحرية بوادى النيل ، فانه يوجد طريق قوافل قديم بين البحرية والحمام (بمريوط) يبلغ طوله حوالى ٣٨٠كم وليست به مصادر للمياه كما أن السفر عبره يهد عملية شاقة ومرهقة ، ولذلك فانه يستخدم فقط بواسطة قبيلة أولاد على حين تضطرهم ظروف الرعى قرب الساحل لأخذ ابلهم الى مكان آخر ، وبعض أجزاء الطريق قاسية وتوجد به كثبان رملية يصعب اجتيازها.

الطريق بين البحرية والفرافرة :

استخدم طريق القوافل القديم هذا منذ عصور موغلة في القدم ، ويبلغ طوله ١٨٥كم ولكنه مريح ويقطعه الجمل أو الحمار في مدة أربعة أيام وبصفة عامة يمكن

للسيارات أن تستخدمه ويسلك بعض الواحيين هذا الطريق مستخدمين الحمير حيث تتوفر المياه في الحيز (سفر يوم واحد من البحرية) كما يوجد ماء في عين الوادي ، وفي الحيز توجد أماكن قديمة وبقايا مباني أثرية ، وفي غضون السنوات العشر الأخيرة تراكمت الرمال في الممر الآتي من منخفض البحرية والمعروف باسم " نقب السليم" مما يجعل الرحلة غير متيسرة للسيارات في الوقت الحاضر .

الطريق بين البحرية وواحة سيوة :

هذا هو أطول وأصعب طريق (يبلغ طوله ٤٠٠كم) ولذلك فنادرا ما يطرقه أحد اللهم الا دوريات الجيش ، والطريق يمر بعدد من الواحات الصغيرة المهجورة : سترة ، نواميسة والبحرين والأرض القريبة منه أما مستنقعية أو من نوع السبخة وهو نوع أسوأ من الرمال الناعمة ويصبح مصدرا لمتاعب حقيقية إذا ما تعطلت فيه سيارة ، ويعد



(شكل ٦) الباويطي – جمال بدو من الفيوم تأتي بالبضائع وتعود محملة بالبلح من الواحة .

هذه الواحات الصغيرة فان الطريق يمر بواحه العرج (١) المهجورة قبل أن يصل إلى منخفض سيوة ، وكانت كل هذه الواحات مأهولة لبعض الوقت خلال العصر الروماني المبكر ولذلك فاننا نجد في المرتفعات قرب ينابيعه المداخل إلى مقابر صغيرة منحوته في الصخر وغير منقوشة وأهم هذه الواحات هي واحة العرج حيث لاتزال بعض المقابر تحتفظ ببقايا من زخارفها وصورها القديمة ، وحتى الآن لم يتم فحص أي من هذه الواحات المهجورة فحصا جيدا .

وعلى أي حال فقد سلك بعض الرحالة هذا الطريق في القرن الماضي فيذكر رولفس Rohlfs في كتابه (Drei Momate...) صفحات ١٩٦ - ١٩٨ ،أنه حينما كان مسافرا بين واحتي العرج والبحرين المهجورتين قابل ثلاثة عبيد هاربين من سادتهم في البحرية وكانوا يقصدون سيوه فرارا من الرق بعد أن كان قد حزم ولم يكن معهم سوى قربة ماء خاوية ، فأعطاهم روافس ماء ، وفي الصباح المبكر لليوم التالي وحيث كان قد نصب مخيمه قريبا من سترة ، بدأ كلبه ينبح ، فاستل كل رجل في المخيم سلاحه معتقدين أن ثمة خطرا يتهددهم ولكن كان ما وراه بعيدا كان عبارة عن شخصين يتقدمان نحو المخيم ثم تبين أن أحدهما شيخ طاعن في السن بلغ من العمر حوالى أثنين وسبعين عاما أما لآخر فكان صبياً لايزيد سنه عن عشر سنوات ، وحينما لم يجد القادمان ما يخيفهما جلسا قرب نار المخيم لتدفئة أعضائهم المتجمدة من البرد اذ أن الشهر كان فبراير ، وراحا يقصان حكايتهما .

كانا حاجين عائدين من مكة إلى وطنهما بالقرب من بنغازى في ليبيا ، وقد أستغرقا تسعة أشهر سيرا من مكة حتى سترة وكانا يأملان في أستئناف رحلتهما ، ولم يكن معهما طعام أو ماء بل إناء ماء فارغ مصنوع من الفخار معلق بحبل على كتف

---

(١)لمذيد من القراءة عن آثار واحة العرج أنظر مقال المؤلف :

"The Tombs of Al. Areg Oasis in the Libyan Desert " ASAE xxxxx, pp.609 - 19

والذى أعيد طبعه في كتابه

Recent Explorations inthe Oases of the

western Desert (Cairo, 1942), pp. 127 : 37

وأنظر كذلك ص١٣٥ -١٤٢ في المجلد الخاص بواحة سيوة من الكتاب الحالي .

الصبي وحقيبة طعام من الجلد فارغة يحملها العجوز ، وقد أخبرني رولفس أن ثلاثة رجال سود البشرة هاجموهما وسلبوا ما كان معهما (ومن المؤكد أنهم نفس الأرقاء الذين قابلهم وعاونهم رولفس في اليوم السابق) ، لقد نهب الأرقاء كل الغذاء والماء الذي كان لدى العجوز والصبي واغتصبوا من العجوز أحدى عشرة قطعة من الذهب ثم تركوا هذين التعسين ، أحدهما نصف ميت والآخر طفل ضعيف قليل الحيلة ، ليقابلا ما يخبئه لهما القدر . ويالها من بداية طيبة لحياة حرة ينعم بها الأرقاء ! ويضيف رولفس أن العجوز أخبره أن رحلته من بنغازي لمكة أستغرقت عاما كاملا وأنه يأمل أن يصل موطنه في ظرف ثلاثة أشهر أو أكثر .

وتبرهن هذه القصة على أن طريق القوافل الطويل هذا كان لايزال مطروقا حتى عام ١٨٧٤ ، وكان يمكن العثور على الماء بعد كل مسيرة تستغرق أربعة أيام ، وانه لمن المدهش حقا ان شخصاً مثل هذا العجوز وذاك الطفل استطاعا أن يعيشا على مالايزيد عن لتر ونصف من الماء لمدة أربعة أيام أو أكثر ، وهذا في حد ذاته يعطينا مثلاً على الجلد في مواجهة مشاق السفر في الصحراء .

ويضيف رولفس أنه أعطى الرجل والصبي كل ما يحتاجانه وطعاما كافيا لهما حتى يصلا إلى سيوة وقبل أن يغادر المعسكر أخذ يصليان من أجل رولفس ورفقائه ثم استأذنا بهدوء وأستأنفا رحلتهما عبر رمال الصحراء الغربية .

هذه هي أهم الطرق الرئيسية التي تربط البحرية بالأماكن الأخرى وكلها سلكتها القوافل لازمان طويلة لاسيما حينما كانت الجمال مستخدمة كوسيلة للانتقال في الصحراء الغربية ، وقد أضاف استخدام السيارات طرقا جديدة وأفضلها تلك التي يختارها البدو وهي التي كانت الجمال تسلكها منذ قرون عديدة مضت .

والآن إنهي هذا الفصل لأقدم للقارئ الواحة نفسها .

الفصل الثانى
الواحة البحرية وسكانها

ملكية الأرض :

تعتمد الزراعة فى الواحة البحرية على ملكية الأرض والماء أو على ملكية أى منهما فلا يستبعد أن نجد فلاحا يمتلك الأرض ولكن لاتتوفر لديه مصادر المياه وفى هذه الحالة عليه أن يشترى حقوق الماء من فلاح آخر لديه من المياه ما يفيض عن حاجة حقوله أو يمتلك مصادر للمياه دون أن تكون لديه أرض .

وتجبى الضرائب عن الأرض المزروعة وأشجار النخيل المثمرة وأشجار الزيتون ، ولكن غالبا ما يحدث فى البحرية ، كما يحدث فى غيرها من الواحات ، أن تجف مياه العيون أو ينخفض مستواها وما يترتب عليه من كوارث مشئومة اذ لاتلبث أشجار النخيل أن تموت تدريجيا وتنعدم الزراعة فى الحقول ، ولذلك فان أهل الواحة دائبوا البحث من مصادر جديدة للمياه وغالبا ما يبحثون فى الأماكن التى طمرت فيها ينابيع قديمة فاذا ما حالفهم النجاح فسرعان ما تنبع الحقول وتزدهر الحدائق وفى مثل هذه الظروف فان نوعا من الاحصاء الزراعى يتم كل عشر سنوات .

واذا ما قارنا أرقام الاحصاءات التى أجريت فى الاعوام ١٩١٧ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٧ ، ١٩٥٦ ، نبرز أمامنا صوره محزنة للمشاكل التى واجهت هذه الواحة خلال نصف القرن الاخير ، ففى عام ١٩٣٨ بدأت تظهر آثار انخفاض كميات المياه فى بعض العيون وآثار جفافها فى عيون أخرى بحيث ماتت أشجار النخيل بالقرب من " العيون " وفى حطية " وليد " وكلتاهما فى القصر ، وفى عام ١٩٤٧ ساءت الأوضاع

بصوورة خطيرة وما أن جاء عام ١٩٥٦ حتى هوت الأمور بالواحة إلى أسوأ الأحوال، وتبين المقارنة بين احصائي ١٩٤٧و ١٩٥٦ مدى فداحة الخطب ففي عام ١٩٤٧ بلغ عدد العيون والآبار بالواحة ٢٠٧ (١): ٥٨ في القصر ، ٣٢ في الباويطي ، ٧١ في منديشة (بما في ذلك عيون وآبار العجوز والحارة) و٤٤ في الزبو . وخلال السنوات التسع التالية جفت ٣٢ عينا وبئرا وذلك على النحو التالي : ١٠ في منديشة كانت تروي ٢٨٣ فدانا ، أما الآن فلا تكفي مياهها الا لري أحد عشر فدانا ، وجفت الآبار الخمسة الرئيسية في العجوز والتي كانت تروي ٣٩ فدانا هي معظم مساحتها المزروعة، وثلاثة آبار في الكتارة كانت تروي ٣٥ فدانا ، وثلاثة أخرى في الزبو وأحد عشر بئرا في القصر والباويطي مما نتج عنه نقصان فظيع في الأرض المزروعة اذا انخفضت مساحتها من ١٣١٠ فدانا إلى ٢٠ فدانا فقط . وهكذا خسر الاهالي ١٦٣٧ فدانا من المساحة الاجمالية التي كانت تبلغ ٢٣٩٧ فدانا كما ماتت ٦٣٩٠٠ نخلة من مجموع ١١٢٨٠٠ (٢) نخلة كانت مثمرةفي عام ١٩٤٧ .

وقد تسبب كل هذا في ازدياد حالة الفقر المنتشرة بين سكان الواحة مما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يهجروا منازلهم ويتجهون صوب القاهرة ، ففي عام ١٩٤٧ بلغ عدد سكان الواحه ٧١٨٠ نسمة ولكن في عام ١٩٥٧ هبط إلى ٥٩٣٧ فقط ومن بين الـ ١٢٤٣ الذين نزحو إلى القاهرة هربا من الاحوال الشاقة بالواحة لم يجد الاقليل جدا منهم أعمالا مرضية أما أغلبيتهم فقد اضطروا إلى القيام بأعمال موقته كعمال غير مهرة ، وساعد الحظ بعض اولئك الذين كان لديهم ابناء بأن وجدوووا لهم أعمالا كخدم في بعض المنازل وقد عانى النازحون الجدد في البيوت الحقيرة غير الصحية في بركة الفيل بحي السيدة زينب ، ولكن حيث أنهم كانوا قد فقدوا الأمل نهائيا في العثور على أي نوع من أنواع العمل في الواحه فلم يكن أمامهم الا يقتنعوا بما قسم لهم في القاهرة .

فجـر جديـد :

كانت السنوات العشر فيما بين ١٩٤٩ ، ١٩٥٩ أسوأ سنوات عرفها أهل الواحة البحرية سواء منهم من نزح إلى القاهرة أو من بقي في الواحه ، ولكن كما يقال دائما

---

(١) عدد الأبار الآن ٥٦٠: المراجع

(٢) عدد النخيل الآن ٥٠٠,٠٠٠(المراجع).

" ان الفجر يعقب أحلك ساعات الليل " كان الحال مع البحرية (١) ، ففي عام ١٩٥٩ أعلن عن انشاء مؤسسة تعمير الصحراء كما ثار حديث كثير عن مشروع الوادى الجديد وقد آمن اولئك الذين لايفهمون مشاكل الصحراء ، بما فيهم معظم سكانها ، بالمبالغات التى أطلقتها بعض الجرائد والتى رسمت صورة وردية للمستقبل : فمن مشاريع مخططة لحفر آبار جديدة الى استصلاح آلاف الأفدنة التى ستضاف إلى المساحات المزروعة ، وكلها لتوزع مجانا على سكان الواحات .

وحينما بدأت بعض المشروعات في البحرية على نطاق ضيق فانها كانت في حاجة إلى الأيدى العاملة فعادت الأغلبية العظمى من أولئك الذين كانوا قد نزحوا حديثا آلى القاهرة بل ومعهم آخرون من الذين كانوا قد نزحوا لسنوات سابقة (٢) ، ورغم ان الاحلام العريضة

حول المشاريع الجديدة لم تتحقق بعد فان أحوال الناس العامه قد تحسنت كثيرا وأصبح العمل متوفرا لكل من يبحث عنه ، ،الى جانب هذه المشروعات فقد جاء العون من مصدر آخر ، اذ أن استغلال الحكومة لخام الحديد المتوفرة في هذه الواحه قد أضاف الى أسباب ازدهارها واكتسب ميزه أخرى باقامة الطريق المعبد وخط السكه الحديد اللذين بربطان مناجم خام الحديد بمصانع الصلب فى حلوان جنوب القاهرة ، ان البحرية تفتح صفحه جديده فى تاريخها .

حقـول وحدائـق :

تقدر مساحة منخفض البحرية بحوالى ٢٠٠١ كيلو متر مربع أى حوالى ٥٠٠٠٠٠ فدان ولكن لم تزد المساحة المزروعه في العصر الحديث عن ٢٥٠٠ فدانا رغم أنها كانت أكبر من ذلك في العصور القديمة وكان يتوفر بالواحة عدد كبير من العيون والأبار ولكن جف عدد كبير منها حتى قبل ظهور الاسلام بينما جف البعض آخر في

---

(١) طبقا لدراسات خبيرين من الخبراء الزراعيين في شئون الصحراء ، فان متوسط الدخل السنوى للفرد فى الواحة البحرية عام ١٩٤٧ كان ١٢٫٣٠٠ جم ، وفى عام ١٩٥٧ قدر نفس متوسط الدخل بما لايذيد عن ٢٠٠جم ، أنظر عبد اللطيف واكد وحسن سامى ، واحات مصر (القاهرة ١٩٥٧) ص٣٥٦ – ٧ .

(٢) بلغ عدد سكان الواحة حسب احصاء عام ١٩٦٠ ، ٧٣٣٠ نسمة (٣٩٦٦ من الذكور ، ٣٧٦٤ من الاناث) أى بزيادة ١٧٩٣ نسمه من احصاء ١٩٥٧ و٥٠٠ نسمه عن احصاء ١٩٤٧ .

غضون العصور الوسطى وقد ذكر الجغرافيون العرب أن الواحه حافلة بالآثار وبأشجار النخيل المهملة الا أن عدد سكانها كان قليلا ، فالحيز على سبيل المثال ، التى نجد فيها آثارا عديدة مهمة بما فيها بضعه قصور وحصن وكنيسه ذات طابقين كادت أن تكون مهجورة عام ١٨٢٠ وذلك طبقا لما يرويه الرحاله الاربيون الذين زارو آثارها فى ذلك الوقت ، أما فى الوقت الحاضر فلا يقل عدد سكانها عن ٣٠٠ نسمه ولكن بناء على ما تبقى من مساحات الحقول الواسعه وعدد الآبار وحجم البقايا الأثرية فمن المحتمل أن عدد سكانها فى القرن الثانى الميلادى كان يبلغ بضعه آلاف ، أما الاسباب الكامنه خلف هذا الانحلال العام فسنناقشها فى الفصول الخاصة بالتاريخ والآثار .

وتتميز البحريه عن غيرها من الواحات ، فيما عدا الفرافرة بجوها الصحى ، فهى ترتفع بحوالى ١٢٨ مترا عن مستوى سطح البحر أما مناخها فهو يماثل مناخ القاهرةتقريبا (١) والاعتقاد الشائع أن المطر لايسقط فى الواحات أعتقاد خاطئ اذ انه بالرغم من ندرة سقوط الامطار التى لاتزيد عن بضعة رشات خلال الشتاء ، لايمكننا القول أن البحرية عديمه المطر لأن رقمها القياسي وصل الى ١٤مم فى يوم واحد وقد حدث هذا فى ٢٦ نوفمبر سنه ١٩٣٦ و ٢٩ فبراير سنه ١٩٤٠ ، أما الرطوبة فتبلغ أقصاها فى شهر يناير (٦٠٪) وأدناها فى شهر يونيو (٣٠٪) (٢) .

وبصفة عامة فان البحرية تتمتع بمناخ صافى صحى وبمياه جيدة الا أن الملاريا التى ابتليت بها الواحه حتى خمس عشرة سنة مضت والامراض التناسلية وسوء التغذية وانعدام الوسائل الصحية والاملاق وشرب الشاى الردئ كل هذا مسئول عن الضعف الصحى العام الذى يعانى منه أغلب أهل الواحة . وفى الوقت الحاضر تحسنت الأحوال نسبيا وأتعشم أن تكون الأجيال القادمة أصح وأشد من الجيل الحالى .

---

(١) ان أكثر شهور السنه حراره هى يونيو ويوليو واغسطس حيث تبلغ الدرجه للحراره القصوى ٣ر٣٦° والصغرى ٩ر١٨° ، أما أبرد الشهور فهو شهر يناير حيث تبلغ الدرجة القصوى للحرارة ٧ر١٩° والصغرى ٦ر٤° ، وبطبيعه الحال كثيرا ماتحدث موجات حر وموجات برد وأعلى درجه حراره سجلت للواحه هى ٦ر٤٨° وكانت ذلك فى ١٣ يونيو سنه ١٩٣٣ وفى ١٢ يناير سنه ١٩٤٢ أنخفضت درجه الحراره إلى ٥ر٣ تحت الصفر .

(٢) واكد ومرعى ، واحات مصر ، ص٣١٣ .

ومن المحاصيل التي تزرع في الواحة نجد الأرز والذرة والقمح ولكن نظرا لأن كميات المحصولين الاخرين غير كافية لسد حاجة السكان فانهم يعتمدون على استيرادها من الوادي ، أما المحصول الرئيسي للحدائق فهو البلح وتستمتع البحرية بسمعة عالية وتجد لمنتجاتها سوقا رائجة في وادي النيل وبين بدو الساحل الشمالي ، والزيتون هو المحصول الرئيسي الثاني وله هو الآخر سوق رائجة ويمثل مصدراه هاما من مصادر الدخل ، وينمو بالواحة كذلك المشمش والعنب والبرتقال وغيره من الموالح خاصة الليمون السكرى الممتاز كما ينمو الموز والمانجو (استزرعت حديثا) وقصب السكر والبرقرق ، والواقع أن كل أنواع الثمار التي تنمو في وادي النيل يمكن زراعتها في هذه الواحة الا أن أهلها يعتبرون هذه المحاصيل ترفا لا ضرورة له لأن دخلها محدود ، ولذلك فان اهتمامهم ينصب اساسا على زراعة النخيل والزيتون فقط ، غير أن الاستعمال الواسع للطريق المعبد الجديد سيغير من موقف أهل الواحه حين يكتشفون أن واحتهم يمكن أن تصير مصدرا لامدادا القاهرة بالفواكه والخضروات .

وفي حدائق البحرية تزرع أنواع عديدة من الخضروات مثل الطماطم والباذنجان والخيار والسبانخ والبقول والبامية والبصل والفلفل والفجل والملوخية وكذلك الشمام والبطيخ .

أما منازل عامة الناس في البحرية فان واحدها يتكون من فناء واسع يحيط به سياج أو حائط وفي ركن من أركان الفناء أو بالقرب من المدخل نجد غرفة أو غرفتين مبنيتين من الطين أو الطوب اللبن ، وفي الفناء كذلك نجد البئر ويه شادوف مثبت عند فوهته وذلك للحصول على الماء اذا كان منسوبه في البئر منخفضا لسد الحاجات اليومية للأسرة ولرى الخضروات المنزلية التي تزرعها رية البيت ، وبالقرب من البئر نجد شجرة مشمش أو شجرة توت تستظل بها الأسرة من حرارة الشمس وفي هذا الفناء المفتوح كذلك يجفف البلح بعد احضاره من الحدائق وقبل وضعه في علب أو تغليفه في سلال من سعف النخيل لبيعه أما للبدو أو لأهل وادي النيل .

العيـون في البحـريـة :

من بين واحات الصحراء الغربية كلها لايشعر الزائر بفتنة الواحة كما يشعر بها في البحرية حقا ان سيوة ساحرة وفي غاية الأهمية ولكنها مختلفة من جوانب كثيرة ، ففي كل ركن من أركانها يشعر الزائر أن حضارتها ليست خالصة ولاعربية خالصة في حين أن البحرية مصرية تماما ، ان بها عيونا طبيعية عديدة ولعل أجمل عين في الصحراوات المصرية هي عين البشمو في الباويطي انها رائعة حيث تنساب مياهها من أسفل صدع طبيعي في الصخر ودرجة حرارة مائها ٣٠ درجة مئوية وبالقرب

منها ومن صدع آخر اسفل الصخرة تنساب مياه عين أخرى هى عين درديز ومياه هذه الاخيرة أقل بكثير من مياه عين البشمو الا أنها أدفأ قليلا اذ تبلغ درجة حرارتها ٣٣ْ ومن الأمور المألوفة ان تجد اطفال يلعبون فى مياه هاتين العينين ونسوة يغسلن الملابس فى مياه عين درديز الدافئة ، وتتحد مياه العينين لتنساب لمسافة ١٥ مترا ثم تسقط في جندل صغير لتروى حقولا وحدائق كثيرة وفى اللحظة التى تتحد فيها مياه العينين يختفى اسم عين الدرديز ونسمع فقط عن عين البشمو .



(شكل ٧) عين البشمو – رسم عام ١٨٣٠
عن cailliaud, Atlas II, pl,xxxvIII,I

ويوجد في هذه الواحة وغيرها من الواحات نوع آخر ومختلف تماما من العيون فهي ليست عين طبيعية تنساب مياهها من صدع في الصخر وليست بئر محفورة الى أعماق بعيدة في الأرض وانما هي تتراوح بين خمس عشرة الى أربعين مترا نجد آبارا أسطوانية ، ومن الملاحظ أن الممرات لم تقطع أفقيا وانما نحتت منحرفة حتى تتقابل عند نقطة عميقة في الصخر حيث تتجمع كميات كبيرة من المياه ثم تنساب باستمرار كما تنساب مياه العين الطبيعية . ويعاني هذا النظام من عقبة كئود فدائما ما يوجد خطرا انهيار الصخور في أي مكان من الممر مما يتسبب في اغلاقه ، وهذا هو السبب وراء قطع الآبار الرأسية (التي تسمى بالعربية منافس) حتى يمكن العثور على المكان المغلق بشيئ من السهولة ، وكل بئر يغطى بكتلة من الحجر وعلى جانبيه حفرت درجات ليستخدمها العمال في صعودهم وهبوطهم الى الممرات لتنظيفها .

ونظام الري هذا معروف في الخارجة والفرافرة والبحرية وبالقرب من الشاطئ وأفضل مثال له يوجد بالواحة الخارجة في عين أم الدبادب حيث يقدر الامتداد الكلي للممرات بما لايقل عن خمسين كيلو مترا ، ولما كانت هذه المنطقة تبعد كثيرا عن مدينة الخارجة والطريق اليها تعترضه كثبان رملية صعبة فان عددا قليلا فقط من الزائرين هو الذي تمكن من رؤية ممراتها .

ولكن هنا في البحرية وبالقرب من مكاتب الحكومة بقرية الباويطي يمكننا أن نرى فتحات آبار عين الحباجه وهي مثال جيد لهذا النوع من النظام المائي .

وتذكر بعض الكتب التي تحدثت عن الواحات أن الرومان اخترعو هذا النظام ثم أدخلوه في الصحراوات المصرية ولكن كتابا آخرين أكثر معرفة يقولون أن هذا النظام معروف في مناطق عديدة بشمال أفريقيا وآسيا ويقترحون له أصلا فارسيا . ويمكننا أن أضيف أنه خلال أبحاثي الاثرية في البحرية وجدت دليلا على أنه في عصر الأسرة السادسة والعشرين وبينما كان يجرى حفر احدي المقابر في الصخر اعترض الحفارين واحد من هذه الآبار فما كان من المهندس الا أن غير تصميم المقبرة ، وهذا يبرهن على أن هذا النوع من مصادر المياه كان معمولا به في الواحة قبل العصر الفارسي ، ولكن لايتوفر لدينا دليل عما اذا كان هذا النظام قد عمل به في عصر الدولة الحديثة أي خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد نتيجة لاختراع المهندسين المصريين أم أن حضارة أقدم قد ابتكرته .

تــلال وكثبــان :

ان واقع البحرية والواحات المصرية الأخرى يختلف عن الصورة التي يرسمها لها الشعراء بكلمات عذبة تتحدث عن حدائق النخيل وأشجار الفاكهة ذات الظل الوارف

تحيط بها رمال ناعمة نظيفة تمتد إلى الأفق فالصورة الحقيقية تختلف نوعا ما ولكنها أكثر جمالا فحدائق النخيل وأشجار الفاكهة وارفة الظل وجداول المياه الصافية العذبة كلها هناك ولكن بدلا من بساط الرمال الصفراء الممتدة حتى الأفق يجد الزائر تلالا وكثبانا أينما اتجه بناظريه ، وهنا في هذه الواحة يجد الزائر نفسه ينظر الى تلال داكنة ، أكثر قتامه وعددا من أي واحة أخرى من واحات مصر وقبل أن نذكر بعضا من هذه التلال وقبل أن نوضح لماذا تبدوا بعضها تقريبا سوداء لابد أن نتعرض بايجاز لجيولوجيا المنخفض .

إن التاريخ الجيولوجي للبحرية ممتع حقا ويمكن قراءة تفاصيله في كتاب بول Ball وبيدنلBeadnel وغيره من الكتب ، فالطبقات السفلى ، أقدم الترسيبات ، تتكون من رسوبيات الحجر الرملي النوبي من العصر الطباشيري Gretaceous periop أما الطبقات العليا فهي من الحجر الجيري ونتيجة للالتواءت الحادة تصدعت طبقات الحجر الجيري وتبع ذلك تعريتها بالعوامل الطبيعية مكونة تجويفا طفيفا يشبه في شكله التجويف الذي عليه الواحة الآن .

وطبقا لبول وبيدنل (١) " فان النحت الأولي للتجويف تبعه تكوين بحيرة هائلة ترسبت فيها الحجر الرملي والكوارتز وخام الحديد ، ولا ريب أن هذه البحيرة كانت تحيط جزرا تمثلها اليوم تلك التلال التي لاتزال تحتفظ بقممها المكونة من الحجر الجيري " ويسمى الأهالي هذه التلال جبالا وبالذات سبعة منها : جبل الغرابي ، الدست (ويسمى كذلك القصعة) ، المغرفة ، جبل منديشة ، جبل معيصرة ، جبل حماد وجبل الهفوف وهذه التلال التي تعوق النظر إلى الأفق تعطي البحرية مظهرا يختلف تماما عن كل الواحات الأخرى وذلك لان بعضها يكاد يكون أسود اللون بسبب الكوارتز الحديدي وصخور الدولوريت التي تكسوها ، كما أن الحجر الرملي الحديدي والصلصال الأصفر يجعل لون بعضها الآخر يميل إلى الحمرة في حين أن بعضا ثالثا يظهر أبيض اللون لأن تلاله مكسوه بالحجر الجيري .

واكبر هذه التلال هو جبل الهفوف وهو عبارة عن مرتفع ضيق من الحجر الجيري ويبلغ طوله حوالي ١٥كم وارتفاعه ٧٢ مترا وجزؤه الشمالي يبدو قاتم اللون وذلك لانه يتكون من الدولوريت والبازلت أما جبل منديشة فانه يفصل البقعتين الزراعيتين الرئيسيتين بالواحة عن بعضها البعض : بقعة القصر – الباويطي في الغرب وبقعة منديشة – الزبو في الشرق . أما الطريق بين الباويطي ومنديشة فيمر عبر طرفه الجنوبي (٢) .

---

(١) John Ball and Hugh J,L. Beadnel, Bahria Oasis, Its Tepography and Geology (cairo 1903), P.72 .

(٢) نفس المرجع ص ٤٠ .

ولدى الوصول من طريق القاهرة فان السيارات تهبط الجرف عند الممر المعروف بنقب الغرابى فى الطرف الشمالى للمنخفض ، وغير بعيد من نقب الغرابى يرتفع أمامنا التل العروف باسم جبل الغرابى الذى يتركب من مواد حديدية مثل الليمونيت (أكسيد الحديد المائى) وخام الحديد الحمصى والمغرة الحمراء والصفراء الخ وكلها متراكمة على سلسلة من الطين الصفحى والصلصال والحجر الرملى التى تعود إلى العصر السنومانى cenomanian period [١] وطبقا لبول وبيدنا فانه توجد أحزمة رقيقة من الليمونيت الخ فى الصلصال والحجر الرملى ولكن يبدو أن الجزء الأكبر من المعدن يكون ترسيبا مميزا يعلو وأحيانا يحل محل التكوينات السالفة ، أما خام الحديد فانه يوجد فى حالات متباينة من النقاء وقد قام لوكاس A. Lucas رئيس قسم التحليل الكميائى بمصلحة الآثار بتحليل عيناته فى نهاية القرن الماضى وكانت نتائجه كما يلى [٢] :

خام الحديد الحمصى ..أوكسيد حديدى ٥٨٫٦٨٪ = ٤١٫٠٧ ٪ حديد

ليمونيت ..اوكسيد حديدى ٨١٫٠٦٪ = ٥٨٫٨٤ ٪حديد

ورغم أن وجود خام الحديد بكميات كبيرة كان معروفا منذ زيارة كايو الواحة عام ١٨١٩ فانه لم يبذل أى جهد حقيقى لاستثمار هذه الثروة الطائلة حتى عام ١٩٦٢ وبناء على الابحاث التى تمت حينذاك تقرر أن نقل خام الحديد إلى مصانع حلوان بالقرب من القاهرة يتطلب بناء خط سكة حديد وطريق معبد ولايمكن لاحد سوى أولئك الذين زاروا الواحة أن يدرك مدى الجهود المضنية التى يتطلبها تنفيذ هذا المشروع وذلك بسبب كثبان الرمال وطبيعة تكوين سطح الصحراء الغربية ذاتها .

وكما سبق أن أسلفنا فان الطريق المعبد قد وصل حتى موقع المناجم أما الخط الحديدى فلم ينته العمل فيه بعد ، وفى نفس الوقت فان استخراج الخامات يسير بخطى وئيده ولكن ما أن يتم انشاء الخط الحديدى فمن المتوقع أن ترسل مئات من الأطنان إلى القاهرة يوميا . وتقدر كميات الخام بحوالى مائتى مليون طن ويمكن أن تمد مصر بحاجتها من خام الحديد لمدة لاتقل عن ثلاثين عاما .

وبعد أن نغادر منطقة جبل الغرابى فى طريقنا إلى الباويطى فاننا نمر على تلين شبه مخروطيين من الحجر الجيرى هما الدست والمغرفة اللذان يبعدان عن بعضهما البعض بمسافة ٥٠ مترا فقط . ويبلغ ارتفاع الأول حوالى ٥٠ متر وقاعدته دائرية ويبلغ محيطها حوالى ٨٠٠ مترا أما ذروته الدائرية المسطحة فيقل عن ٣٠ مترا .

---

(١) نفس المرجع ص ٦٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٣ .

والتل الثاني ، المغرفة ، أصغر من الأول فمحيط قاعدته حوالي ٦٠٠ مترا وقطر ذروته لايزيد عن ١٥ مترا وإن كان ارتفاعه يزيد بحوالي عشرة أمتار عن ارتفاع تل الدست ، ويقع جبل حماد على مسافة خمسة كيلومترات جنوب – غرب القصر وارتفاعه حوالي ١٢٥ مترا .

وقد سبق أن أشرت إلى صخور الدولوريت والبازلت التي تكسو الحافة الشمالية لجبل الهفوف وفضلا عن ذلك يوجد ثمة تلان آخران تكسو قمتيهما هذه الصخور البركانية الداكنة :جبل المعيصرة وجبل منديشة ، ويشرف جبل المعيصرة على الجزء الأوسط للمنخفض بما في ذلك القرى الأربعة وأراضيها الزراعية ، ويبلغ ارتفاعه حوالي خمسين مترا وطوله حوالي ثلاثة كيلو مترات ولايزيد أقصى عرض له عن كيلو متر واحدا. وعلى قمته نجد أطلال منزل كان قد أقامهالكابتن وليامز قائد القوات التي انيطت بها مهمة الدفاع عن الواحة ضد الغزو السنوسي قرب نهاية الحرب العالمية الأولى . وخلف جبل المعيصرة نجد جبل منديشة وابعاده : أربعة كيلو مترات طولا ، وثلاثة كيلو مترات عرضا وحوالي ٢٥ مترا ارتفاعا .

وعلى سفوح معظم هذه التلال نجد مقابر منحوته في الصخر ولكنها تعرضت جميعها للنهب ولاتوجد نقوش في أي منها ومع هذا فان أي بحوث في المستقبل ربما أتت بنتائج طيبة .

وبالاضافة إلى هذه التلال السبعة توجد مئات التلال الصغيرة في كل أنحاء المنخفض ولكثير منها أسماء محلية حين يسمي احداها قارة ومعظم المقابر القديمة في البحرية منحوته في جوانب أو في قمم هذه التلال ومن أمثلة ذلك قارة الفرارجي وقارة السوبي وقارة قصر سليم وكلها قرب الباويطي .

ولنترك الآن التلال والآكام لنناقش كثبان الرمال ، اللعنة الكبرى في الصحراء بصفة عامة وفي الواحات بصفة خاصة .

أشرت إلى الكثبان عند الحديث عن الطرق التي تربط البحرية بوادى النيل وفي الفصل الخاص بالسفر في الصحراء . وهنا في هذه المنخفض بدأت ثلاث كثبان رملية تزحف على الأرض الزراعية ومنازل بعض القرى لتطمرها تدريجيا .

وقد طمر غرد منديشة بالفعل بعض منازل القرية التي تحمل هذا الاسم وبعضا من أشجار نخيلها ، ولايزال مستمرا في زحفه حيث غطى العديد من العيون والحدائق في الزبو لاسيما في الجانبين الشمالي والغربي لهذه القرية ، ويبلغ طول هذا الغرد أكثر من كيلو مترين وعرضه حوالي ثلاثمائة مترا . وثمة غرد آخر أكبر حجما ، يبلغ حوالي أربعة كيلو مترا طولا ، يزحف باطراد على الأرض الزراعية لحطية التحتانية وحطية تحكيمه في منطقة القصر – الباويطي ، وهو يتحرك بمعدل حوالي ١٥ مترا في السنة .

وتتعرض بعض العيون والأراضي المستزرعة حديثا في الحيز لخطر ثلاثة كثبان رملية ضيقة زاحفة بدأت تتسبب بالفعل في احداث أضرار جسيمة ، ولايقتصر الخطر هنا على طمر مساحات من الأراضي المزروعة فحسب ولكن الضرر لحق بجزء من الطريق الرئيسي المؤدي الى الحيز بحيث غدا من العسير الانتقال بالسيارة بين العزب الصغيرة المتناثرة في هذه المنطقة .

وايقاف زحف هذه الكثبان الرملية ليس بالأمر اليسير ويأمل ، بل ويحتاج القرويون معونة حكومية على نطاق واسع ومشكلة الكثبان الرملية ليست مشكلة محلية وانما مشكلة عامة ولم تلاق أية محاولة لإيقاف زحفها النجاح المنشود ، فحفر الآبار وزراعة الأشجار أدت أدوارا مفيدة في بعض المشاريع التجريبية ولكن نجاحها كان محدودا وفي معظم الحالات لم تستمر الا لمدد قصيرة لاتتعدى بضع سنوات . ان عملا مثل هذا يتطلب ميزانية كبيرة ورعاية مستمرة وكلا الأمرين فوق طاقة سكان الواحات الفقراء .

أصــل أهــل البـحـريــة :

اذا سأل شخص أهل البحرية عن الأصل الذى ينحدرون منه فانه يتلقى نفس الاجابة التي يتلقاها في كافة الواحات الأخرى : أنهم ينحدرون من قبائل بدوية عربية ، غير أننا لانأخذ هذه الاجابة مأخذ الجد ، حقا ان أصولا بدوية عربية ربما توفرت على نطاق محدود ولكن حتى هذه الأقلية القليلة اختلطت بالآخرين على مدى قرون حتى أنها لا تختلف الآن عنهم ، فسكان الواحة الحاليون في الواقع جماعات ذات حضارة موحدة ، واذا بحثنا أعمق فاننا سنأتي إلى نتيجة خلاصتها أنهم خليط من سكان الواحات القدماء الذين اعتنقوا الدين الاسلامي وقليل من بدو العرب الذين استقر بهم المقام هناك فضلا عن النازحين من الواحة الداخلة . وبالاضافة إلى هذا لاينبغي أن ننسى أنه عبر السنين حتى وقتنا الحاضر يأتي إلى البحرية أناس من مصر الوسطى بحثا عن عمل ويستقرون فيها كتجار والكثيرون منهم يبقون فيها إلى الأبد .

وقد سبق لي أن أشرت إلى العائلات الأربع في القرى الرئيسية الأربعة بالبحرية والتي يعرف أنها آخر العائلات المسيحية التي تحولت إلى الاسلام . وتمتلك عائلة الدوايدة بالباويطي الجزء الأكبر من المياه وحدائق النخيل في عين البشمو وهي أكبر عين في هذه الواحة .بينما تعيش عائلات أبو صادو في القصر ، وبدران في منديشة ، وسوقي في الزبو ، ومن الطريف أنه اذا تشاجر شخص مع آخر من العائلات التي تأخر تحولها إلى الاسلام فانه يسبه بقوله " يا كافر " أو "ياروماني " .



(شكل ٨) منظر في أحد شوارع القصر . نساء وأطفال بملابسهم التقليدية

وكدليل على امتزاج السكان ببعضهم البعض فأنى أعطي نتيجة أبحاثي في الزيو التي يتألف سكانها من حوالي ١٠٤٧ نسمة . فان أحدى العائلات الرئيسية ، تسمى التواسة وتتألف من ٤٤٠نسمة ، وتدعى أنها تنحدر عن عائلة وفدت من القصر بالواحة الداخلة منذ بضعة مئات من السنين ، والعائلة الكبيرة الاخرى تسمي العبابدة وتتكون من حوالي ١٩٠ نسمة وهم يرجعون أصلهم إلى قرية الميأنه في محافظة بني سويف . ومن بين العائلات الصغيرة عائلة سوقى تتكون من حوالي أربعين شخصا ، وثمه عائلة أخرى تدعى أن أسلافها وفدوا من البهنسا بمحافظة المنيا وعائلة ثالثة تقول أن أسلافها جاءوا من سيوه .

ملابس النساء وزينتهن :

أسلفنا وصفا لمنازل البحريه ، وهي لا تختلف كثيرا عن منازل قرى وادي النيل على حافة الأراضي الزاعية ولكن يوجد ثمة خلاف في المظهر الخارجي العام بين سكان البحرية وسكان الوادى خاصة في ملابس النساء وزينتهن ويلبس الرجال تقريبا نفس ملابس الفلاحين في محافظتي الفيوم والمنيا ولكن ميسوري الحال من بينهم

حينما يذهبون للمكاتب الحكومية أو يسافرون إلى القاهرة أو في الأعياد يرتدون ملابس تشبه ملابس أهل اليسار من ليبيا (شكل ٩٨)



(شكل ٩) رشيده – حسناء من قرية العجوز بالبحريه، أقراطها من الفضه أما الحزام فمن الذهب .

وفي وقتنا الحاضر من النادر أن يرى زائر الواحه ، أي شئ في الشارع يختلف كثيرا عما هو عليه في القريه من قرى وادى النيل ، فالرجال والناس يرتدون ثيابا مثل تلك التي يلبسها أهل الفيوم كما أن زينتهم متشابهه إلى حد كبير (شكل ١٠ ، ١١) ، ولكن اذا مكث الزائر في الواحه وقتا أطول وأتيحت له الفرصه لأن يختلط بالاهالى فى منازلهم ، لاسيما فى منديشة والزبو ، فأنه سيلاحظ اختلافات عديده ، فللبحريه مميزاتها الخاصه بها .

حتى خمسه وعشرون عاما خلت ، أي حتى نهايه الحرب العالمية الثانية ، كانت الصبيات وأمهاتهن يلبسن ملابس خاصه حينما كن يخرجن من المنزل (شكل ١٢) فكان الثوب مصنوعا من قماش أسود مطرز بخطوط متعامده جميله التصميم وملونه بخيوط الحرير الحمراء والخضراء والصفراء على الصدر والظهر والأكمام . والصدر هو أغنى أجزاء الثوب تطريزا حيث يضيفون صفوفا من أقراص معدنيه صغيره تشبه الفلوس ، وكان القليل من نسوة العائلات الثرية يصنعن هذه الأقراص من الفضه .

وكان من المناظر التى تستحق المشاهده أن ترى الفتيات يلعبن في الشارع بينما تجلس أمهاتهن داخل منازلهن أو على عتباتها وكلهن يتزين بهذه الزينه . وكان لكل امرأه حزام من الذهب يسمى " قطره "ولم تكن هذه الحليه تصنع على الاطلاق من الفضة أو أى معدن آخر . أما بقيه الزينه فكانت تتألف من أقراط فضية وبعض الخواتم الفضيه أو المعدنيه وأسوره أو اسورتان من الفضه وعقد أو أكثر من الخرز الزجاجى . أما النسوه اللاتى رغبن في أن يبدون أكثر جمالا فكن يلبسن حليا فضيه في شعورهن على جانب الرأس ويضعن العقود [١] على ضفائرهن ، ويتراوح عدد قطع الحلى بين اثنين وسته وكن يلبسن على الرأس شالا أسود مطرزه حوافه بزخارف حمراء أو حمراء وخضراء .

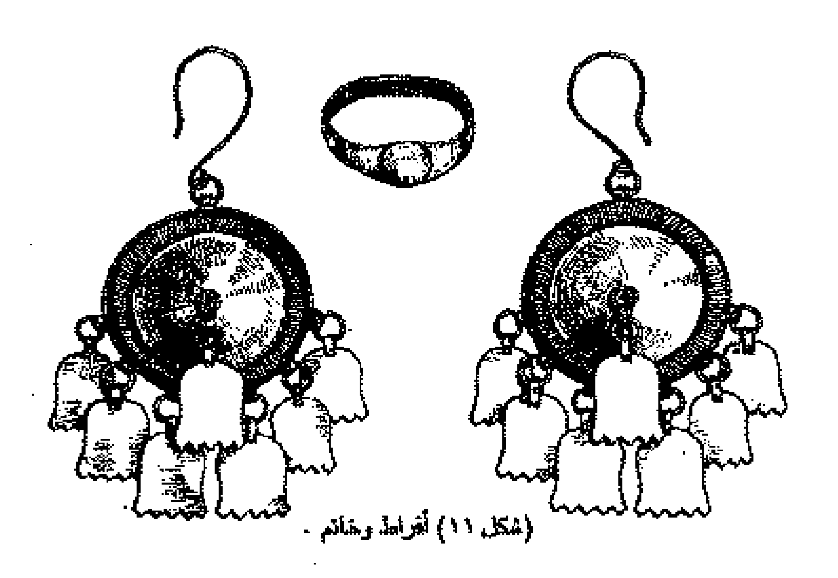


(شكل ١٠)
قرص من الفضة ، حليه مفضله لدى نساء البحريه .

---

(١) العقود عباره عن خيوط حريريه حمراء مجدوله وبها قطع معدنيه وشراريب حريريه في نهاياتها وهن يضفرنها مع غدائرهن ويطرحنها اما على ظهورهن أو على اكتافهن ليغطين الصدر واستخدام العقود شائع بين بدو الصحراء وعنهم أخذ استعمالها أهل البحريه .

ومعظم الحلي الفضيه المستعمله في البحريه يجلبها بدو الفيوم الذين يفدون هنا للتجاره ، وعلى كل فمن الممكن ملاحظه حلي كثيره من حوانيت صائغي الفضه بالقاهره والذين تخصصوا في صناعه الحلي الفضيه للفلاحين وبدو الصحراء .



(شكل ١١) أقراط وخاتم .

وحتى عشرين سنه خلت كان يوجد صائغا فضه في الباويطي ، كلاهما قبطي من سمالوط ، وقد توفي أحدهما في الواحه بينما ترك ثانيهما البحريه منذ عدة سنين ، كانوا يقلدون في صناعتهم الحلي الفضيه التي كانت النسوه تستعملها ، ولم يحدث أن عاش صائغ فضه في أي من القرى الأخرى أما الآن فلايوجد أحد وتشترى النساء حليا مصنوعه اما في الفيوم أو القاهره .

والثياب المزخرفه تستخدم في كل الأحوال ، وليس من النادر أن ترى بعض الفتيات يرتدينها حتى وهن يأتين بالماء من العيون (شكل ١٢) ونساء البحريه .

مغرمات بالوشم ولاسيما على الجبهه والذقن ، وهن مغرمات كذلك بأستعمال الكحل وبتعطير أنفسهن بعطور رخيصه نفاذه تجلب من القاهره .

مقاييس الجمال :

تتمتع نساء البحريه بقسط كبير من الجمال ، وبصفه عامه فهن أجمل ، من نساء سيوه والخارجه ، فلون بشرتهن أكثر بياضا كما أن ملامحهن أكثر جاذبيه وتكاد تكون خاليه من أي تأثيرات زنجيه ، والرجال والنساء متوسطوا القامه ، خفيفوا الوزن ، ومعظم النساء نحيلات وان لم يكن نحيفات .

ومن ناحيه أخرى فان نساء البحريه يتمتعن بنصيب من الحريه أكثر من غيرهن في الواحات الاخرى ، فباستطاعه المرأه ان تشترك في أي وقت مع الرجال أثناء تجمعهم لشرب الشاي . ونساء الزيو مشهورات بجمالهن الفائق كما أنهن معروفات بولعهن الشديد بالحلي وعنايتهم بمظهرهن الخارجي ، وتتوفر عائلات معينه من القصر على قسط من الجمال بل وتنافس أحيانا بعض عائلات الزيو في هذا المجال ، أما الباويطي فانها تأتي في ذيل القائمه .



(شكل ١٢) فتاه تحمل الماء من العين .

في عام ١٩٣٩ اعددت على مقابلة واحد من شيوخ القصر يدعى الحاج محمد عجاب ولقبه بست . كان رجلا ذكيا عصامياً ومن أوائل فلاحي الحيز كما كان يعتز بحديقته الصغيره القريبه من داره ، وفي ذلك الوقت كان يبلغ من العمر خمسا وستين حولا ، وموفور الصحه ملئ بالحيويه ، كنت شديد الاعجاب به وكثيرا ماذهبت لزيارته وللاستمتاع بقصصه وفكاهاته . وذات مره سألته : أي عائله نعتبر نساؤها أجمل النساء ، فاكتسي وجهه بصبغه الجد ثم قال أنه قال لم يعد هناك نساء جميلات في البحريه ، ولا في القصر ولاغيرها ، وحينما اعترضت بقولي أنني رأيت العديد من الفتيات الجميلات في شوارع قريته خاصه عند العيون ، فان وجهه ازداد جديه ، وقال لا ، انهن مثل المحالي ولايتوفرن على اى نصيب من الجمال ، وحينما أصررت على عدم الموافقه ، قال ان الجمال قد مات بوفاة " يمن" ثم راح يتغنى بها .

سألته عمن تكون " يمن " فأجاب : انت تعرف ابنها ، انها والدة عمدة القصر ، وحينما طلبت منه أن يصف جمالها أجاب أنها كانت جميله لدرجه أنها كانت لاتستطيع أن تستوى على قدميها دون مساعده حبل ، ولم أستطع أول الأمر أن أفهم العلاقه بين الحبل والجمال الأنثوى ، ولكن الحاج محمد شرح لى أن " يمن " كانت من البدانه بحيث لم يكن في مقدورها أن تقف دون أن تقبض على حبل مثبت في السقف فوق المكان الذى تعودت أن تجلس فيه ، كان هذا في نظره مقياس الجمال. وحينما كنت في البحريه عام ١٩٦٩ كنت أتحدث مع صديق لى عاش في القاهره لسنوات عديده وكان في شبابه عاشقا معروفا ، ومن قبيل التفكه أخبرته بحكايه الحاج محمد وسألته رأيه في ذوقه ولدهشتي أجابني بأن الحاج محمد كان على حق فلم تنجب البحريه امرأه تقارن بيمن ، ولكي يؤيد حكايه الحبل فانه أعطاني وصفا مسهبا لبدانة " يمن" فحينما كان في مقتبل العمر كان يراها كثيرا اذ كانت تربطها بأسرته صله قرابه . ثم أضاف أنها كانت بيضاء البشره جميله الملامح أسره الابتسام ، وأهم من كل هذا أنها كانت في غايه الذكاء ، والواقع أن الكثرين من وجهاء القصر كانوا يقصدونها لبحث مشاكلهم ، ثم قال أنها كانت مثل ملكة أسطوريه بكل خواتمها وأساورها وخلاخيلها ولم يحدث أن امتلكت امرأه بالبحريه مثل هذه الكميات من الحلي . وهكذا اتضح أنها النموذج المثالي لاعضاء مجتمع فقير لايجدون ما يسد الرمق الابشق النفس ولايستطيعون ان يقتنوا أكثر من بعض الحلي المعدنيه أو الفضيه



(شكل ١٣) فتاه من الباريطى ، لابسه عقودا من الخرز الزجاجى والكهرمان . لاحظ الوشم على الجبهه والذقن .

اللهـــو :

أن أهل البحريه مغرمين باللهو ، فهم لايملون سماع موسيقاهم التى تتكون أدواتها من الطبله والارغول المزدوج ونوع بدائى من الناى ، وأكثر مناسبات الطرب عندهم

ترتبط بالزواج ، وخلال الاحتفالات تشترك العذراوات في الرقص الواحده تلو الأخرى ولكنهم لايرقصن ابدا كجماعه . وهن ينحنين بأيديهن على عصى وعلى الايقاع يحركن ظهورهن وأقدامهن ، ويعجب الرجال بهذا النوع من الرقص وان كنت أجده دون رقص البدويات والقرويات في وادى النيل وسيوه ، ولأى مشاهد من غير أهل البحريه فانه رتيب ممل وللمثقف ربما بدا خال من الذوق . ويرقص أهل البحريه كذلك فى مناسبات ختان الأطفال وغيرها من المناسبات .

من المعروف أنه فى قرى الوادى وفي الواحات الأخرى حينما تقم النساء بزياره ضريح ولي من أولياء الله فمن عاداتهن أن يبقين ساكنات اظهارا لاحترامهن العميق للمكان ولأهميته الدينيه ، ولكن الأمر مختلف فى البحريه ، ففى مساء كل خميس ، وبمجرد غروب الشمس تقوم النسوه ومعظمهن من المتزوجات ، بزيارة ضريح الشيخ السويبى أو الشيخ علي أبو رماله في الباويطي أو ضريح الشيخ بدوى فى القصر ، وهناك يشعلن شموعا أحضرنها معهن وبدلا من أن يحافظن علي هدوئهن وسكونهن أو يتلين بعض الدعوات فانهن يصفقن ويرقصن الواحده تلو الأخرى ، وتفسيرهن لذلك بسيط ومنطقى ، على الاقل فى نظرهم : أن مولى الله لن يهتم بمديد العون لهن الا اذا رضى وسعد قلبه ، وارضاء يكون عن طريق غنائهم ورقصهن .

ومن ألمع احتفالاتهم الإحتفال بمولد الشيخ نجيم فى العجوز ومولد الشيخ بدوى فى القصر ويحتفل بكلا المولدين في تمام القمر خلال شهور الصيف ويأخذ الرجال والنساء معهم طعامهم وشرابهم بغيه قضاء الأمسيه فى منازل معارفهم بالقرب من الضريح وفي الحدائق المجاوره ، ويقضون الليل يغنون ويرقصون أحيانا حتى صباح اليوم التالى .

الغناء والأغاني :

ان الاغانى المحببه لدى الرجال هي الموال [١] المعروف في مختلف بقاع الوادى والأشعار المحليه التي يتغنى بها شعراؤهم وأشعارهم تختلف فى أشكالها وأساليبها عن أشعار وادى النيل فهي ضرب من التقليد لاغاني البدو فى ليبيا وعلى الساحل ، أما الأغاني المفضله لدى النساء فهي المعروفه " بأغاني الرحى" التي تتميز بها

(١) يؤدى الموال رجل واحد ويتكون بوجه عام من شعر مقفى وأغاني غراميه أو فى معظم الأحيان من مراثى ، وعادة ما يتنافس مغنيان ، فحينما ينتهي أحدهما يبدأ الآخر الذى يجعل رده منطلقا بنفس الموضوع الذى أنتهي منه الاول ، ويردد معظم المغنون الاغاني القديمه المعروفه ولكن هناك بعض الموهبين الذين يستطيعون تأليف أغاني جديده فى الحال .

البحريه. وتتألف هذه في العاده من بيتين من الشعرتتغنى بها المرأه في نغم طويل جميل على ايقاع حجر الرحى في دورانه لطحن الحبوب . ومنذ ١٩٣٦ أستخدمت ماكينه لطحن القمح والذره ولذلك فانه يندر استخدام الرحى الا في الأماكن النائيه من الواحه .

وكانت مغنيات محترفات يستأجرن لهذا الغرض ، وكان الطحن يبدأ عاده بعد مغيب الشمس وتتجمع نسوه الدار حول المغنيه وأحيانا ما كان بعضهن يأخذ دورا في الغناء والطحن ، واذا كانت المغنيه مشهوره فان الرجال كانوا يتصنتون من مقاعدهم أمام المنزل، ومن المؤسف أن هذا النوع من الغناء في طريقه الى الزوال (١) .

عند ولادة طفل

حتى ثلاثين سنه خلت جرت العاده أنه حينما كان يجئ امرأه حامل المخاض يسارع اقرباؤها بوضع رمل نظيف في ركن أحد الحجرات حيث ترقد المرأه حتى اليوم السابع من الوضع ، الا أنه لم يعد يتمسك بهذه العاده الا الطبقة المعدمه من الناس . وحالما يولد الطفل فانه يلف في قطعه قماش قديمه ولكن نظيفه ، وفي اليوم الثالث تقدم القابله بغسل الطفل وحينذاك يعطى أسمه ، وذا كان الطفل ذكرا فان الاب والأقرباء القريبون ، لا سيما الجد ، يهدونه شجره نخيل أو أكثر ، وفي مساء اليوم السادس يملأون أبريقا بالماء ويتركونه طوال الليل قريبا من رأس الطفل ، وفي الصباح يأخذ الأب الابريق ويذهب به إلى الحديقه حيث يصب بعضا من الماء على جذع كل شجره نخيل من التي اهديت للطفل ، وفي وقت لاحق من نفس اليوم تكتب وثيقه يوقعها الأقرباء الذين أعطوا الطفل الهديه .

ومن جهه أخرى ففي نفس اليوم تقوم نساء الأسره وقريباتهن وجاراتهن باصطحاب اطفالهن إلى المنزل حيث تعطي كل واحده منهن طعاما أو قروشا قليله للقابله كهديه ، ويحضر بعض الأقرباء حليبا ويحضر الأب خبزا وعدسا وأرزا ثم يجلسون جميعا لتناول وجبه مكونه من العدس والارز والحليب المحلى بالسكر ، واذا كانت الأسره على جانب من اليسار فانها تقوم بعمليه " غربلة الطفل " فيضعون

---

(١) خلال زياراتي للبحريه فيما بين ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ جمعت هذه الأغاني اشترى الحبوب واستأجر النساء وأجعلهن يغنين وهن يطحن ، وكانت أشهر مغنيه في ذلك الوقت امرأة، من اصل سوداني تدعى " عائشه العبد " التي كانت تعرف الكثير من الأغاني ولقد توفيت بعد ذلك بقليل .

مكيالين من الحبوب في الغربال وفوق الحبوب يضعون الطفل ، وتتناول القابله الغربال وتقذف الطفل في الهواء وتتلقاه في الغربال عدة مرات بينما تردد نصائح منظومه ليكون الطفل بارا بأبويه ومطيعا لهما ، ، واذا كان الطفل ذكرا فانهم يغربلونه على القمح أما اذا كان أنثى فانهم يغربلونه على الارز ، وفي كلتا الحالتين فان القابله تأخذ المكيالين لنفسها بعد نهاية الحفل . وفي نفس هذا اليوم ، وقبيل عملية الغربله يتم التخلص من لفافات القماش القديمه ويرتدي الطفل رداء مصنوعا من قميص قديم لأمه أو جلباب قديم لابيه .

وبعد الانتهاء من الغربله يتناولون وجبة غذاء ثم يقضي الأقرباء والأصدقاء بقية النهار يغنون ويرقصون حتى قبيل غروب الشمس ، وفي هذا اليوم تترك الأم سريرها الرملي وتستأنف حياتها العاديه .

الزواج :

حتى بداية الحرب العالميه الثانيه كان المهر المعتاد يتراوح بين جنيه واحد وجنيهين بين الطبقات المعدمه ومن جنيهين إلى ثلاثه جنيهات في المتوسط ، أما العائلات الغنيه في الواحه فان المهر الذي كان يدفعه أفرادها لم يزد عن سبعة جنيهات ، وتدفع هذه المهور في حالة ما اذا كانت العروس بكرا ، أما اذا كانت أرمله أو مطلقه فان المهر كان يقل عن ذلك بكثير بحيث لم يكن يتعد جنيها واحدا ، وهذا طبعا بالاضافه إلى الهدايا من الملابس وخلافها ، وفيما يلي نعطي وصفا لاحتفالات الزواج بالنسبه لفتاة تتزوج للمره الأولى .

ما أن توافق العائلتان على موعد عقد القران فان الاستعداد لهذا اليوم يستغرق أسبوعا بأكمله ، ففي اليوم الأول تأخذ عائله العريس هدايا إلى بيت العروس محمله على حمار أو أكثر وتتكون الهدايا من عشرة مكاييل [1] من القمح ومثلها من الأرز ونصف مكيال من العدس ومكيال من الزيتون المجفف ورأسين من السكر ورطل من الشاي وكميه صغيره من الخضروات وبعضا من فاكهة الموسم ، واذا كانت الأسره على جانب من اليسار فانها ترسل عنزه كذلك ، يخترق الموكب شوارع القريه إلى بيت العروس تصحبه الموسيقى وهناك تكون العائله الأخرى في الأنتظار للترحيب بالضيوف ، وتبدأ العروس نفسها الرقص وتستمر الاحتفالات أسبوعا كاملا كما أسلفنا

---

(١) المكيال =٦ك (المراجع).

حتي تحل " ليلة الحناء " في اليوم السابق على عقد القران ، وهنا يرسل العريس أربعا من قريباته يحملن هدايا من بينها قماش قميص أبيض ورداء ملون من القطن ولفاع من الحرير وبلغه (١) ومرآه صغيره ومقص وعقد من البنور ذهبي اللون وقطعتي صابون وفوطه وكميه مناسبه من الحناء موضوعه في طبق ، وبين مظاهر الفرح من غناء ورقص تقوم النساء الاربع بوضع معجون الحناء على العروس وعلى قدميها ورجليها ، وبعد ذلك يقمن بوضع الحناء على أيدي وأقدام من يرغبها من النساء والأطفال الحاضرين الحفل . وبعد تناول وجبة العشاء تعود النسوه الأربع ، مصحوبات بقريبات للعروس ، الى بيت العريس ، ليضعون الحناء على يديه وقدميه كذلك ، وبهذه المناسبه يجب على والدة العروس أو أحدى خالاتها أن تضع قطعه من العمله الفضه في يده قبل وضع الحناء . ومنذ تلك الساعه لايغادر العريس منزله حتي تأتيه عروسه في أصيل اليوم التالي (شكل ١٤) .



(شكل ١٤) عروس بداخل "الدختروان" على ظهر جمل في طريقها
إلى منزل العريس مصحوبه بأفراد عائلتها .

---

(١) أن انتعال البلغه منتشر بين رجال ونساء شمال افريقيا والواحات وقرى وادي النيل .

فى اليوم التالى يقوم أقرباء العروس وأصدقاء عائلتها باصطحابها الى منزل العروس، وفيما سلف من أيام كانت تذهب راكبة حمارا ولكنه ابتداء من الثلاثينات كان يفضل امتطاؤها حصانا أو جملا. فاذا ركبت الحصان كانت تلبس جردا(١) وتجلس خلف أحد اقربائها موثوقة خشبية سقوطها ، أما إذا استخدم الجمل فإنها كانت تجلس عادة داخل التختروان (١) مع فتاتين أو ثلاثة من قريباتها ، وعلى أى حال ففى كلتا الحالتين فإن موسيقى المزماروالطبل كانت تزفها بينما يقوم بعض أقربائها بأداء رقصات توقيعية وبين الفينة والأخرى يطلق أفراد منهم أعيره نارية من بنادق قديمة ، وفى الوقت الحاضر لا تركب الحمار أو الحصان أو الجمل الا العروس المعدمه، فى حين تركب الغالبية سيارة تتحرك ببطء شديد حتى يتسنى لأقربائها ان يسيروا بجانبها (شكل ١٥) .



(شكل ١٥) موكب عروس آخر . شاب يرقص قابضا على بندقيته وخلفه طبال وزمار

---

(١) الهودج الذى تسافر بداخله السيدات دون أن يراهن أحد .

وحينما يصلون الى دار العريس يقوم أحد الأقرباء يحمل العروس الى الداخل في حين يقوم آخر بتغطية قدميها طوال الوقت اذ يعتقدون أنه اذا رأى أحد قدميها في تلك اللحظة فسيجلب لها سوء الطالع ، وهكذا تحمل الى الطابق العلوى الى الحجرة التى ينتظرها فيها العريس ومعه ثلاثة نساء احداهن القابلة، وما أن تطأ قدمها أرض الحجرة حتى تمسك بها النساء باحكام ويقوم العريس بفض بكارتها بتلك الطريقة الفجة التى لا تزال شائعة بين بدو الصحراء الغربية وفى كثير من قرى وادى النيل، وحالما ينتهى الأمر يذهب العريس الى النافذة أو يقف فى المدخل ويطلق عيارا ناريا ثم يأخذ من واحده من النساء الشاش الأبيض المخضب بالدم ويريه للمجمع المحتشد ، فى تلك اللحظة يطلق أقرباء العروس وأصدقاؤهم صيحات الفرح والأعيرة الناريه ، لقد أنقذ شرف العائلة .

وفى اليوم الأول تحضر العروس معها اناء كبير لحفظ الماء وآخر أصغر للشرب وكلاهما مصنوع من الفخار الأبيض، وبيان هذه العاده أنه خلال الأيام الأولى لزواجها لا يصح للعروس أن تذهب لاحضار الماء من العين ، وفى اليوم الثالث يأتى لها أهلها بأمتعتها الخاصة وبملابسها وخلافه فى صندوق خشبى ، فضلا عن سلة مليئة بالأرز و، مقطفين ، أحدهما به خبز جاف والآخر به خبز طازج وكعك ، وفى نفس اليوم يغادر العريس منزله فى الصباح الباكر ليمضى سحابة يومه فى الحدائق بصحبة أصدقائه المقربين . وفى الصباح يأتى أهل العروس اليها وتقوم بعض سيدات الأسرة بغسل جسدها وترتيب شعرها وتزينها بينما يقوم البعض الآخر بحياكة قطعتى القماش الجديدتين اللتين أعطاهما لها عروسها (ويجب حياكتهما فى هذا اليوم) ، وفى نفس الوقت تغنى النساء بينما ترقص الفتيات ، وبحلول المساء يعود العريس من الحدائق حاملا معه كل فواكه الموسم «وبصباصة» العروس [١] (شكل ١٦) وتتناول عائلتا العروسين وجبة عشاء ، وحينما يهم والد العروس بالذهاب الى بيته تهرع ابنته اليه وتقبل رأسه ويديه وتسأله الصفح عن تركها لمنزله .

---

(١) ، البصباصة ، عبارة عن جريدة نخل مربوط بها كل أنواع الفواكه ، ويمكن تقديمها كذلك كهدية الى الطفل حديث الولادة ولكن فى هذه الحالة يضاف الحلوى من السكر والشاى وأحيانا زوج من الحمام .

وخلال الأيام السبعة الأولى تقوم عائلة العروس بإرسال الوجبات اليها وإلى بعلها وفى اليوم السابع يقام احتفال فى منزل العروس يدعى اليه أفراد العائلتين وفى حضور الجميع يتقدم العريس الى حيث يجلس والده فيقبل يديه ورأسه ويسأله الصفح، فيبارك الأب ابنه ويمنحه هدية ، عادة ما تكون قطعة أرض أو عدد من شجرات النخيل .



(شكل ١٦) « البصباصة » المصنوعة لطفل حديث الولادة وفى الصورة يرى الأب والأم .

الـمـوت :

حينما يتوفى طفل رضيع ولم يبلغ من العمر أكثر من يوم أو يومين وقبل أن يسجل اسمه في سجل المواليد فإنه في الغالب لا يدفن في مقبرة بل يتم دفنه في أى مكان : تحت أرضية حجرة من حجرات المنزل ، في احدى الحدائق أو على حافة الجبانة .

وكقاعدة عامة بدفن المتوفى ، رجلا أم كان امرأة ، في مقبرة خاصة به ، والاستثناء الوحيد يحدث حينما يتوفى طفل بعد وفاة أحد أبويه بمدة قصيرة ، ففى هذه الحاله يعاد فتح القبر ويدفن الطفل بجانب المتوفى حتى يرعاه في الموت كما رعاه في الحياة .

وفى كل من القصر والباويطى توجد نتوءات ثلاثة فوق قبر الرجل ، واحد فوق الرأس ، وآخر فوق القدمين وثالث في الوسط ، أما قبر المرأة فيحتوى على نتوءين فقط ، وفى كل من منديشه والزبو توضع قطعتى جريد أو لبنتين على قبر الرجل ، واحدة على كل طرف ، وتوضع قطعة جريد أو لبنة واحدة في وسط قبر المرأة .

ويضع أهل البحرية اناء ماء على القبر قريبا من مكان رأس المتوفى (شكل ١٧) ويملأ هذا الإناء بالماء كل خميس حينما تقوم نساء الأسرة بزيارة الجبانة ، ونادرا ما يقوم الرجال بزيارة الجبانة يوم الخميس اذ أن هذه مسئولية النساء اللائى يقمن بزيارة الميت حاملات معهن الماء ، والكعك ، والفواكه وسعف نخيل أخضر .

ويؤمن أهل البحرية ، وعلى وجه الخصوص منطقة القصر ، أنه حينما يتوفى رجل أو امرأة متقدمة في السن ، فلابد أن يلحق به أحد شباب الأسرة ، وتجنبا لهذه المصيبة ، أو للتقليل من وقعها على الأقل ، يتخيرون عددا من الاحتياطات من بينها وضع قطعة عملة في فم المتوفى حينما يقومون بغسل الجثمان قبل قبره ، أو يدفنون بصلة مع الجسد أو يغرسون مسمارا حديديا طويلا فوق مكان الرأس ، وبعد المدفن يتخلصون من اللبن وكل الأحجار التى لم تستخدم في عملية بناء المقبرة اعتقادا منهم أنه إذا تركت لبنة أو قطعة حجر في مكانها فسرعان ما تستخدم في بناء مقبرة جديدة ، وكاحتياط آخر فان النعش الذى استخدم لحمل الميت من المنزل الى القبر يوضع مقلوبا على المقبرة وفوقه كتل حجرية ، اذ يؤمن الناس بأن هذا سيزيد من وزنه وبذلك يمنع استعمالا عاجلا له .

وقد اتيحت لى الفرصة أكثر من مرة لأن أشهد الجنازات في البحرية ومما أثار دهشتى المبالغة الزائدة في تعبير الناس عن حزنهم ، فالصراخ العالى وضرب الصدور

والعويل الهستيرى وإهالة التراب على الرأس كلها أمور أعرافها من موطنى بالفيوم ومن الصعيد ولكن دهشتى كان مصدرها عويل الرجال وصراخهم بلا تحفظ . وحينما يؤخذ جثمان المتوفى الى الجبانة فإن الرجال يسيرون فى اثر النعش وخلفهم النساء وما أن يصلوا الى القبر حتى يوضع النعش على الأرض ويتوجه أحد الرجال بالحديث الى الحضور : « بم تشهدون لهذا المتوفى » ودائما ما يكون الجواب : « نشهد أنه (أوانها) كان رجلا صالحاه وإذا ما اتهم شخص من الحضور المتوفى بسرقة أو بعدم تأدية دين عليه أو بإلحاق ضرر به (وهذا أمر نادر الحدوث) فإن أقربائه يعتذرون عنه ويعدون بتأدية دينه ، وبعد أن تستقر كل الأمور ويتم الصفح ويكرر الجميع أن المتوفى كان رجلا صالحا يردد الحضور معا صلاة قصيرة ثم يؤخذ الجثمان من النعش ويدفن فى القبر .

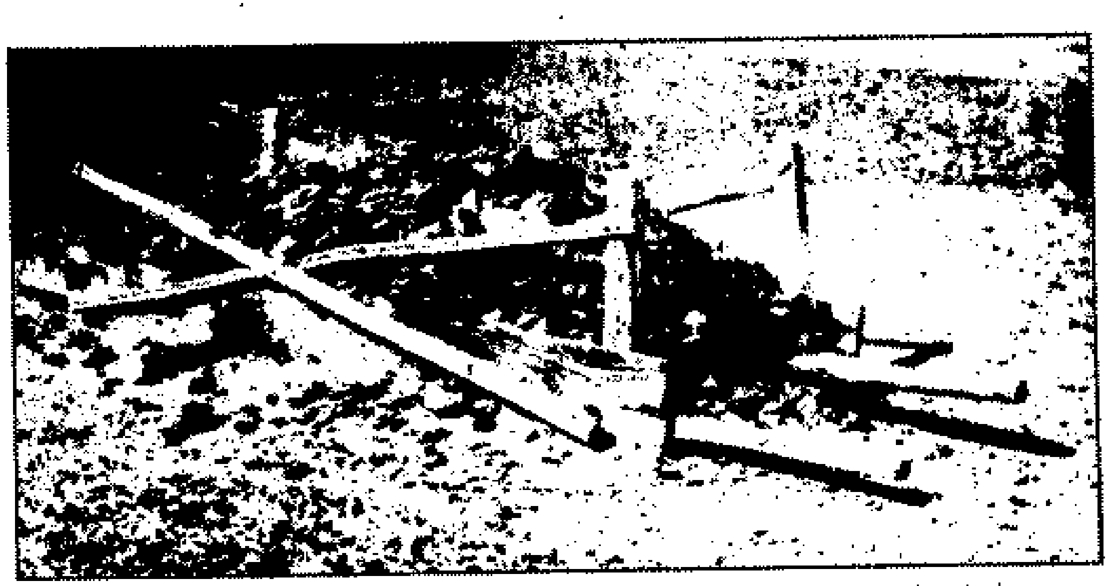


(شكل ١٧) اناء ماء بالقرب من موضع الرأس فى مقبرة امرأة من النابوبطى

في اليوم الثالث تقوم نساء الأسرة وقريباتها بزيارة المقبرة ، ويأخذن معهن أفخر طعام لديهن بالاضافة الى الفواكه والزهور ان توفرت وعند وصولهن يقضين حوالى ساعة يصرخن ويبكين ويندبن ، وأخيرا يهدأن وتحاول كل واحدة أن تواسي الأخرى ثم يبدأن في توزيع الفطائر والأطعمة والفواكه لكل الحاضرين وهن يثرثرن بطريقة معتادة فهن يعتقدن أن روح عزيزهم تشاركهن وجبتهن ولذلك فانهم يجهزن الطعام الذى كان يفضله في حياته ، وهن يعتقدن أن المتوفى يكون سعيدا في قبره اذا رأت روحه أنهن مسرورات .

وبالتقصي عن اناءى الماء الصغيرين الموضوعين على المقبرة علمت بالحقيقتين التاليتين ، أولا أن الأواني التي تصنع لهذا الغرض (الجنائزى) تكون بشكل معين ولا تستخدم لأى غرض آخر من أغراض الحياة اليومية ، ثانيا ، يقولون أن الماء الذى يهتمون بوضعه في الأوانى كل يوم خميس إنما هو للطيور وحينما قلت لهم أن الماء متوافر في كل مكان في الواحة أجابوا بقولهم ان روح المتوفى ربما عادت الى القبر على شكل طائر فيلزم أن تجد الماء هناك .

واذا تدبرنا مبالغتهم في اظهار حزنهم ، والوجبة الجنازية التى يتناولونها عند المقبرة ، واعتقادهم بأن الروح تشاركهم الطعام وأنها تعود الى القبر على هيئة طائر فإنه يمكننا القول أنه رغم دخول المسيحية والاسلام الى الواحة فإن الثقافة المصرية القديمة لم تندثر هناك بعد .



(شكل ١٨) نعش لحمل جثمان المتوفى الى الجبانة لاحظ وضعه المقلوب والاحجار الصغيرة التى تملأه .

الخـرافـات :

يؤمن أهل البحرية بالخرافات ايمانا عميقا فهم يعتقدون في قوة السحر وفي خطر العين الشريرة رلديهم سحرتهم ، ويؤمنون بالتعاويذ وبتأثير القوى الخفية التى تحيط بهم ، ولن يتيسر أن أسهب في هذا الفصل ولكنى آمل أن يقوم المتخصصون فى علم الاجتماع باجراء دراسات جادة في هذه الواحة قبل فوات الأوان وفى يقينى أنهم سيجدون هنا حقلا صالحا لأبحاثهم.

ان المشروعات الحديثة في البحرية ، والمدارس ، والتغيرات الاجتماعية التى وقعت في العشرين عاما الأخيرة كلها كان تأثيرها المباشر على حياة الناس ، ولكن نساء هذه الواحة ، كغيرهن في أى مكان العالم ، هن الحارسات على العادات والتقاليد المتوارثة ، لقد تغير حال رجال البحرية بدرجة كبيرة ولكن العادات القديمة ستظل قائمة بين النساء لأجيال قادمة . صحيح ربما أنهن تخلين عن ملابسهن التقليدية وبعض مظاهر لهوهن ولكنه تغيير سطحى لا أكثر ولا أقل ، فالأمر يتطلب وقتا أطول لتغيير طريقتهن فى التفكير وتقاليدهن الموروثة عن الماضى وكل هذا يلائم حياتهم فى الواحة .

ولنترك الآن أهل الواحة في الوقت الحاضر ولنبدأ الفصول المتعلقة بتاريخها خلال العصور وأطلال ماضيها .

الفصل الثالث
تاريخ الواحة البحرية

العصور المبكرة :

مثل غيرها من واحات صحرائنا الغربية ، كانت البحرية مأهولة بالسكان في العصور الحجرية القديمة ، ويروى بعض الرحالة عن العثور على أدوات ظرانية في هذا المنخفض ولكن شيئا من هذه الأدوات لم يقدم لأى من المتاحف المعروفة ، وحسب علمي لم يستعرض أي مؤلف عن العصر الحجرى القديم في مصر ، أو حتى العصر الحجرى الحديث ، آثاراً لأى من هذين العصرين وجدت في البحرية ، ولم يعثر في هذا المنخفض على أى رسوم صخرية كتلك التى عثر عليها فى العوينات أو في درب الغبارى (بين الخارجة والداخلة) أو في جبل الطير (بالخارجة)[1].

ونحن نعرف أن « التحنو » القدماء كانوا يعيشون على حدود مصر الغربية وليس من المستبعد أن البحرية كانت جزءا من مناطق استيطانهم في فجر التاريخ المصرى خلال العصر العتيق وبدايات عصر الدولة القديمة ، ولابد لى من القول أنه حتى الآن لم يعثر في البحرية على آثار من عصر الدولة القديمة كما أنه لم يعثر على ما يدل على وجود التحنو أو التمحو في هذه الواحة في خلال عصرى الدولتين القديمة والوسطى[2] وكحالهم اليوم كان السكان حينذاك خليطا من العناصر الأصلية ومهاجرين من وادى النيل وبدو الصحراء لا سيما النازحين من ليبيا ، ومع هذا فقد أدت حفائرى الأخيرة فى بلاط بالواحة الداخلة (مارس - ابريل - ١٩٧١) الى الكشف عن مصاطب لبعض حكام الواحات يعود تاريخها الى الأسرة السادسة وعصر الانتقال الأول.

---

(١) عن هذه الرسوم انظر Fakhri Bahria Oasis , Vol . I (Cairo 1942)

(٢) اشتريت من البحرية جعرانا عليه « مهشما » اسم « سنوسرت » أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة .

الدولة الوسطى :

تبدأ أسماء الواحات الجنوبية في الظهور في النصوص المصرية بعد الدولة القديمة ولكن لم يرد ذكر لأى من الواحات الشمالية رغم تأكدنا من أن سكانها كانوا يفدون الى وادى النيل بين الحين والحين للتجارة أو يذهب أهل وادى النيل إليهم لنفس الغرض .

وسنقوم بمناقشة اللوحات التى تعود الى الأسرة الثانية عشر والتى تشير نصوصها الى الواحات أو الصحراء الغربية في الفصول الخاصة بتاريخ الواحة الخارجة ، ومع هذا فإن اسم البحرية لم يرد ذكره في هذه النصوص كما أن هذه اللوحات وأماكن العثور عليها يجعل من المحتمل أن الاشارات الواردة بها تتعلق بالواحات المتصلة بأبيدوس وطيبة .وعلى كل حال فقد كانت هناك علاقات تجارية مستمرة بين الواحيين وشعب وادى النيل ، فكانت ترد الى مصر منتجات الواحات لتباع بها ثم تعود قوافل الحمير محملة بمنتجات الوادى، وقد لقى نبيذ البحرية رواجا واسعا في مصر ابان أيام الدولة الوسطى [١].

عصر الهكسوس :

لم تتعرض الأحوال في البحرية لأى تغيير ذى أهمية أثر سقوط الأسرة الثالثة عشرة المصرية فلم يول الهكسوس في الدلتا أى اهتمام للصحراء الا أن أهل الصعيد ظلوا يمارسون تجارتهم مع الواحيين الذين كانوا يفدون اليهم بين الحين والآخر وقد استمر تأمين طرق القوافل الرئيسية التى كانت تربط مدن وقرى وادى النيل بالواحات يتم بارسال دوريات الحراسة .

وتمدنا اللوحة المشهورة للملك كامس (من الأسرة السابعة عشرة حوالى ١٥٧٠ ق.م) والتى كشف عنها في معبد الكرنك عام ١٩٥٤ ، بمعلومات جديدة عن الواحة البحرية [٢] ، فنعلم من هذه الوثيقة الهامة أن أبوبى ملك الهكسوس أوفد رسولا محملا برسالة مكتوبة الى أمير كوش (عن طريق الواحة مسافرا صوب الجنوب الى كوش)

---

(١) ورد ذكر نبيذ ، زسزس ، أى نبيذ البحرية ، في أحد نصوص الدولة الوسطى أنظر: Worterbuch v ,618 وانظر كذلك A.scharff, ZAS 57, p.45 and Pl .16

(٢) نشرت صورة وترجمة لهذه اللوحة ،انظر Hammad,chronique d,Egypte 30 وانظر كذلك Gardiner,Egypte of the Pharaohs ,pp 167 - 8

ولكن وقع الرسول والرسالة . فى ايدى أعوان كامس وفى رسالته حاول أن يحمل أمير كوش على مهاجمة مصر من الجنوب : تقدم ، اتجه شمالا على الفور لا تخف ، أنظر انه (أى كامس) هنا معى .. لن أدعه يتحرك حتى تصل أنت ، حينئذ سنقتسم مدن مصر فيما بيننا .

وقد اطلق كامس سراح الرسول ليعود الى ملكه ويعلمه أن خطته قد انكشف أمرها ولكن كاجراء احتياطى وحتى لا يطرق رسول آخر نفس الطريق ، أرسل كامس بعضا من جنوده الى البحرية التى حدد اسمها هنا ب « زسزس » لقد أدرك حكام طيبة أهمية الواحة فى الدفاع عن مصر اذا تعرضت للهجوم من الجنوب أو الغرب .

الأسرة الثامنة عشرة:

مع بداية الأسرة الثامنة عشرة بدأت الواحات فصلا جديدا فى تاريخها ، فقد أحكم تحتمس الثالث قبضته عليها جميعا وأعاد شئونها وعين حكاما محليين مسئولين أمام حاكم مقاطعة أبيدوس ، فعلى سبيل المثال تشير لوحة للحاكم « أنتف » (1) الى أنه كان أمير أبيدوس وفى نفس الوقت « حرى – تب – وحات » اى «المسئول عن الواحات » حيث كانت واحة أو أكثر تحت أمرته . وقد شهدت الواحات ازدهارا عظيما خلال أيام تحتمس الثالث ، فتحت الادارة الجديدة حفرت آبارا اضافية وزرعت حدائق جديدة كما أن موظفى الحكومة والجنود أقاموا فيها ، وفى أول الأمر كان حكام البحرية عبارة عن موظفين موفدين من أبيدوس أو طيبة ولكن لم يمر وقت طويل حتى أنجبت الواحة جيلا من أبنائها الذين حملوا على عاتقهم مهام الادارة بما فى ذلك منصب الحاكم.

وفى مقبرة بويمرع (الكاهن الثانى لأمون فى عهد تحتمس الثالث) فى جبانة طيبة (رقم ٣٩) نرى منظرا يصور كاتبا واقفا وفى يده لفافة بردى وأمامه نص يقول « تسجيل جزية الواحات » . ونرى كذلك رجلين ساجدين ، هما زعيمان محليان أو حاكمان ، وفوقهما نقرأ « زعماء الواحات الجنوبية والشمالية » (٢) .

---

(١) Louvce C 26, Urkunden IV, 963- 65

(٢) pls , 31, 33 , pp. 83 - 85 N.de G. Davies , The Tomb of pugemre at Thebes, vol I

وعلى هذا الجدار نرى مناظر تقديم الجزية من قبل عدة بلدان كان للاله أمون ضيعات فيها ،فنرى هنا السوريين وبدو وادى الطميلات .أما الواحيون فقد ظهروا فى الصف الثالث وقبل ديفز نشر هذا المنظر :
Johannes Dumichen, Die Oasen der Libyschen wuste (Streassburg,1877) PL . I

ويقول ديفز عن هذين الزعيمين أنهما مصريان ويقول عن أتباعهما الذين يحملون الجزية : « وأهالي الواحة مصورون غريزي الشعر ولكنهم حليقوا اللحى وملامحهم مصرية ويلبس واحدهم نقبة بسيطة ، ويحملون جرة نبيذ معلقة في قائم ، وجوالين أو لفتي قماش وتلك السلاسل المصنوعة من الخوص والتي تشبه الخلايا ولا تزال تصنع في الواحة ،، [1] . وفي حاشية في نفس الصحيفة يصف ديفز ملابس حاملي الجزية بقوله : ،، ان طية الرداء بيضاء « و نقبة الرجل الأول فذات لون أحمر فاتح وبها خطوط من نقط سوداء ، أما نقبة الثاني فحمراء ،، . ورغم لونه فيحتمل أن هذا الرداء مصرى الأصل ، انظر

Newberry,El Bersheh I,P 20, scheil,Tomb of Apuy,coloured plate,

ويظهر منظر جزية آخر من الواحات في مقبرة رخميرع (رقم ١٠٠) وزير تحتمس الثالث المشهور، ويحمل حاملوا الجزية حصرا ملونة وجلد ثعلب وجرار نبيذ ، احداهما كبيرة جدا،محمولة في شبكة معلقة في قائم يحمله شخصان حتى ظهريهما مثل الجرار [2] ، وبفحص المنظر نجد أن بعض الرجال يتميزون بشعر رأسهم الغزير ولكن معظمهم يلبس الشعر المستعار الذى كان يلبسه المصريون ،ويمكننا التمييز بين نوعين من الملابس ، أحدهما عبارة عن نقبة مخططة تختلف عن النقبات التي تعود المصريون على لبسها في ذلك الوقت.

ويعتقد ديفز بوجود منظر ثالث لجزية أهل الواحات في مقبرة انيني (رقم ٨١) وتؤرخ هذه المقبرة كذلك الى عهد تحتمس الثالث [3].

---

(١) لا تزال هذه السلاسل تصنع وتستخدم في كافة الواحات وتسمى مرجونة .

(٢) تشر نيوبرى هذا المنظر بأكمله في P.E Newberry , The Life of Rekhmara
London , 1908 , pl .13 الصف الأسفل ، ووصفه في ص٣٥ ، أنظركذلك
davies, The paintings From the Tomb of rekhine , pl .15
وفي هذه اللوحة نرى الجزء الهام من المنظر بالالوان

(٣) بدأ انيني حياته الوظيفية يافعا في عهد أمنحتب الأول وكان هو المهندس الذى يعزى اليه فضل اكتشاف موقع وادى الملوك واختياره لحفر مقابر الملوك ، وقد عمر طويلا حتى وافته منيته في عهد تحتمس الثالث أما مناظر مقبرته فقد نشرها
H. Boussac, Le Tombeau d›Anna Mem . Miss. Arch .France
VoL. 18 (Paries 1896)
وانظر كذلك Wreszinski , Atlas I أما مناظر الجزية فهى في اللوحات 6 - 264

وفي قاره حلوه ، مرتفع ليس بعيدا عن قرية القصر ،توجد مقبرة صخرية بها مناظر قام شتيذروف بزيارتها عام ١٩٠٠ ،أنها مقبرة أمنحتب (الملقب حوى) الذى كان «حاكما » للواحة الشمالية وتذكر النصوص أنه كان واحي بل ومن البحرية نفسها ، وليس في وسعنا أن نعين تاريخا محددا لهذه المقبرة ولكن يمكن القول بشئ من التأكيد أنها ترجع الى فترة فيما بين نهاية الأسرة الثامنة عشرة والنصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة ،وسأتحدث عنها ببعض الاسهاب في الفصل المقبل ولكن ينبغى أن نذكرا أن مناظرها ونصوصها لا تختلف في شئ عن مناظر ونصوص أى مقبرة أخرى معاصرة في طيبة أو في أى مكان آخر بمصر وأن مناظر مكيال القمح وتخزين جرار النبيذ تتفوق على ما عداها من مناظر وفي هذا دليل على ازدهار الواحة في ذلك الوقت ، أما في وقتنا الحاضر فإن انتاج البحرية من القمح والذرة لا يسد احتياجات أهلها ولذلك يعتمدون على ما يرد اليهم من وادى النيل ،وفيما يتعلق بالعنب فتوجد بعض الكرمات ولكن النبيذ لم يعد يقطر فيها .

الأسرتان التاسعة والعشرون:

استمر ازدهار الواحات ، بما فيها البحرية ،خلال ما تبقى من عصر الدولة الحديثةفضلا عن حدائقها أو حقولها أدرك ملوك الأسرة التاسعة عشرة أهمية البحرية كمصدر للمعادن الخام ومن هذا ورد ذكرها مع الخارجة والفرافرة في قائمة المناجم المشهورة المسجلة في معبد الأقصر من عهد رمسيس الثانى (١) ، وقد ساد الاعتقاد زمنا بأن الأسم القديم للبحرية (زسزس) (٢) لم يكن معروفا قبل عهد رمسيس الثانى (٣) ولكن نعرف الآن أنه ورد في لوحة كامس (٤) . لقد عرفت هذه الواحة باسمين : «زسزس » و«الواحة الشمالية » .

وعندما بدأت هجمات الليبين على حدود مصر الغربية لم يقتصر زحف المهاجمين على الطريق الساحلي الذى حصنه ودعم دفاعاته رمسيس الثانى وانما

---

(١) G.Daressy , Recuil des Travaux 16 , 51- 52.

(٢) عرفت زسزس خطأ بالداخلة حتى أثبت زيته أنها البحرية Sethe , Zas 56 , 50 - 65.

(٣) Ahmed Fakhri , Bahria I (Cairo - 1942) , P .16

(٤) كان نبيذ زسزس معروفا منذ عصر الدولة الوسطى

زحفوا كذلك على الطرق الداخلية ،لقد بدأ الهجوم الليبى ابان حكم مرنبتاح ابن رمسيس الثانى ، وبدأ العدو عملياته بأن عزل واحة الفرافرة ووصل حتى « جبال الواحة » كما هو وارد فى النص المصرى المتعلق بهذه الحملة ،ولكن أين تقع «جبال الواحة » هذه ؟ فى ظنى أن الليبيين احتلوا البحرية والفرافرة واتخذوا منهما قاعدة لهجماتهم المستقبلة على مصر . ويدعم ظنى الكشف عن لوحة كامس لأنها تؤكد الأهمية الاستراتيجية للواحات فى الدفاع عن مصر الوسطى ، ولكن لابد من الاعتراف باحتمال وقوع « جبال الواحة » الى الجنوب أو غرب الفرافرة ،إذ يمكن أن نضع فى الاعتبار عين الدالة وأبو منقار (أنظر الفصول الخاصة بالفرافرة فيما بعد) .

وفى بحر الرمال العظيم الممثل فى الصحراء تغدو مياه العيون من الاهمية بمكان بحيث لا يمكن لأى جيش أن يحرز نصرا أو حتى يبقى على قيد الحياة ما لم يجد إليها سبيلا .

عاود الليبيون مهاجمة مصر ابان عهد رمسيس الثالث ،ومن المرجح أن الواحات عانت الأمرين بطريقة أو بأخرى ولكن لم يذكر اسم البحرية فى نصوص هذه الحروب وبعد دحر الاعداء استأنفت الواحات حياتها الطبيعية وزرعت حدائق كروم جديدة لتحل محل تلك التى دمرتها الحرب ،وفى بردية هاريس ورد ذكر منتجات الواحات مرات عديدة وكانت تدخل ضمن القرابين المقدسة ،ويقول رمسيس الثانى : لقد عملت لك (أى لأمون) حدائق كروم فى الواحة الجنوبية وكذا فى الواحات الشمالية .

الواحات البحرية فيما بين الأسرة الواحد والعشرين والأسرة الخامسة و العشرين:

أنقذ رمسيس الثالث مصر من خطر لا يقل عن خطر الهكسوس ، وكان هو آخر الفراعنة المحاربين فى الدولة الحديثة واثر وفاته اخذ عهد الازدهار يسير نحو الانحلال ،ففى الخارج تقلص الحكم المصرى وفى الداخل ضعفت سلطة الحكومة المركزية الى أقصى درجة ، فى حين ازدادت قوة الكهنة ،خاصة كهنة الاله آمون رع الى حد بعيد ،وأنقسمت البلاد على نفسها حتى أن ما فشل الليبيون فى تحقيقه عسكريا نجحوا فى تحقيقه بالتسلل السلمى . فقد ازداد نفوذ بعض الزعماء الليبيين الذين استقروا فى الواحات ،واعتنقوا الديانة المصرية وأخيرا تم تمصيرهم ،وبعد جيل أو جيلين نزح بعضهم الى الوادى . ورغم أن ذكر البحرية لم يرد فى وثائق هذه الفترة الاأننا نعلم أن الواحة الخارجة كانت تعد مكانا لنفى السياسيين المعارضين لحكام طيبة .

وأخيرا تحقق الحلم الذى طالما راود الليبين حينما تربع أحد زعماء قبائلهم على عرش الفراعنة وأسس الأسرة الثانية والعشرين حوالي عام ٩٥٠ ق.م ،وقبل نزولهم الى الوادي كان أسلافه قد استقروا زمنا في الواحات ،ولذلك قرر هذا الملك ،وأعنى به شوشنق الأول ، تحسين الأمور فيها ،لقد كان يدرك أهمية الواحات كمحطات على طرق القوافل وكمناطق غنية بانتاجها للنبيذ والتمر ،وبناء عليه أرسل موظفيه الى مجموعة الواحات الجنوبية ، لتنظيم أراضى ، الواحة بعد أن وجدها في حالة من التمرد والفوضى (١) .

ولم يقصر ملوك الأسرة الثانية والعشرين اهتمامهم كذلك الى البحرية وغيرها من الواحات .

وتوجد منطقة في الواحة البحرية تسمى « العيون » التي أخذت عيونها في الجفاف منذ عام ١٩١٠ مما نتج عنه موات نخيلها ولم يبق من أراضيها الزراعية إلا رقعة صغيرة ،أما في العصور القديمة فقد نعمت هذه المنطقة بازدهار رائع وبمياه وفيرة ،وقرب أحد عيونها أقيم معبد من الحجر وفى عام ١٨٧٦ أنفق عالم النباتات الالمانى بول أشرسون Paul Ascherson أحد أعضاء بعثة رولفس ثلاثة أشهر في البحرية حيث عثر على حجر منقوش قام برسمه ،وحينما أخذ هذا الرسم الكروكى الى ليبسيوس ،عالم المصريات الشهير ، تعرف على خرطوشين يحتويان على اسم تحتمس الثانى أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ،واتخذت مؤلفاته نهاية القرن الماضى والثلث الأول من القرن الحالي من هذا الحجر دليلا لا يقبل الجدل على امتداد نشاط ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل الى الواحة البحرية(٢) .

---

(1) A. Gardiner JEA , PP. 19 - 33.

(٢) نشر بول أشرسون مذكرة قصيرة عن اكتشافه هذا في Globus ,30:75
وقد ذكره وناقشه G. schwiinfurth ,Geogsonhisches nachrichten aus kairo
Georg Steindorif ,Durch die Libysche zur Amonsofse
wiedmann , Aegyptische (Beilfeld , 1904) ,p .144
Henri Gauthier , Livre des Rois , Gesschichte I (Gotha 1884) p. 330
232 وفى كتاب بول (Ball) وبيدنل (Beadnell)
Bahria Oasis p.73 نجدهما يعيلان هذا الرأى في
Beadnell , Farafra oasis : Its Topograply and Geology ,
(Cairo , 1901) , p.14 يذكر بيدنل خطأ أن اللوحة وجدت في الفرافرة

في عام ١٩٣٨ وحينما كنت أقوم البحث الى جوار العيون ساعدني حسن الحظ في العثور على هذا الحجر بالقرب من عين مملؤة بالرمال تسمى « عين الفوقانية » لقد كان مستخدما كمصطبة أمام أحد المنازل المهجورة الذي كانت أساساته مبنية من الحجر المأخوذ الذي توجد فيه اللوحة الان عثرت على المداميك السفلي لمعبد مبنى من الحجر يتألف من حجرة واحدة بداخلها مذبح ،ويبلغ ارتفاع الجزء المتبقى من الجدار حوالى ٨٠ سم في المتوسط بحد أعلى ١٠٥ سم ،وكانت الأرضية مبلطة بكتل حجرية لا زالت اثنتان منها في مكانهما ،وكان المدخل الرئيسي لهذا المعبد الصغير يتجه ناحية الشمال والى الجنوب ولا تزال توجد بقايا أربع غرف مبنية من اللبن وكانت جدرانها مكسوة بطبقة من الجص وليس من شك في أن اللوحة كانت قائمة على يسار المدخل الرئيسي ،وقد عثر على بقايا لوحة أخرى غير مكتوبة كانت مصنوعة من نفس المادة ولها نفس المقاييس ،بالقرب من الجانب الأيمن للمدخل.

وخلال حفائري وجدت عتبا لم يكن العمل فيه قد تم ،كان مقاما فوق المدخل وكان مزخرفا بقرص الشمس المجنح ولكن الفنان لم يكمل نقشه ،ولم يعثر على أى شئ اخر ذى قيمة فيما عدا بعض كسر الفخار وزجاج من العصر البطلمي المتأخر.

واللوحة المنقوشة ذات قمة مقوسة وتبلغ أبعادها ١١٨ سم في الارتفاع و٨٠ سم في العرض ،٢٥ سم في السمك ،ولم يكن العمل فيها قد انتهى اذ أن الجزء المقوس خال من النصوص أو النقوش ،ورغم أن وجهها قد تعرض لتعرية قاسية فيمكن القول أن شيئا لم يكن مكتوبا عليه فيما عدا اسم ملك داخل خرطوش ،وليس اسمان كما ذكر أشرسون ،وبضع كلمات على أحد الجوانب (١) ،وقد أدى رسم أشرسون « الكروكي للنص المهلهل الى خطا لبسيوس في القراءة ،فلا يوجد خرطوش آخر يحتوى على علامة « تحوت » أو علامة « مس » وثمة علامات أخرى جعلت أشرسون يضل السبيل فالاسم ليس اسم تحتمس الثاني ولا تعود اللوحة الى الاسرة الثامنة عشرة وانما تعود الى الاسرة الثانية والعشرين وأما الاسم فهو اسم شوشنق الرابع . ولم يكن العمل في المعبد قد تم ولم تكن اللوحتان قد وضعتا على جانبي المدخل ولم يكن العتب أو الجدران قد نقش ، وقد ظل الهيكل الصغير من الأسرة الثانية والعشرين قائما حتى العصر البطلمي حين أضيفت الحجرات واستخدم المعبد للعبادة مرة ثانية.

---

(١) نشرت تقريرا مفصلا عن حفائري هذا في كتابي Bahria II حيث ناقشت باسهاب النص والخرطوشين.

ونعلم من لوحة أخرى من حكم نفس الملك الرابع أن اللوحات كانت تحت ادارة أحد موظفيه المدعو وشتحت الذى كان ينحدر من أصل ليبى والذى ربما كان حاكم البحرية(١) وكان رئيسه حتيحنقر يحمل لقب ، رئيس قوافل الفرعون ، بما يعنى أنه المسئول عن طريق القوافل في الصحراء ،وقد استوطنت هذه الواحة عائلات من أصل ليبى خلال الأسرة الثانية والعشرين ،ومن بين الأسماء التى كشفت عنها هناك اسم «ارعاوا ، وقد نعم أحفاده بقدر من الثراء والنفوذ حتى أن أحد أعضاء هذه الأسرة السادسة والعشرين حاكما للواحة مع بداية الأسرة السادسة والعشرين كما أصبح الكاهن الأكبر لكل المعبودات فيها .

الأسرة السادسة والعشرون :

لم يعثر في البحرية على آثار ذات قيمة من مدة السبع وستين عاما التى فصلت بين نهاية الأسرة الثانية والعشرين وبداية الأسرة السادسة والعشرين (٧٣٠ -٦٦٣ م) اللهم فيما عدا كتل حجر عليها خرطوش ربما يعزى الى الملك شباكا من الأسرة الخامسة والعشرين ،ويحتمل أن هذه الكتلة جاءت من معبد أو هيكل شيده هذا الملك.

ومع بداية الأسرة السادسة والعشرين دخلت الواحة البحرية أعظم فترة فى تاريخها ،فمعظم الآثار المهمة التى لا تزال في الواحة بما فيها ما اكتشفته خلال أبحاثى تعود الى هذه الأسرة ،وبلغت البحرية أوج ازدهارها خلال هذ العصر ، ولقد تولى أحفاد «ارعاوا » مناصب كهانة الآلهة المختلفة التى كانت تعبد في هذه الواحة الى جانب منصب حاكم البحرية . وابان حكم واح ايب رع (أبريس) أقيمت معابد عديدة بالواحة ،وتبين أطلال معبد الأقصر أنه كان معبدا كبيرا استخدم أجيالا عديدة وفى فنائه كانت توضع تماثيل للحكام . وقد عثر على تماثلين من الألبستر فى شوارع هذه القرية ، وعهد الملك أحمس الثانى (أمازيس) يمثل ذروة هذا الازدهار واليه يعود معظم الآثار المهمة مثل مقصورة الباويطى والمقاصير الأربع المنقوشة فى عين المفتلة وبعض مقابر الباويطى ،وكلها شيدها احفاد « ارعاوا » سالف الذكر .

---

(١) جاءت هذه اللوحة من الدلتا وليس من الواحات وهى تعالج هبات الأرض التى منحت للآلهة حاتحور فى احدى مدن الدلتا وقد نشرها ماسبيرو أول الأمر كما نشرها:

Breasted , Ancient Records IV, 782 - 4 .

ويمكننا أن نتوقع العثور على آثار أخرى لأعضاء هذه الأسرة بعد حكم أحمس الثاني وإن كان لم يعثر حتى الآن على آثار في البحرية تعود بالتأكيد الى حاكم حكم ما بين نهاية الأسرة السادسة والعشرين وحكم الاسكندر الاكبر.

الإسكندر الأكبر والعصر البطلمي:

أن زيارة الاسكندر الاكبر الشهيرة لمعبد الوحي في واحة سيوة معروفة جيدا وقد سبق عرضها بالتفصيل في المجلد الأول من هذا المؤلف ،ولكن من الغريب أنه لم يعثر بعد على اسم الاسكندر في سيوة كما أنه لم يشيد هناك معبد يحمل اسمه ،وينطبق نفس القول على الواحتين الخارجة والداخلة وكل ما يمكننا قوله هو أنه اذا كانت قد شيدت اثار له فاما أنها قد دمرت تماما في العصور اللاحقة وأنها لا تزال تنتظر من يكشف عنها .

في عام ١٩٣٨ ،أن كشفت عن معبد للاسكندر الاكبر في منطقة التبانية وحتى الآن هذا هو المعبد الوحيد في الصحارى المصرية الذى يحمل اسم وصور الفاتح المقدوني . ومن المعروف أن ملوك الأسرة البطلمية بسطوا سلطانهم على ليبيا واهتموا اهتماما كبيرا بطرق التجارة سواء في الصحراء الشرقية أو في طريق درب الأربعين الذى يربط دار فور غربي السودان بوادى النيل عبر واحة الخارجة وقد أقاموا حاميات عسكرية في البحرية لحماية هذه الطرق ،ومع هذا ، ورغم أن احدا من هذه الطرق الرئيسية لا يمر من خلال البحرية فإن هذه الواحة ظلت مزدهرة وإن كان بدرجة أقل مما كانت عليه في الأسرة السادسة والعشرين ، وأهم أثر كشفت عنه في البحرية ويمكن تأريخه الى العصر البطلمي يتكون من دهاليز تحت الأرض كانت مستخدمة لدفن طيور أبو منجل في قارة الفرارجي بجوار منازل الباويطي ،وتوجد كتابة هيروغليفية على المدخل المؤدى الى هذه الدهاليز كما توجد نصوص ديموطيقية عديدة مكتوبة على جدران الدهليز الرئيسي ،ورغم أن الدهاليز كانت معروفة للصوص الآثار المحدثين الذين عبثوا بمحتوياتها فإنه عثر على عدد كبير من القطع الأثرية عند تنظيفها .

وان معظم المباني اللبنية الموجودة في البحرية والتى تعزى الى العصر الروماني ربما تكون في الحقيقة من العصر البطلمي ولن يمكن التأكد من ذلك الابعد اجراء حفائر أخرى .

البحرية في العصر الروماني:

مع مستهل العصر الروماني شهدت كافة الواحات المصرية فترة رخاء وازدهارها جديدة مماثلة لفترتي الأسرة الثامنة عشرة والأسرة السادسة والعشرين . ولقيت الخارجة أعظم اهتمام نظرا لوقوعها على طريق درب الأربعين ولا مكانيتها الزراعية الواسعة ،فحفرت آبار جديدة للمياه وأسست مستوطنات جديدة وبدأت مشرعات مماثلة في الداخلة وحيثما توفرت المياه استزرعت الأراضي اما بواسطة الاهالي أو بواسطة المهاجرين الجدد .

أما في البحرية فقد بذلت مجهودات كبيرة لتنظيف الآبار القديمة ولحفر أخرى جديدة ويمكن رؤية بقايا مباني لبنية كثيرة لا تزال قائمة في أماكن مهجورة من الواحة وقد استمر هذا لعصر العظيم فترة لا تقل عن قرنين حيث بدأ قبيل بزوغ العصر المسيحي ،واستمر حتى منتصف القرن الثالث الميلادى ،وحيثما ذهبنا في الواحة فاننا نجد مقابر صخرية من هذا العصر الي جانب أطلال قرى مهجورة بالقرب من القصر ومنديشة ،وأهم الآثار جميعا قوس النصر بالقصر وبقايا مبنى كبير بالحيز .

ومن الجدير بالملاحظة أن آثار الجص على بعض جدران هذه المنازل تبين أنها لم تكن مأهولة لمدة طويلة . وهذا أمر يمكن توضيحه وله ما يماثله في وقتنا الحاضر ، فليس من المستبعد ان يعطي بئر ما كميات وفيرة من المياه لعدد من السنين ثم لا يلبث أن ينخفض مستوى مياهه أو حتى يجف تماما في بعض الأحيان ،وفي بعض الحالات يكون انخفاض مستوى الماء ناتج عن عوامل طبيعية لا يمكن تلافيها وفي أحيان أخرى يكون ناتج استنزافه عن طريق بئر أو أبار حفرت في مستوى أكثر انخفاضا وهكذا يمتص المياه من الآبار الأخرى الا على والتي تحصل على مياهها من نفس الطبقة .

وفي السنوات الأخيرة أعطت آبار جديدة كميات كبيرة من الماء لمدد تتراوح بين ثلاث وثمان سنوات قبل أن تظهر علامات انخفاض محصلتها من المياه ويترتب على ذلك أن تهجر المنازل التي كانت قد بنيت بجوارها وتترك الاراضي التي كان تسقى من مياهها ،ورغم الفشل الذي كان يلم بمثل هذه المشروعات فان الحياة في الواحة تستأنف سيرتها الطبيعية.

وفي عام ١٩٤٥ كشفت عن مجموعة من المنازل ليست بعيدة من بقايا المقصورة الحجرية بالمعيصرة ،وفي أحدهما وجدت اناء فخاري صغير يحتوى على بعض الحلى وقطعة عملة ذهبية (للامبراطور فالنز (Valens) الذى حكم من (٣٦٤-٣٧٩ م) وهكذا يمكن تأريخ هذه الآثار حوالى ذلك العصر .

حينما نقرأ عن تاريخ مصر أو ليبيا فيما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين نجد أن أيام الأزدهار والأمان قد انقضت ، فقد حول المخربون كل شمال افريقيا والصحراء الغربية الى مكان محفوف بالمخاطر ، وكان الحكم الرومانى فى مصر ذاتها بعيدا عن طريق العدالة ،كان الظلم والفوضى سائدين وزاد الإضطهاد الدينى من شقاء الناس وعانى الفلاحون التعساء الأمرين وتعرض أولئك الذين كانوا يعيشون على حواف الأراضى الزراعية وفى الواحات لهجمات عصابات اللصوص الذين كانوا يتجولون فى المنطقة كما تعرضوا لهجمات البدو . وفى كل مكان بالبحرية نجد اطلالا من العصر الرومانى بما فيها بقايا منازل وأراض كانت تؤتى أكلها فى وقت ما إلا أن الصحراء بلعتها مرة ثانية .

وحينما أتأمل مثل هذه الأماكن المهجورة الجرداء كان فكرى يتصور ما كانت تبدو عليه عندما كانت تحيط بها الحقول الخضراء بينما يكدح الناس وقلوبهم عامرة بالأمل فى مستقبل طيب .

ثم أتصور كيف أن انخفاض كمية المياه أرغم نفس هؤلاء الناس على ترك منازلهم وحقولهم حاملين معهم متاعهم القليل . وتلازمنى هذه الصورة المحزنة لبضع ثوان حتى تحل محلها صور أشد حزنا وأكثر قبحا ،فاربما تعرض هؤلاء الناس لقضاء أبشع ، ربما هاجمتهم عصابة من غزاة الصحراء ونهبت أمتعتهم وأسرت رجالهم ونساءهم وأطفالهم ليباعوا أرقاء ، بينما ترك العجزة والمرضى ليلاقوا مصيرهم وحينما يصل خيالى الى هذه المنطقة أجد نفسى أغمغم : هذا هى سنة الحياة ،وهذا هو أحد وجوه الصحراء الذى تبرزه لبعض أولئك الذين يخطبون ودها

البحرية فى العصر المسيحى:

يتردد اسم هذه الواحة فى التراث المسيحى وعلى وجه الخصوص فى تاريخ الكنيسة القبطية المصرية وكلاهما يربط بين البحرية وبين الأيام الأولى للمسيحية

فطبقا للسنهريم (١) القبطى فإن فاتح السنة المصرية ،أى أول شهر توت (٧سبتمبر) يخلد ذكرى وفاة القديس برتلوماوس أحد حوارى السيد المسيح الاثنا عشر : فقد عهد الى هذا الحوارى أن يذهب الى الواحة ، وهكذا رحل الى هناك برفقة بطرس وبشرا بالانجيل معا أهالى الواحات ودعياهم الى معرفة الرب بعد أن اظهروا لهم علامات عجيبة ومعجزات مذهلة . ويذكر السنهريم كذلك ان القديس اتجه فيما بعد إلى البلاد الواقعة على الشاطئ حيث نال الشهادة فقد سمع به الملك أغرابوس وحنق عليه وأمر به أن يوضع داخل جوال من الشعر ملأوه بالرمال وألقوا به فى البحر (٢) .

أما أبو صالح الأرمنى ، الذى عاش فى بداية القرن الثانى عشر ،فيعطينا تفصيلات أكثر مبنية بطبيعة الحال على ما سمعه من الأقباط ويذكر أن برتلوماوس استشهد فى البحرية وفيما يتعلق بكنائس البهنسا فإنه يقول: توجد هنا كنيسة مسماة باسم القديس برتلومارس الذى استشهد فى واحة البهنسا والذى يوجد جثمانه هناك فى كنيسة كربيل (٣) واذا كنا نعرف ان واحة البهسنا هى البحرية بالتأكيد فليس فى وسعنا التعرف على المكان أو الإقليم المدعو كربيل فالاسم غير معروف فى البحرية وحسب علمى فإنه غير وارد فى أى وثيقة أخرى ،ويمدنا أبو صالح بمعلومات هامة عن كنيسة أخرى فى نفس الواحة ،ونظرا لأهميته فإننى أورد فيما يلى النص كاملا:

« توجد كنيسة فى واحة البهسنا مسماة باسم القديس جرجس ،ويقال أن جثمانه الطاهر موجود فيها ولكن بلا رأس ،وفى ذكرى استشهاده يؤتى بالجثمان من الهيكل ويوضع عليه حجاب جديد ويحمل فى موكب حول المدينة تصطحبه الشموع والصلبان والترانيم ثم يحمل ثانية الى الكنيسة ،وفى السابق كان الناس يخشون أن

---

(١) السنهريم هو المجلس الأعلى للكنيسة القبطية فى مصر (المترجم) .

(٢) هذه القصة مبنية على المأثورات التى يأخذ بها الاقباط والاحباش ولا يقبلها اللاتين والأغريق انظر
B.T Evetts , Churches and Monastries of Egypt
attributed to Abu Saleh the Armenian (Oxford 1895),
pp. 215 - 16, footnote 5 وانظر كذلك
The conflict of the Apostles, pp. 76 - 99 وكتاب المؤلف
The Necropolis of al - Bagawat in kharge Oasis (Cairo 1951)
pp. 11, 14 - 17.

(٣) أنظر Evetts , churches and Monastries of Egypt, p.215

يسرقه الرومان ويأخذونه الى كنيستهم ولذلك نقلوه بحذر الى الجبل ووضعوه فى كهف أغلقوه بالأحجار ،ولكن رجلا من محبى القديس جرجس رآه في منامه وقال له : « لماذا سجنتم جسدى ؟ » أخرجونى من هذا المكان ، فلم يتوقف الأسقف والناس عن البحث حتى وجدوا الجسد فأخرجوه ورجعوا به الى الكنيسة . وأثناء خلافة الحافظ[1] جاء هذا ابن الغفير والى الواحة وأرسل عددا من الرجال فحملوا جثمان القديس وأخذوه الى بيت الوالى الذى قال:

«لن أرجعه الى المسيحيين حتى يدفعوا لى مبلغا كبيرا من المال . وهكذا أحضر له الأسقف ووجهاء المسيحيين الأموال من آن لآخر ، ولكنه لم يقتنع ورفض أن يعطيهم الجثمان . حينئذ أرسل الرب سحبا وريحا عاصفة ومطرا وبرقا ورعدا يوما بعد يوم بطريقة لم يحدث مثليها من قبل في ذلك البلد ،وقيل للوالى : ربما وقعت هذه النكبة فقط لأنك احتجزت الجثمان ،عندئذ أرسل الوالى فى طلب الأسقف وأعطاه الجثمان وعلى الفور توقفت الكارثة . ويقال أن الأسقف شغل منصبه فى الأبراشية مدة ثمان وثلاثين سنة ومع هذا فلم يصنع كفنا على الجثمان الامرتين فقط خلال كل هذه الفترة بناء على ما شهده ، وقد قال للقس : « احيطوا هذا بالرعاية ، فاننى لا استطيع أن أفصح أو أتحدث عما رأيته» .

ويقال أن أعضاء ذلك الجثمان لم تنفصل عنه ،بل انها وجدت سليمة ولم يطرأ عليها أى تغيير ،ويشاع أن جثمان هذا الشهيد موجود فى مدينة ليدا بسوريا الا أن آخرين يقولون أن الجثمان حمل الى مصر لأن حاكم مصر وحاكم سوريا كانا شقيقيين ولما كانت سوريا تضطرب بالقوات والمخربين فإن حاكمها خشى أن يلحق بالجثمان مكروه وهكذا أخذ التابوت ،وبداخله الجثمان بلا رأس ،الى الواحات لأنها بعيدة عن متناول القوات والسلابين والدليل على ذلك أن الحجاج الذين كانوا يذهبون الى سوريا لزيارة ليدا لينالوا البركات التى يسبغها عليهم جثمان الشهيد جرجس يقولون أنهم رأوا الرأس بلا جثمان ،وكان ذلك ابان صيام عام ٨٩٠ للشهيد الصالح (أى ما يقابل ١١٧٤ م) (٢) .

ورغم ما تحويه هذه القصة من عناصر أسطورية فإنها تمدنا بمعلومات عن تاريخ المسيحية فى الواحة وتفصح عن وجود جماعة مسيحية كبيرة العدد وعلى جانب من

---

(١) الحافظ هو أحد خلفاء الفاطميين محكم من ١١٢٩ - ١١٤٩ ،وكان عهده حافلا بالمتاعب السياسية والمصاعب الاقتصادية واضطهد الأقباط بين الحين والآخر.

(٢) Evetts , Churches and Monastries of Egypt, pp. 258 - 60

الثراء النسبي عاشت في الواحة في القرن الثاني عشر ،وحتى القرن الرابع عشر كان للبحرية أسقفها الخاص بها ولا يمكننا أن نتصور أن المسيحية انتهت فجأة حينما توقف تعيين الأساقفة بالواحة ،وليس بوسع أحد تحديد التاريخ الذى شهد تحول آخر أسرة في الواحة الى الاسلام ،ومع هذا فيمكننا القول أن ذلك تم بعد القرن السادس عشر أو حتى بعد السابع عشر .

وقد عثر على بقايا قليلة لآثار مسيحية في منطقة القصر – الباويطي ،وتوجد آثار أخرى حول منديشة ولكن أهم الآثار المسيحية توجد في الحيز وهى عبارة عن كنيسة ذات طابقين يعود تاريخها فيما يرجح الى القرن الخامس أو القرن السادس ،وهى في حالة من الصيانة أفضل من أى كنيسة أخرى في الصحراء الغربية.

ولا يمكن اعتبار العائلات المسيحية التى تعيش حاليا في البحرية أحفادا للسكان الأصليين فإن كل المسيحيين الذين نقابلهم في هذه الواحة اما موظفين ،أو تجار أو صناع وفدوا اليها من الوادى ،وكما قلت آنفا فإنه توجد عائلة في كل من القرى الأربع تعرف بين بقية الأهالى على أنها آخر عائلة تحولت الى الدين الإسلامى وقد حاولت الحصول على بعض المعلومات من هذه العائلات عن أسباب تحولهم الى الاسلام أو تاريخه بالتقريب ولكنى كنت أقابل دائما بنفس الجواب : « لقد كان ذلك منذ زمن بعيد » .

العصور الوسطى :

لفترة طويلة قبل مجئ الاسلام كانت البحرية وغيرها من الواحات في حالة من الاضطراب بسبب هجمات المغيرين المستمرة فضلا عن الفوضى التى سادت أبان السنين الاخيرة للعصر الرومانى.

لا توجد في البحرية آثار من العصر الاسلامى كما لم يعثر على آثار منقولة من القرون الأولى للاسلام ومع هذا فانه يمكننا القول أن الاسلام وجد طريقة الى واحات الصحراء ،بما فيها البحرية بطبيعة الحال ،بعد مدة قصيرة من دخول الجيوش العربية وزحفها على الساحل الافريقى الشمالى.

وكما أسلفنا في مجلد سيوة ، فان القائد العربى عمرو بن العاص فتح الاسكندرية في عام ٢١هـ (٦٤٢ م) وقبل أن يتعمق في فتح مصر طلب الاذن من الخليفة عمر بن الخطاب بارسال بعضا من رجاله تحت قيادة عقبة بن نافع في عملية استكشافية ليجمعوا معلومات عن مجريات الأمور في البحرية الى الغرب من مصر.

وقد تم فتح برقه في عام ٢٢هـ (٦٤٣م) ونعلم أن عقبة تقدم غربا صوب طرابلس في حين أرسل وحدات من جيشه الى الواحات بأعماق الصحراء ولكنا لا نعرف أي واحات . وحيثما كان يحمل الجنود المسلمون كان بعض الأهالي يعتنقون الدين الجديد وكان بعض العرب المسلمين يمكثون معهم ليعلمونهم تعاليم وقواعد العقيدة الجديدة ،وهكذا يمكننا القول ان الاسلام وجد طريقه الى البحرية تقريبا فى نفس الوقت الذى وصل فيه الى مصر الوسطى وهو الاقليم التى ارتبطت به البحرية طوال العصور.

وان حالة الانحلال التى سادت الواحات فى العصر الرومانى استمرت تحت الحكم العربى فلم يهتم أحد بتطهير الآبار القديمة فاذا ما جفت أو سدت يذل السكان ما فى وسعهم لاصلاحها اذ بدونها تجف حقولهم وحدائقهم.

ومع هذا فقد كان لابد من تأدية الضرائب وكان الحكام وجباة الضرائب لا يتورعون عن استخدام أى وسيلة لجمعها والاثراء في نفس الوقت ،في حين لم يبذل المسئولون الا جهودا ضئيلة لحماية الأهالى والواحات من اغارات المغيرين ونتيجة لذلك انخفض عدد السكان اذ اضطر الكثيرون منهم الى الهجرة الى أماكن أخرى أكثر أمنا وترتب على ذلك أن تهدمت المعابد ونهبت المقابر القديمة ،كما أهملت مساحات واسعة من الأراضى الزراعية والحدائق ، ورغم هذا فان البحرية لم تهجر تماما وكان لمن بقى فيها من السكان ما يكفيهم من الماء .

واستمرت البحرية ،كحالتها دائما ،واحدة من أهم المحطات على طرق القوافل كما استخدمتها قوافل الحجاج بين الآن والآخر في السفر من شمال افريقيا عبر مصر الى مكة المكرمة ،وكتب بعض الرحالة العرب عن هذه الواحة ولكن ملاحظاتهم كانت قصيرة بحيث لا تعطينا معلومات ذات قيمة حقيقية عن تاريخها أو اثارها أو حتى عن أهاليها (١) .

---

(١) ذكرها الأنصارى فى كتابة نخبة الدهر باسم « الواحة الوسطى » ويذكر قرية بها تدعى هنداد وهى غير معروفة في تاريخ الواحة ،وفى كتابة تقويم البلدان يذكر الجغرافى أبو الفدا البحرية باسم « الواحات الشمالية » أما ابن دقماق فى كتابة « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » فقد دعاها « واح الخاص » وقال أنها أقرب الواحات الى البهنسا وأضاف بأن خراجها كان يبلغ ثلاث عشر ألف دينار وفى مؤلفة صبح الأعشى الذى تم تأليفه مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى يشير القلقشندى الى الواحة بشئ من الحماس ويصفها بأنها أكثر الواحات سكانا وأن محصولها من التمر وفير وأن صادرتها من التمر والزيت كبيرة .

توجد قرية اسمها هنداو بالداخلة وربما تكون الداخلة هى ما يقصده الأنصارى بالواحة الوسطى (المراجع).

وخلال العصر المملوكي بذلت بعض العناية نحو الواحات مما جعلها تنعم بفترة رخاء نسبي ،فقد كانت قوافل التجار أو الحجاج تجتاز الصحراء تحت حماية حراس المماليك وكانت تعطى التسهيلات على يد السلطات المحلية التابعة لهم (١) .

وانخفضت أعداد المسيحيين – بسبب تحول بعض العائلات الى الدين الاسلامي وبسبب هجرة آخرين الى وادى النيل ، ولم تعين الكنيسة القبطية في القاهرة أساقفة للواحات بعد القرن الرابع عشر ربما لأن عدد العائلات المسيحية هناك كان قليلا جدا .

وعند ما صارت مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية ،تعرضت كل البلاد لمحنة عصيبة وتركت الواحات لكي تواجه قدرها طالما دفع أهاليها الضرائب المقررة عليهم، وقد حكمهم رؤساء العائلات الكبيرة فضلا عن القاضي ،وأحيانا ما كان يقيم بالواحات مندوب عن الوالي ليتأكد من الضرائب على السكان والقوافل .

وخلال هذه الفترة أستمرت البحرية تخضع اداريا لحاكم البهسنا الذي كان يخضع بدوره لحاكم هذا الجزء من مصر الوسطى والذى كان يضم المنيا واسيوط.

ومع مقدم القرن التاسع عشر بدأت مصر فصلا جديدا في تاريخها حينما تربع على عرشها محمد على ،لقد قام بزيارتها في هذا العهد أوربيون كثيرون راح بعضهم يستكشف الصحارى ويمكننا أن نكون صورة واضحة عن الحياة في البحرية من خلال كتابات رحالة القرن التاسع عشر هؤلاء .

رحالة القرن التاسع عشر :

شهد الربع الأول للقرن التاسع عشر نشاطا واسعا للمستكشفين الذين قاموا بزيارة الصحارى المصرية اما بحثا عن مغامرة أو لدراسة أجزاء من الشرق لا تزال مجهولة ، كان بعض هؤلاء يعملون لحساب جمعيات أوربية في حين كان البعض الآخر يعمل بمفرده ولكنهم جميعا درسوا أطلال الآثار القديمة التي كانت لا تزال قائمة ،فأمدونا بأوصاف قصيرة وفي أحيان كثيرة قاموا برسم ما رأوه ،وان لملاحظاتهم ورسومهم

---

(٢) في حفائري في القصر وجدت عددا من اللخاف عليها كتابات عربية كما عثرت على عقد زواج في الحيز وكلها من العصر المملوكي وقد أشار اليها

Adolf grohman , A Einge Arabstrakaische ostraka und Ein Ehevetraq aus der oase Bahriye Studi in Onovi di Aristidi Calderuni e rebert pairbeni, 2 Vol . 2 (1957) pp. 499 - 509.

أهمية كبرى في وقتنا الحاضر اذ ان الكثير من تلك الأطلال قد عانى من التدمير بل أن بعضها اختفى تماما .

ج بلزوني (G. Belzoni)

أن أول أوربي يكتب تقريرا عن زيارته للبحرية كان هو الرحالة الايطالي جيوفاني ب .بلزوني [1] الذى جاء مصر عام ١٨١٥ وكرس نفسه للبحث عن الآثار . ولمدة سنوات عمل في خدمة السيد سولت (Salt) القنصل البريطاني في مصر حيث عاونه في تكوين مجموعته الخاصة من الاثار المصرية . وصل بلزوني الزيو بالبحرية من الفيوم في ٢٥ مايو سنة ١٨١٨ ومكث في الواحة أحد عشر يوما . وقد سمي هذه الواحة (خطأ) واحة جوبتر - أمون (أي سيوة) ،ولكن رغم هذا الخلط فقد ترك لنا وصفا للبحرية واشار الي الآثار التي رآها بها .

وكانت أول قرية يزورها هي الزبو حيث يذكر بقايا مدينة قديمة الى الشرق منها ، وهذه هي القرية الرومانية بقصر محاريب وقد أشار كذلك الي المقابر الصخرية بالقرب من منديشة وبناء من طوب اللبن قرب الزبو وتوابيت فخارية على هيئة رجال ونساء وكباش وكلها تحتوى على مومياوات ،وأشار الي أطلال أخرى ومقابر بالقرب من الزبو ومنديشة ، ثم انتقل الي القصر والباويطي حيث شاهد قوس النصر الذى كان لا يزال واقفا في أيامه ،وقد ضلله هذا المبنى اذ ظنه معبد الوحي الذى زاره الاسكندر الاكبر .وقد قام كذلك بزيارة الحيز وأشار الي بقايا قرية قديمة كما أورد وصفا للكنيسة القبطية وجد ران بناء بناء قريب منها ، وبينما هو هناك في الخامس من يونيو اشترى قطعتين أثريتين عرضنا عليه وهما عبارة عن زهرية برونزية مكسورة ارتفاعها ٢٠ سم وتمثال ، ملاك صغير اغريقى الصنع ، ،ولا ترقي أوصاف بلزوني للآثار وتعليقاته عليها الى مستوى أوصاف وتعليقات الرحالة الآخرين ، ورغم هذا القصور فاننا نحمد فيه كتابته وروحه المقدامة ،فإن رحلته وإقامته بالواحة البحرية ليست بالأمر الهين ،إذ يخبرنا أنه حينما كان بالواحة لاحظ اختفاء مذكراته التى جمعها يوميا بعناية ،وأخيرا اكتشف السر ، لقد اعتقد الاهالي أنه كان ساحرا وأن

---

(1) G.B.BBelzoni, Narrative of operations and Recent Discoveries within the pyramids and Excavations in Egypt and Nubia ; and of a Journey to the coast of the Red Sea in Search of the Ancient Berenice , and another to the oasis of Jupiter Ammon (London, 1820), pp. 377 - 437.

الكتابات غير المقروءة التى كان يكتبها حافلة بالقوى السحرية وراح خادمة يبيع المذكرات الى النسوة اللائى كن يحضرن الى البيت في غيبته ،وتشفيهن من المرض وتضمن لهن قلوب الرجال وتعاونهن في التغلب على منافساتهن .

فريدريك كايو (Frederic Cailliaud)

بعد عام ونصف من زيارة بلزوني وفي فاتح يناير سنة ١٨٢٠ قام بزيارة البحرية فريدريك كايو خبير المعادن والمستكشف والشغوف بالآثار وخلف لنا أهم وصف لهذه الواحة عامة ولآثارها خاصة ،ولا شك أن مؤلفه عن كافة الواحات هو أهم مؤلف كتب في القرن التاسع عشر (١) . كان في طريقه في سيوة الى الفرافرة ،وخلال زيارته للبحرية التى استمرت لمدة ستة أسابيع فحص بعض ملامحها ورسم خرائطها ووصف آثارها وعيونها وقنواتها القديمة ،ولاحظ وجود صخور بركانية . والآثار التى وصفها كايو بالقرب من الزبو ومنديشة هي الاطلال التى تسمى الآن قصور محارب والتى عرفت حينذاك باسم قصر نصراني ،ويذكر ثلاثة مباني أكبر من الأخريات ويشير الى مقابر صخرية جنوب غرب الزبو وبقايا معبد حجري صغير في المعيصرة وقد لاحظ أن بيوتا جديدة في منديشة والعجوز أقيمت فوق مساكن قديمة .

وفي القصر قام بزيارة قوس النصر وأعطى وصفا لبنيته (أنظر ص ١٨٣– ٥) وأعطى رسومه ،كما أشار الى الحروف اليونانية التى سبق أن لاحظها بلزوني على أحجار الجدار ولكن كايو اعتقد أنها علامات وضعها البناء ولتحديد مكان كل حجر في المبنى وأشار كذلك الى بقايا أثرحجرى صغير بالقرب من المنزل الحالي للعمدة .

وفي طريقه الى واحة الفرافرة توقف كايو في الحيز حيث زار أربعة أماكن : أولها القرية القبطية التي دعاها « أقصر » وثانيها كنيسة قبطية وصفها باسهاب وأعطى رسمها وثالثها مكان على مسافة ٦٢٠ مترا جنوبي الكنيسة وفيه بقايا قصر روماني ومنازل قريبة منه ،ورابع الأماكن يقع الحي الجنوبي من القصر وفيه صخرية وأطلال منازل قديمة ،وكل هذه الآثار لا تزال قائمة في مواقعها وسنتناولها بالحديث فيما بعد .

---

(١) Frederic Cailliau, Voyage à Meroè, au Fleuve Blanc, au-dela du Fazgol dans Le midi du Royaume de Senna, à Syouah et dans Cinq autres oasis (Paris, 1826) .

ويقع الكتاب في أربعة أجزاء وأطلس من جزء ،أما الخطط والرسوم فهي من عمل رفيقه الرسام ليتورزيك ،والجزء الخاص بالبحرية يقع في الجزء الأول ص١٤٤–١٩٤ .

هيد وباكو (Hyde and Pacho)

يقول كايو أنه حينما كان في البحرية قابل رحالة انجليزى يدعى هايد ،وقد زار هذا الأخير الواحات الأخرى وترك اسمه على كثير من آثار الخارجة والداخلة ولكنه لم ينشر مذكراته .

ومن الطريق التى سلكها في رحلاته تعرف أن باكو الرحالة الشهيرة قام بزيارة البحرية في شتاء ١٨٢٣-١٨٢٤ ولكنا لا نجد شيئا عن زيارته تلك في الكتاب الذى ألفه(١) .

ج ولكنسون (G . Wilknson)

زار عالم المصريات الشهير سير جارونر ولكنسون البحرية في عام ١٨٢٥ وضمن مذكراته عنها فى دليله الذى طبعه فيما بعد (٢) ويعالج الفصل الذى كتبه عن الواحات أساسا طرق القوافل ووصفه للآثار موجز اذ لا يقع في أكثر من صفحة واحدة وفيما يتعلق بالبحرية أشار فقط الى بقايا قليلة قريبة من الزبو ومقابر صخرية وقوس النصر في القصر ،وأعطى وصفا لحصن قصر علام بالقرب من القصر باعتباره بقايا قليلة الأهمية من الطوب ،وأورد ذكر الكنيسة القبطية بالحيز بالاضافة الى الاطلال الواقعة على مسافة ٦٠٠ مترا الى الجنوب الغربي منها .

ومن سؤ الطالع أن ولنكسون لم ينشر معلومات اكثر من رحلته إذ أنه من الرعيل الأول لعلماء المصريات وكان لديه المام واسع بالحضارة المصرية القديمة وكتاب Manners andCustoms of the Ancient Egyptians لا يمكن التقليل من قيمته رغم مرور أكثر من مائة وثلاثين عاما على تأليفه.

فيرشو

زار فيرشو الواحة لبحرية في عام ١٨٧٦ ويذكر في تقريره عن رحلته أنه دخل ،حجرات تحت الأرض ، حيث كانت توجد توابيت كثيره من الفخار وعدد من الجرار(٢) ،ولا يورد ذكرا لأى آثار أخرى.

---

(١) Jean Raymond Pacho, Relatian d,un voyage dans Le Maranque, Le Cyrenaique et Les oasis d,Audelah et de Maradeh (paris, 1827).

(2) G . Wilknson , Moern Egypt and Thebes (London 1835). 2 vols.

(٢) نشر فيرشر مذكراته Sitzungberichte der Ber;iner anthropologische Gesellisschaft 1876, pp. 171 - 2 تحت عنوان " Gesellsschaft aus der kline oase "

أشرسون (Ascherson)

في نفس العام أنفق أشرسون ،عالم النباتات وعضو بعثه رولفس الشهيرة ،ثلاثة أشهر في البحرية ،والى جانب أبحاثه عن نباتات الواحة فإننا مدينيين له بأفضل خريطة رسمت للبحرية حتى ذلك الوقت وبمعلومات قيمة عن الآثار تركها لنا ،فقد زار كل المواقع التي ذكرها كايو ولاحظ وجود مواقع جديدة كما حل على قطع أثرية حملها معه الي برلين ،وقد أعطى مذكراته عن الآثار الى عالم المصريات لبسيوس(١) الذى نشرها في نفس العام مع تعليقاته عليها ،أما تقرير أشرسون نفسه فلم ينشر الا عام ١٨٨٥ (٢) ،وقد تضمنت مذكراته نقطتين على جانب كبير من الأهمية أولاهما اشارته الى مقصورة صغيرة بالقصر كانت تحتوى على نص في سقفها ،وهذه هي مقصورة واح أيب رع)(ابريس) التي زارها شتيندروف عام ١٩٠٠ ولا تزال قائمة في مكانها حتى وقتنا الحاضر وثانيهما كشفه عن لوحة بها نص بجوار العيون ألمحنا اليها في الفصل السابق .

ج.شتيندروف (G .steindorff)

قضى عالم المصريات الالماني جورج شتيندروف خمسة أيام في البحرية أبان شهر يناير سنة ١٩٠١ بينما هو في طريقه من واحة سيوة الي الفيوم ،وفي هذه الفترة القصيرة تمكن من زيارة مقصورة واح ايب رع التي اكتشفها اشرسون ونسخ النص المنقوش على سقفها

كما أجرى حفائر محدوده بالقرب من عين المفتله وكشف عن جدار لاحدى مقاصير الملك أحمس الثاني من الأسره السادسه والعشرين ، وهو أول من أشار الى مقبره أمنحتب في قاره حلوه بالقرب من القصر وأول من لاحظ وجود تمثال ألبستر مغطى بالكتابه الهيروغليفية كان قد وجد أمام أحد منازل القصر ، وينتسب لحاكم البحريه في عصر الأسرة السادسه والعشرين المدعو جد – خونسو – فـ – عنخ – ، وقد أعدت الكشف عن هذا التمثال عام ١٩٣٨ ، وقد نشر صورا لبعض الآثار التي زارها في تقاريره (١) ، وقد أظهرت تقارير شيندورف أهميه البحريه ، ومع هذا فمن الغريب أن أحدا من علماء المصريات لم يشد اليها الرجال لاجراء المزيد من الأبحاث.

---

(١) Lepsuis ZAS (1876) , p . 160

وقد نشر ملخصا لهذه النتائج Schwerinfurthe , petermann ,s Mitteilungen

p . 264 Geograpische Nachichteu aus Kairo , p.8

(٢) Aschersen , Zeitschrift der Gesellschaft fur Erdkunde

zu Berlin , Vol . 20 book 11 , 1885 and in Globus 30 , 75 .

بول وبدينل (Ball and Beadnell)

بدأت الأبحاث الجيولوجيه في الصحراء الليبية عام ١٨٩٧ حينما أوفدت مصلحه المسح الجيولوجي المصرية بعثتين الى البحريه أحداهما تحت رئاسه جون بول والأخرى تحت رئاسه هيوبيدنل وقد نشرت نتائج أبحاثهما في كتابهما الذى ظهر عام ١٩٠٣ ، ويعطينا هذان العالمان موجزا وافيا لكل ما نشر عن آثار الواحه بكل أبحاثهما بما في ذلك أعمال بلوزني ، كابو ، أشرسون وشتيندورف ، ويشيران الى كل المواقع الآثريه التى كانت معروفه قبلها والى مواقع جديده عثرا عليها أثناء اجراء أبحاثهما .

بعد نشر كتاب بول وبيدنل لم يكتب شئ آخر ذو قيمه تذكر عن آثار البحريه ، فيما عدا مقال كتبه ، بيرتون بكلى (A. Burton Buckiy) مفتش الرى في الحكومه المصريه الذى زار الواحه عام ١٩٠٨ ودخل مقبره في الباويطى ، وقد كتب عن اكتشافه وأعطى وصفا للمقبره ورسما لتصميمها (٢) ، والواقع أنه توجد مقبرتان ، وليس مقبره .

واحده ، وقد نظفتهما في عامي ١٩٨٣ ، ١٩٣٩ وكلتاهما تعودان الى عصر الاسره السادسه والعشرين .

وفيما بين ١٩٤٥ ، ١٩٦٢ نشرت بضع كتب بالعربيه عن الواحات ، وتضمنت بعضها فصولا عن البحريه ، ولكن هذه الكتب تعالج أساسا المشاريع الزراعيه الجديده التى تم تنفيذها هناك وتشير من بعيد الى بعض عادات الواحين وتقاليدهم، وأحيانا تعطى بعض الكتب خلفيه تاريخيه ولكنها تعتمد على ماكتبه بول وبيدنل في تقريرهما الجيولوجي وحتى هذه الخلفيه لا تسلم من الأخطاء الناتجه عن سوء الفهم .

وأكثر الكتاب نشاطا هم عبد اللطيف واكد وهو موظف سابق في وزاره الزراعه عمل سنين عديده في مختلف الواحات وفي مريوط ، ورفعت الجوهرى وهو أحد كبار ضباط مصلحه الحدود لعدد من السنين .

---

(١) نشر ستيذروف مقاله الاولى في konigl . Sachs . Gescilschaft der تحت عنوان
vorlaufiger Berricht tiber tber seine Wissenchaft Zu leipzig ,
1900,p.266
in Winter 1899 -1900 nach der Oase Siwa und nach Nubien
وتوجد تفصيلات اكثر وصور في كتابه Unteremmonen Reise
Amonsoase .., pp.135-141

(٢) A Burton Buckly , „ A phraonic tomb at the Necropoolis of Bawiti at Bahria في of ASAE 9,259-266
وفي عام ١٩٢٥ كتب مرقص سيدا روس بعنوان له A L,Oasis de Bahrieh في ،Congress International de GEOGRAPHIE (Cairo ,Appril,1925) ولكنه لا يضيف جديدا عن الآثار وإن كان يتضمن صورتين عن كنيسة الحيز.

الفصل الرابع
آثار البحريه

عاصمة البحريه في العصور الفرعونيه :

كان يوجد بالبحريه مدينتان رئيسيتان طوال العصور القديمه ، احداهما في المكان الذى تشغله الآن القصر / الباويطى بينما كانت الأخرى تقع على حوالى خمسه أميال الى الشرق ومكانها الحالى تشغله قريبا منديشه والزيو ، وكانت بعض القرى تتناثر حول المدينتين بالقرب من العيون والآبار.

كانت العاصمة في العصور القديمة ، كما هو الحال اليوم ، في مكان مدينة القصر تتحلق حول المعبد الكبير التى لاتزال اطلاله قائمة حتى الآن ، أما الجبانات فكانت في المنطقة التى تشغلها الباويطى الآن والأكمات المجاورة ، أما المكان الذى تشغله منديشه في الوقت الحاضر فكان ذا أهمية ثانوية .

وحتى الآن لم يعثر على آثار من العصور الفرعونيه في أى من منديشه أو الزيو ، وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد حفرت آبار واستزرعت أراض جديده ، وبقايا القرى والمعابد الصغيره والمقابر الصخريه والجبانات التى توجد في هذه المنطقه كلها تعود الى ما بعد القرن الأول الأول الميلادى ، أما منطقه الحيز الواقعه على مسافه حوالى سبعه وأربعين كيلومترا جنوبى القصر ، فقد شهدت فتره أزدهار ورخاء خلال القرنين الاولين للميلاد .

ويمكن تقسيم المواقع القديمه في هذه الواحه الى المجموعات التاليه :

(١) القصر ، (٢) الباويطى ، (٣) مواقع الى الغرب من القصر ، (٤) مواقع بين الباويطى ،منديشه ، (٥) مواقع شرقى منديشه والزيو ، (٦) الحاره ، (٧) الحيز.

(١) القصـــر :

كانت العاصمه القديمه للواحه تقع فى نفس المكتن الذى تشغله قريه القصر فى الوقت الواهن ، وكان مركزه المدينه القديمه بالقرب من مكان المنزل الحالي لعمده القصر حيث يمكننا أن نجد الآن بقايا احد الجدران الضخمه لمعبد قديم من عصر الاسره السادسه والعشرين والمقصوره الحجريه ذات النقوش من عهد الملك واح أيب رع ، وهذا الجزء من القريه أعلى من المنطقه المحيطه وفى ظنى أنه يمكن العثور على آثار فيه اذا أجريت فيه حفائر منتظمه



(شكل ١٩) بقايا جدار حجرى من معبد الاسره السادسه والعشرين بين منازل القصر

وبالقرب من هذا المكان يوجد قوس النصر الرومانى (أنظر بعد) ويمكن مشاهده بعض بقاياه داخل أحد المنازل ، فان احجارا من المباني القديمة استخدمت فى اقامة جدران المساكن الحاضرة وبين منازل القرية لا يزال يرى الجزء الأكبر من تمثال لأبو الهول عليه نقوش هيروغليفية وقاعدة ضخمة عليها نص يوناني وعدد من الأحجار الكبيرة ، أما تمثال الألبستر الذى لاحظ شتيندروف وجوده فى أحد شوارع القصر عام ١٩٠٠ والمحفوظ حاليا فى متحف القاهرة فهو ينتسب لجدار خونسو - أف - عنخ حاكم البحرية فى عهد الملك أحمس الثانى (٥٦٨- ٥٢٦ ق.م) أعظم البناة بعبادة

في تاريخ الواحة ، وقد مثل صاحبه جالسا القرفصاء ملفوفا بعباءة ، أما الوجه والنصف الأمامي من الرأس فقد تهشما ، وقد صورت أشكال الآلهه على الجزء المتبقي من الرأس ، أما الجسم فهو مغطي بنص في حالة جيدة بعدد أهم ألقابه . وكحاكم للواحة فانه كان يتقلد في نفس الوقت كل المناصب الكهنوتية الهامة فقد كان هو «الكاهن الثاني» للإله آمون ، أحد المناصب المهمة في مصر القديمة كما كان كاهنا لمعظم الآلهه في الرئيسية في ذلك العصر . وفي أحد منازل القصر وجد كذلك الجزء الاسفل من تمثال ألبستر كان بدون شك للملك أحمس الثاني ، وقد مثل جالسا على كرسي بينما صور حاكم البحرية راكعا متعبدا على الجانبين وقد نقشت أمامه أهم ألقابه . وهذا الأثر محفوظ في متحف القاهرة .

ومقصورة واح ايب رع وهي الجزء المتبقي من مبنى أكبر لم تترك يد الزمن منه الا حجرة واحدة وأبعادها هي ٧,٠٨م في الطول و٢,٤٠م في العرض و٣,٥٠م في الارتفاع ، ويتألف سقفها من ست كتل حجرية وجدرانها غفل من النقوش إذ أن النقش الوحيد بها يوجد على السقف وهو عبارة عن سطر طويل من الكتابه وسطرين قصيرين يبدو أنهما أضيفا في وقت لاحق .

وتعطي النصوص اسم الملك واح ايب رع وتذكر أن هذا الأثر أقيم من أجل الهين هما :

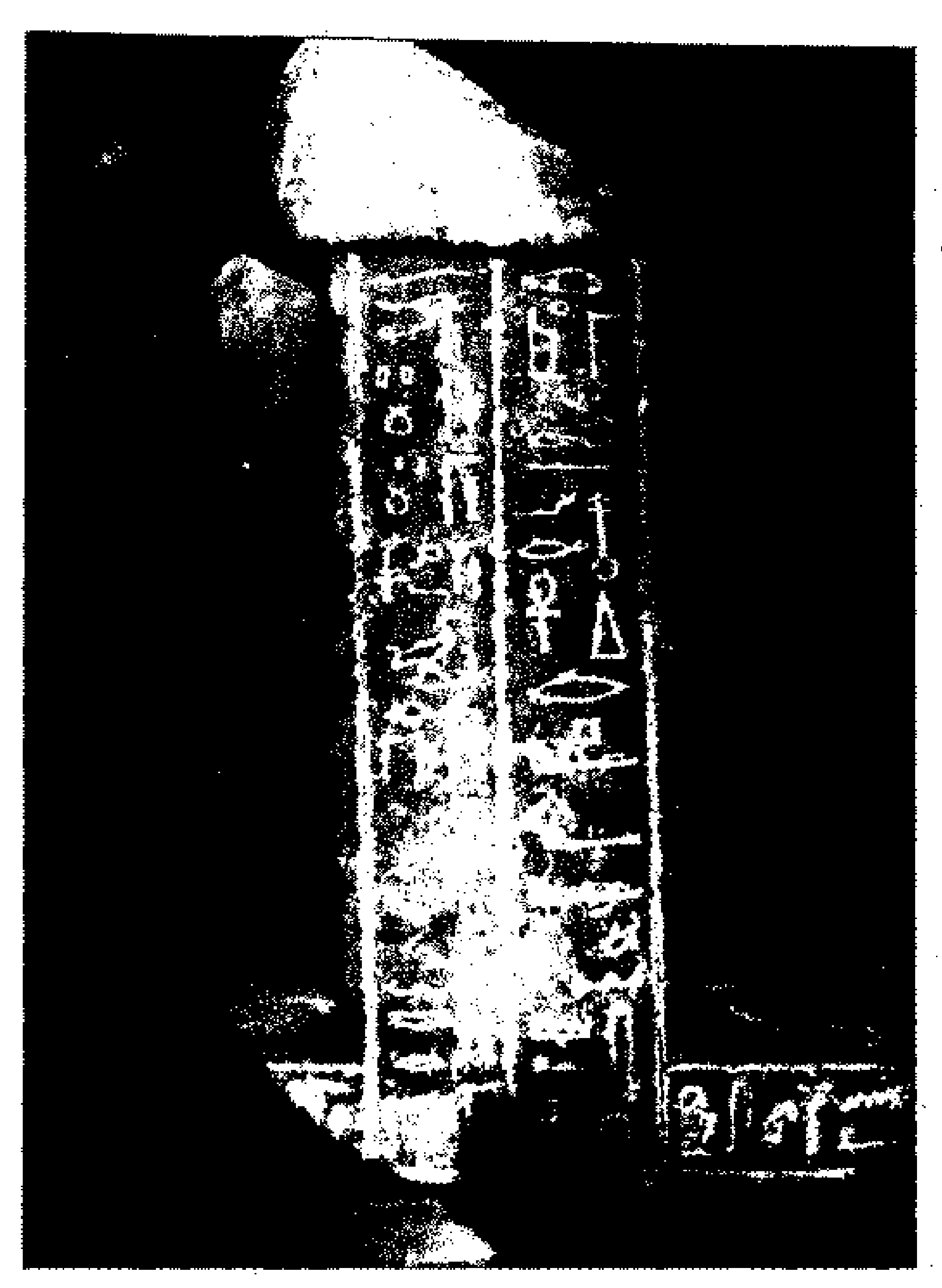
« أمون رع رب التل العظيم » وهذا لقب غير معروف للإله أمون ولم يوجد الا في هذه الواحة وقد ظهر هذا اللقب كذلك على تمثال من الحجر الجيري للالهه باستت عثر عليه في المقصورة الأولى بعين المفتلة وكان صاحبها كاهنا لهذا الاله الذي وصف بأنه « الاله العظيم في زسزس (البحرية) » والاله الآخر الذي أقيم من أجله هذا الأثر هو خونسو » .

ونعرف اسما الرجلين المسئولين عن بناء المقصوره ، فالأول هو «واح ايب رع نفر» ابن « ايرنخت » والكاهن الثاني للاله خونسو ، والثاني هو جد - خونسو -إف - عنخ » ابن « بالديس » والسيدة « نعس » وكان باديسي أشهر حكام هذه الواحه وأنشط بناء معابدها ، ويوجد سطران قصيران على الجانبين يذكران اسم جد - خونسو - ف-عنخ وحده (شكل ٢٠) (١)

---

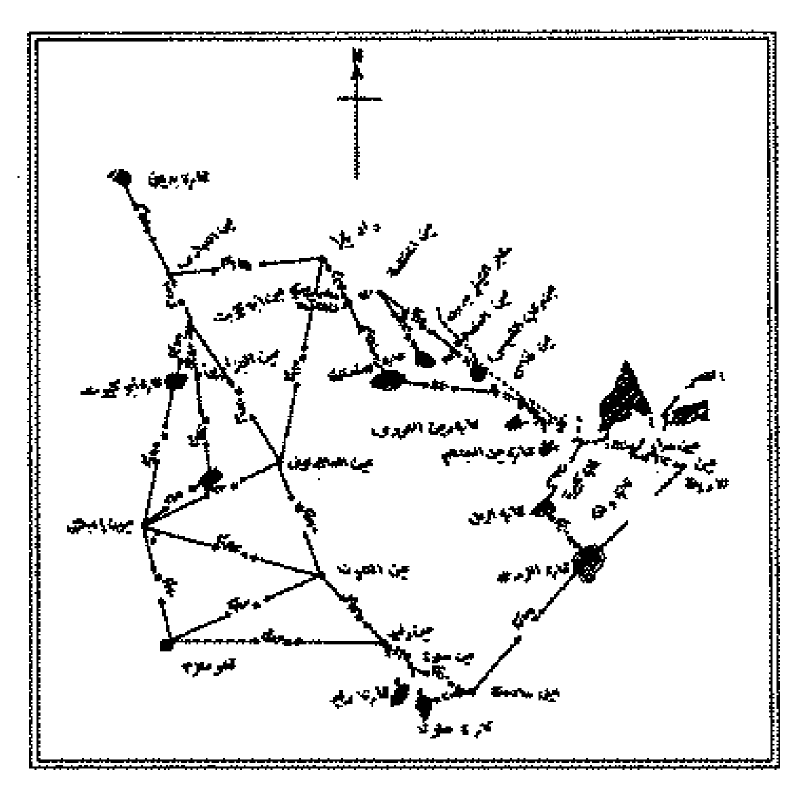
(١) من أجل وصف كامل لهذا الأثر أنظر للمؤلف
Die kapelle aus der zeit des Apries INDER Oase Bahria
Archiv . fur Aegyptische Archaelogie (April , 1938) ,
pp.97- 100

وانظر للمؤلف كذلك Bahria , I , pp . 1-5



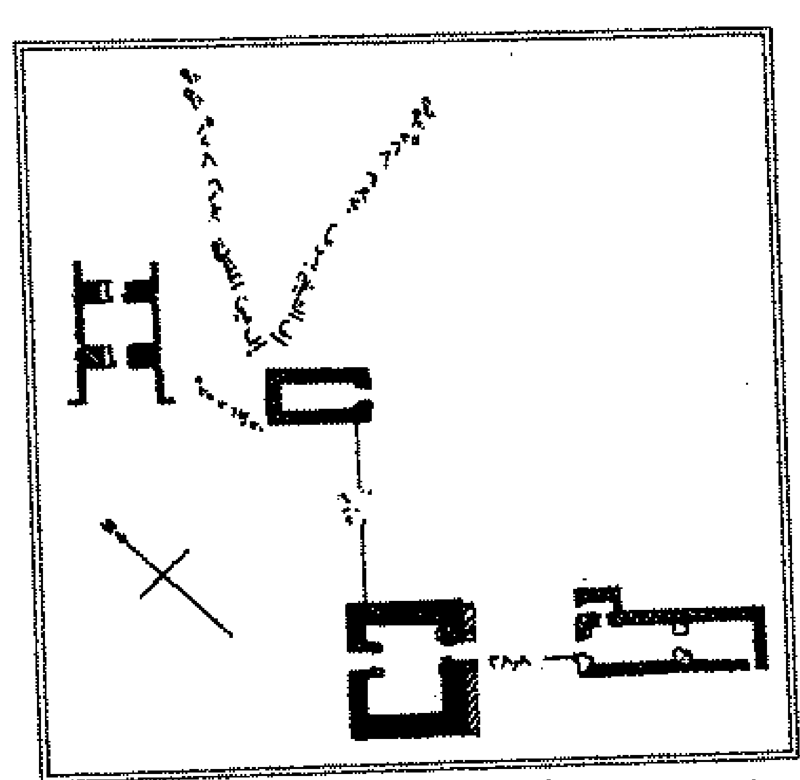
(شكل ٢٠) منظر لظهر تمثال الأبستو لحاكم الواحة البحرية أثناء حكم أحمس الثاني من الأسرة السادسة والعشرين

وقد امتدت العاصمة القديمة لتغطي المنطقة الواقعة بين المعبد وعين المفتلة ، ثلاث كيلومترات غربي القصر . ويمكن رؤية بقايا منازل وكسر فخار في كل مكان ، وقرب العين ذاتها توجد مساحة كبيرة مغطاة بكسر الحجر الجيري (شكل ٢١) ، وهذا هو المكان الذي اكتشف فيه شتيندروف جدار أحدى المقاصير وعليه اسم الملك أحمس الثاني واسم جد – خونسو – اف – عنخ واسم أخيه . وقد أتممت الكشف عن هذه المقصورة في موسمي عامي ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ووجدت بالقرب منها ثلاث مقاصير أخرى (شكل ٢٢) . وقد ضاعت الاجزاء العليا لجدران المقاصير الأربع ولكن ما تبقى منها يحمل أشكالا للالهه ومناظر دينية ، ويرى لملك أحمس وخلفه الحاكم يقدمان القرابين للآلهه (شكل ٢٣) وفي المقصورة الأولى وجدت تمثالا من الحجر الجيري للالهه باستت وتمثالا صغيرا من البرونز لملك راكع (ربما كان أحمس الثاني وزهرية برونزية جميلة ، وكان كلا الأثرين البرونزين مغطيين بقشرة ذهب لا تزال أجزاء منها باقية (شكل ٢٤) .



(شكل ٢١) المواقع الأثرية غربي القصر

وتتشابه المقاصير الثلاث طريقة أو بأخرى في ترتيب الأشكال المصورة بها (شكل ٢٢) وان كانت المقصورة الثالثة مختلفة . فعلى الأجزاء المتبقية من جدرانها نرى في الصف الأعلى (٨٣) الأجزاء السفلى لصورة كبيرة للاله «بس» ، والواقع أننا لا نرى الا رجلي وذيل الاله . وعادة ما صور الاله « بس » كقزم ذى رأس ضخم ولبد وذيل أسد ، ويرجح أنه كان الها أجنبيا قدمت عبادته الى مصر من الشرق وكان مرتبطا « بأرض الاله » (الجزيرة العربية) وببونت أى المنطقة المحيطة بمضيق باب المندب جنوبى البحر الأحمر والتى تضم الاراضى الواقعة على جانبيه الأسيوى والافريقى ، أى جنوبى الجزيرة العربية والصومال .



(شكل ٢٢) المقاصير الأربع من عهد أحمس الثانى بالقرب من عين المفتلة

ومنذ الأسرة الثامنة عشرة لعب هذا الاله دورا بارزا فى حياة الموسيقيين وبصفة عامة كانت صورته تعد تميمة تجلب السعادة والسرور ، وكانت صوره هى الزينة المفضلة على الأسرة وأدوات زينة المرأة كما كانت توشم بها أفخاذ الراقصات فى

عصر الأسرة التاسعة عشرة ، ونعرف عن مثل هذا الوشم من صور المقابر والتماثيل الصغيرة وصور جدران المنازل الخاصة [١] (شكل ٢٥) .



(شكل ٢٣) الملك أحمس الثاني يقدم القرابين لصف من الالهة يتقدمهم أوزوريس وايزيس المقصورة الأولى في عين المفتلة .

ورغم أن عبادة الاله بس كانت منتشرة بين طبقات الشعب الوسطى ورغم أن تمائمه كانت تستخدم كتعويذات مفضلة الا ان معابده نادرة ، وأهمها المعبد الذى وجده كويبل فى سقارة والذى يعود تاريخه ، فيما يرجح ، الى العصر البطلمى .

وفى مقصورة البحرية هذه نرى بس مصورا على كل الجدران ، وصوره تمتد ارتفاعا حتى السقف ، ومن الواضح أن جد - خونسو - اف - عنخ أقامها كمكان عباده لهذا الاله ، ومن بين المناظر المتبقية نشاهد سيقان سبع نساء واقفات أمام بس ، ولا شك أنهن كن موسيقات يعزفن على آلاتهن .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاله وعن الكتب والمقالات التى تتعلق به أنظر :
A . Fakhry , Bahria I , p. 1655 ff . وعلى أى حال فإن أصل وعبادة هذا الاله فى حاجة الى مزيد من الدراسة .

ولم يفرغ العمل بعد في موقع عين المفتلة ولا تزال مباني من اللبن والحجر تنتظر معول الأثري ، وفي رأيي أن هذا الموقع تأسس كحي جديد ابان عصر الأسر السادسة والعشرين . وفي عصر الدولة الحديثة كان يوجد معبد قديم في وسط المدينة القديمة وأنه جدد وأزيد فيه خلال عصر الأسرة السادسة والعشرين وخلال هذا العصر الذهبي من تاريخ الواحة أسس حي جديد ولن يدهشنا العثور بالقرب من هذه العين الخلابة على أطلال منازل كبيرة لحكام البحرية الأثرياء في ذلك الوقت .

مقبرة أمنحتب حاكم البحرية :

احتلت جبانة العاصمة القديمة الأكمات المحيطة بها وأقدم مقبرة بها نقوش عثر عليها في البحرية يمكن مشاهدتها بقارة حلوة ، على بعد حوالى ثلاثة كيلو مترات جنوبي قرية القصر . هذه هي مقبرة أمنحتب حاكم البحرية الذى سبق أن أشرت اليه أكثر من مرة ، ويعود تايخها ال يما بين النصف الثاني للأسرة الثامنة عشرة والنصف الأول للزسرة التاسعة عشرة ، وهي مقطوعة في صخر التل (شكل ٣٧) ورغم ومجود مقابر أخرى في نفس المكان فإنها هي الوحيدة التي تحتوى على نقوش وفي السنوات القريبة تعرضت مناظر جدرانها للتخريب حتى أن بعض الأجزاء التي صورتها ونشرتها من ثلاثين سنة مضت قد ضاعت .



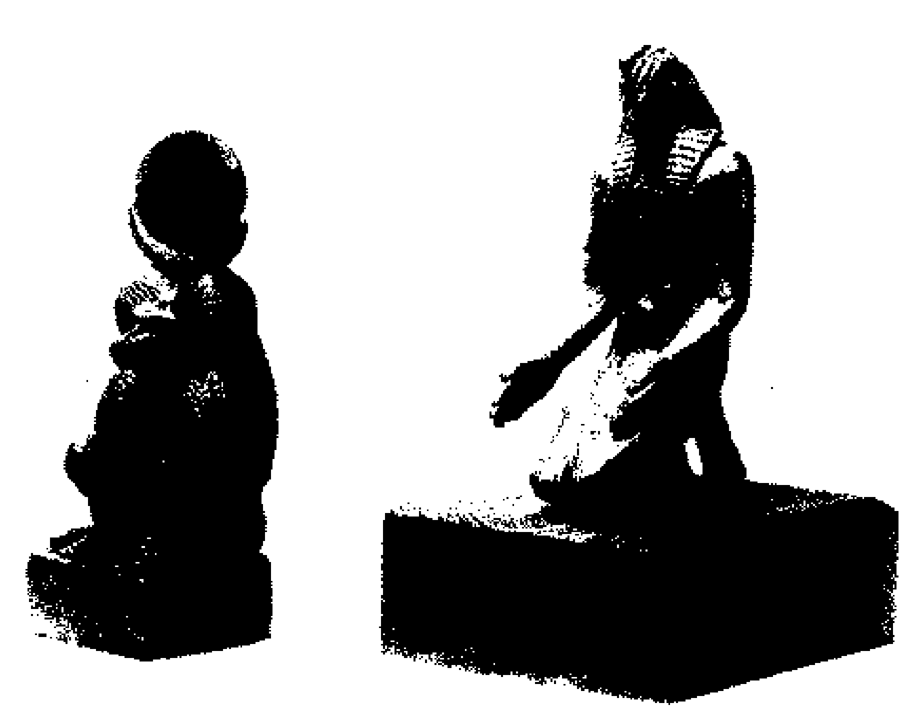
(شكل ٢٤) أحمس الثاني يتعبد وخلفه حاكم الواحة ممسكا بمبخرة

والمقبرة المنحوتة في الحجر الرملي في قمة التل تتجه ناحية الشرق وتتكون من فناء ، وقد سقط السقف والأعمدة كما ضاع الجزء الأكبر من الجدران المنقوشة للحجرة الأولى ، وتوجد حجرتان صغيرتان للدفن محفورتان في الصخر في الجنوبي للحجرة الثانية .

في الفناء يصور منظر مهشم صاحب المقبرة جالسا على مقعد (شكل ٢٨) يشرف على الخدم وهم يملأون الجرار بالنبيذ ويخزنونها ، ويوجد كذلك منظر مأدبة مهشم وفيه نرى أمنحتب جالسا على كرسي بينما زوجته ، أورلي ، على حصير عند قدميه .



(شكل ٢٥) صف من الآلهه آخرهم ، حا ، رب الصحراء

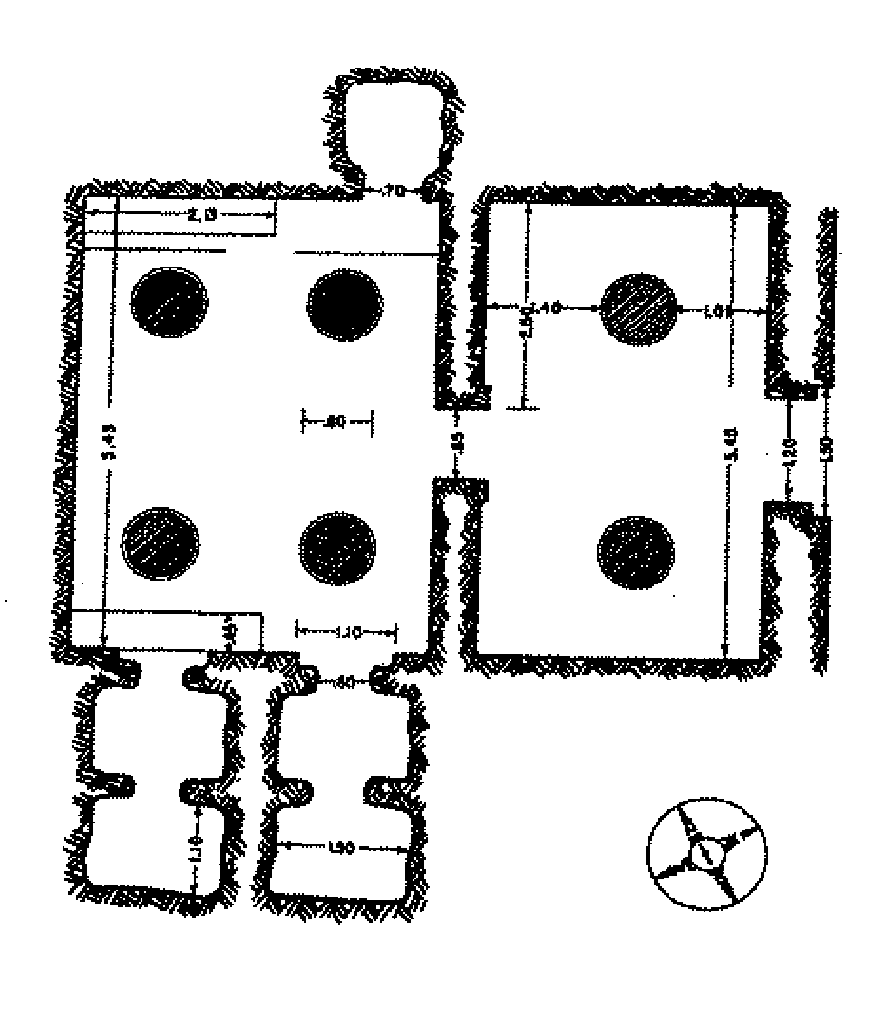


(شكل ٢٦) تمثالان صغيران من البرونز عثر عليهما في المقصورة الأولى أحدهما للاله تحوت والثاني يرجح أنه لأحمس الثاني ، وكلا التمثالين كانا مكسوين بقشرة ذهب

وتظهر بقايا منظر جنازى على الجدار الشمالي ، ففي الجانب الأيمن للصف الأعلى يبين جزء من هذا المنظر أنه كا ن يوجد هريم فوق مدخل المقبرة ، وفي عام ١٩٠٠ كان المنظر أفضل حالا مما هو عليه الآن وترينا الصور التي التقطتها شتيندروف منظر نقل المومياء الى القبر حيث تجر أربع بقرات الزحافة الجنازية بينما راح عجل يمرح أمامها .

وعلى الجدار الشرقي للحجرة المكانية صور صاحب المقبرة يشرف على تعبئة الأكياس بالحبوب والجرار بالنبيذ ، وتفصيلات المنظر الدقيقة على جانب من الأهمية كما أن حركات العمال الذين يكيلون القمح أو يغلقون الأكياس حافلة بالحيوية .

وعلى الجدار الشمالي ، في الصف الأعلى ، نشاهد أمنحتب وزوجته راكعين في تعبد للالهه حاتحور المصورة على هيئة بقرة خارجة من جانب تل ، وعلى منحدر التل صورت أعواد البردى ، وأمام حاتحور توجد مائدة قرابين . وتصورمناظر أخرى على نفس الجدار امنحتب وزوجته يتعبدان ويقدمان قرابين لإله برأس ابن أوى وإله أخر داخل مقصورة قابض على سكين ولم يمكن التعرف عليه .



(شكل ٢٧) خطة مقبرة أمنحتب حاكم البحرية فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة وبداية الأسرة التاسعة عشرة ، بقارة حلوة

ورغم سنين من التعرض لعوامل التعرية الجوية والتدمير فإن العديد من مناظر المقبرة لا تزال تحتفظ ببعض ألوانها الأصلية .

وفى أكثر مكان يذكر أمنحتب أنه كان مواطنا من أهل الواحة ، ولكنى أشك كثيرا فى أن البحرية كانت قد وصلت حينذاك الى مرحلة من التقدم وتسمح بوجود عمال مهرة قادرين على بناء مثل هذه المقبرة ويحتمل أنهم أتوا من وادى النيل.

وعلى قمة الأكمة ، وليس ببعيد عن هذه المقبرة ، نجد مقبرة أخرى مبنية من اللبن وجدرانها مكسوة بطبقة من الجص وكانت عليها مناظر مصورة الا أن شيئا لم يبق منها ولا شك فى أن هذه الأكمة وكل المنطقة المحيطة بحاجة الى أبحاث أثرية ، ومن المحتمل جدا العثور على جبانة ، أو جبانات ، من عصر الدولة الحديثة .

قوس النصر بالقصر :

كان هذاالأثر في حالة بأس بها حتى منتصف القرن الماضى ولكنه قد تهدم الآن وأخذت أحجاره لتستخدم فى بناء بعض المنازل (شكل ٣٠) ، ولا تزال بقاياه فى مكانها ولكنها لا توضح كيفية مظهره الأصلى (شكل ٣١) ، وقد وصفه كل من بلزونى وكايو وولكنسون ولكن خيروصف له ما كتبه هوسكنز(Hoskins) الذى زار البحرية عام ١٨٣٥ ، هناك ما كتبه عنه :

وأكثر آثار الواحة جلالا هو قوس النصر الذى يرجع الى العصر الرومانى بالتأكيد ، وهو يقوم على منصة ارتفاعها ١٢٨ قدما تتكون من كسر الحجر المكومة بلا ترتيب في الاسمنت ، ويحيط به جدار سمكه سبعة أقدام مبنى من أحجار مرتبة طولا وعرضا ، ويبلغ طول الأحجار ثلاثة أمثال عرضها بحيث يغطى حجر واحد موضوع بالطول ثلاثة أحجار أسفله موضوعة بالعرض ، أما الكورنيش الذى كان يمتد ليحيط بالمنصة فهو من نمط جيد ويعلوه افريز من مخدد ثلاثى به سلسله من النتوءات الصغيرة المثلثة الشكل تحت الإفريز(triglyphs) والدنطيل (DENILS) ويعلوه نوع من العلية (attic) بكورنيش ارتفاعه ثلاثة أقدام مما كون حاجزا يحيط بالمنصة ، وهذه الأخيرة مكشوفة من جوانب ثلاثة أما الجانب الرابع فان أرضية قرية القصر كانت ولا تزال في نفس مستواه . وتتجه الواجهة الرئيسية صوب الشمال .

وقوس النصر الذى يقف في وسط الواجهة الشمالية للمنصة يبلغ ٢٥ قدما طولا ، ولم يبق منه حاليا الا العقد الأوسط ومنه يهبط درج الى أسفل . وقد زخرفت واجهاته بزخارف جصية وعلى كل جانب من جانبى العقد توجد كوة بها أعمدة صغيرة وثمة درج يؤدى الى سطيحة (terrace) ذات مدخل يقع تحت العقد ، وتوجد آثار حروف يونانية على الجدران اعتقد بلزونى أنها بقايا نص في حين افترض كايو أنها عبارة عن علامات ساعدت العمال على تحديد أماكن وضع أحجار البناء (١) .

---

(١) G.A Hoskins, Visit to the Great Oasis of the Libyan Desert , (London) pp. 225 - 7



(شكل ٢٨) أمنحتب يشرف على عمليات تخزين الحبوب وجرار النبيذ



(شكل ٢٩) بقايا منظر لاتباع يحملون القرابين



(شكل ٣٠) قوس النصر الروماني في قرية القصر كما كان عام ١٨٢٠ وقبل تخريبه
عن Cailliaud, Atlas II , Pl . XXXIX view from s.w.

هذه هي أهم الآثار القريبة من القصر أو الواقعة بين منازلها (شكل ٣٣،٣٢ ٩ ، أما الآثار التي تقع الى الغرب من القرية ، لا سيما معبد الاسكندر الاكبر ، فسنصتفها بايجاز في نهاية هذا الفصل . أما الآن فسأعطي وصفا مختصرا لأثر غير عادي في الواحات وأعني به مدفن أبو منجل المنحوت في تلال الباويطي ، الجبانة القديمة لهذه الواحة (شكل ٣٤) .

مدفن أبو منجل في قارة الفرارجي :

عند زيارتي الأولى للبحرية أخبرني بعض عمالي المتقدمين في السن الذين شاركوا في الحفائر غير القانونية ، أنهم فتحوا مقبرة كبيرة منذ ما يقرب من عشرين عاما (أي حوالي ١٩١٦) . وقالوا أنهم وجدوا فيها مئات من التماثيل البرنزية الصغيرة وآثارا كثيرة أخرى بما في ذلك مئات من مومياوات ، الدجاج ، التي كان للكثير منها ملفوفا في ورق مذهب وقد جمعوا هذه الآثار وغيرها وأخذوها الى القاهرة ، وسمالوط والمنيا لبيعها للصاغة وتجار الآثار ، وحينما حاولت أن أعثر على هذا المكان وجدت أنه قريب من الأكمة الواقعة على مسافة ٤٠٠ مترا جنوب غرب مركز الشرطة وهي منطقة تشغلها جبانة حديثة .



(شكل ٣١) نفس قوس النصر من الجانب الآخر

ولم يعطنى أى من محدثى معلومات محددة عن المدخل المؤدى الى هذه المقبرة ولم يكن في وسعي أن أبحث عنه في الجبانة الحديثة كيفما اتفق ، ولذلك تخليت عن محاولة العثور عليها حيث أننى لم أرغب في جرح مشاعر سكان الباويطى .

وفى صيف عام ١٩٤٢ أمضيت ثلاثة أشهر في البحرية ولكن موسم الحفائر هذا لم يكن بنفس توفيق المواسم السابقة اذ لم أعثر على أى آثار هامة . ومن هنا قررت التوقف عن الحفر وكرست جل وقتى لترتيب مذكراتى وبحث بعض مظاهر حياة الناس وعاداتهم ، وكما هو معلوم فان باحث الآثار الذى يكرس نفسه للحفائر يكون في حاجة دائمة الى الأموال ولابد له من التحلي بالصبر ولكنه الى جانب هذا لابد له من أن يحالفه الحظ ، ورغم أن الحظ كان حليفى فى كل أبحاثى فى هذه الواحة فان شعوراً بدأ يخالجنى بأن الهة الحظ قد هجرتنى هذا الصيف ، وكان أملى أن يكون هجرانها لفترة قصيرة ، وقد كان .

بعد أن توقفت عن التنقيب قررت أن أنال قسطا من الراحة ورتبت مواعيدى على هذا الأساس ، فكنت أمضى ساعات الصباح في مراجعة مذكراتى والاسترخاء في واحدة من الحدائق خلال ساعات الأصيل ، أما في المساء فكنت أقضى بضع ساعات

مع سكان الواحة أسجل ما أسمعه منهم ، وهكذا سارت الأمور لمدة يومين ، وفي اليوم الثالث ذهبت ومعي أحد الأتباع لنجلس قريبا من عين البشمو ولا متع الطرف بمنظرها البديع وألاحظ الأطفال وهم يسبحون ويلهون في مياهها ، وبينما أنا هناك مربي أحمد أبو جابر ، الذي كان أول من عرض على اثارا للبيع عند أول زيارة لي للواحة ، في طريق عودته من حقله الصغير القريب من عين البشمو ، كان يحمل حزمة من الأغصان الجافة ولم يراني فناديته وطلبت منه أن يجلس معي على الحصير وأن يشاركني كوبا من الشاي فقبل على الفور ، وبطبيعة الحال دار حديثنا حول الآثار وأشار هو مرة ثانية الى « المقبرة » الكبيرة في قارة الفرارجي ، فأخبرته أنني لا أستطيع أن أبدأ في التنقيب عنها مالم أعرف أولا مكان مدخلها حتى لا أثير الفوضى بين المقابر الحديثة المحيطة بها ، وغادرني قائلا أنه رغم فشله السابق فأنه سيحاول تحديد موقعها في صباح اليوم التالي .

وفي أصيل اليوم التالي جاءني وطلب مني أن أصطحبه الى المنطقة حيث أراني الحافة العليا لجزء مستو مقطوع في الصخر ، وفي ظرف ساعة وبمساعدة من ثلاثة عمال اقتنعت إن المكان يستحق المزيد من البحث ، وفي صبيحة اليوم التالي بدأ أربعون عاملا في ازالة الرديم وفي نهاية اليوم كنا قد وصلنا الى المدخل ، وغمرتني الفرحة حينما رأيت نصوصا هيروغليفية على جانبيه ، لقد وجدت أخيرا « مقبرة الدجاج » (شكل ٣٤) .

والمقبرة عبارة عن مدفن جماعي للحيوانات المقدسة ، وقد اعتقد لصوص المقابر خطأ أن عظام أبو منجل والصقور وغيرها من الطيور هي عظام دجاج ، والواقع أن التل سمي قارة الفرارجي تبعا لهذا الاعتقاد الخاطئ . وان مثل هذه المدافن معروفة لدينا من عدة مواقع في مصر لا سيما في تونة الجبل ، في جبانة الاشمونين وفي سقارة وهي تعود بصفة عامة الى عصر الأسرة السادسة والعشرين وما بعده ، كما أنها شاعت في العصر البطلمي وبداية العصر الروماني كانت الطيور تحنط وتوضع في جرار يحكم أغلاقها ويحفظ الهام منها في كوات منحوتة في جوانب الممرات ، وفي نفس الممرات كانت تحفظ أشياء نذرية مختلفة الانواع مثل النصب والحلي ، وتماثيل البرونز لبعض الآلهه ، ورغم ما تعرضت له « المقبرة » من نهب على يد اللصوص ورغم أن النار اشتعلت ذات مرة في الممر الرئيسي ، فانه خلال الاسابيع الخمسة التي عملت فيها وجدت من الآثار أكثر مما كنت أتوقع .

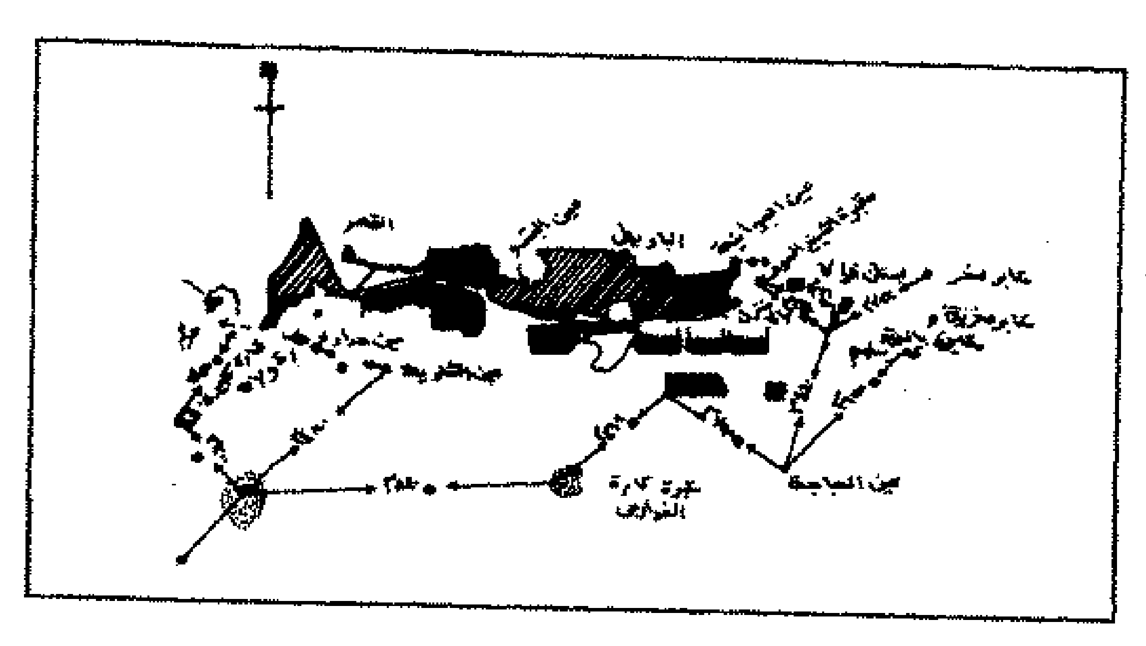
وصف المدفن :

ان مدفن أبو مدجل منحوت فى صخر التل وله فناء يقع في مقدمة مدخله ، ويمكن الوصول الى الفناء من قمة التل بواسطة درج مقطوع في الصخر ارتفاعه ٣,٥ مترا ، ومدخل المدفن يتجه ناحية الشرق وفى كل جانب من جانبى الفناء توجد مقبرة خالية من النقوش ، ويؤدى المدخل الى الممر الرئيسي الذي تتفرع منه ممرات أخرى نحو الشمال والجنوب وفى كل ممر توجد مشكاوات محفورة على جانبيه

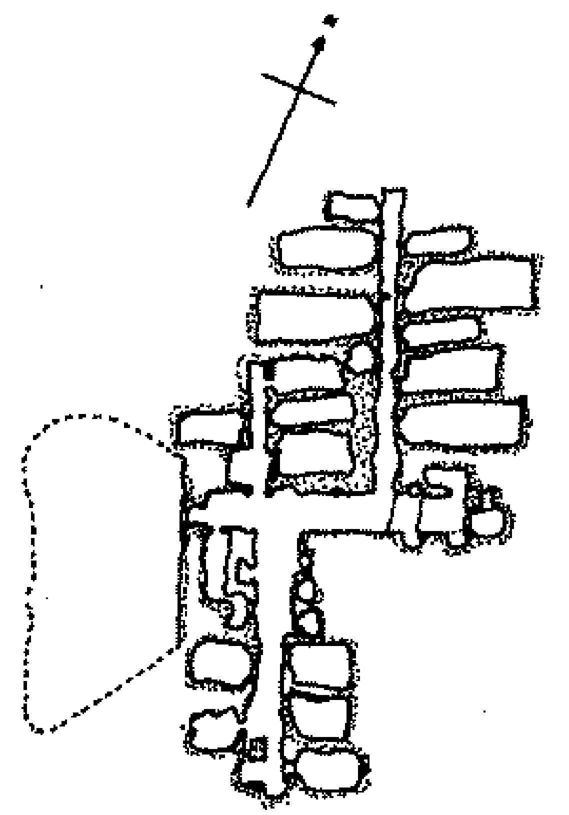
وفى الجانب الشمالى للفناء يوجد نقش للاله بس محفور فى الصخر وعلى يمينه يقف حورس مصورا على هيئة صقر يلبس التاج المزدوج ومن الواضح أن الشكلين اللذين كانا ملونين باللون الاحمر قد نقشهما فنان متمكن ، ويجب أن نذكر هنا أن عبادة الالهين تحوت وحورس كانت منتشرة فى الواحة كما هو واضح من آثار أخرى . وقد كسى المدخل بلوحات من الحجر الجيرى ، وقد ضاع العتب أما الجانبان فلا يزالان فى مكانيهما وان كان الجانب الايسر فى حالة أفضل .



(شكل ٣٢) اطلال قرس النسر فى الوقت الراهن



(شكل ٣٣)
خريطة لأهم المواقع الاثرية حول منازل قريتي القصر والباويطي



(شكل ٣٤)
خطة مدفن أبو منجل في قارة الفرارجي في الجبانة الحديثة جنوبي منازل الباويطي

والنقش في الصف العلوى للجانب الأيمن للمدخل مهشم جدا وما تبقى منه يصور « الكاهن الأول ...... » يقدم قرابينا لاله ما وخلفه يقف الاله أنوبيس ، وعلى نفس الصف ترى نقشا ضاع اسمه (ص ٩٦) يقدم القرابين لاله ضاعت صورته . وخلف الملك يقف « أيمحتب ، الابن الأكبر لاله بتاح » .



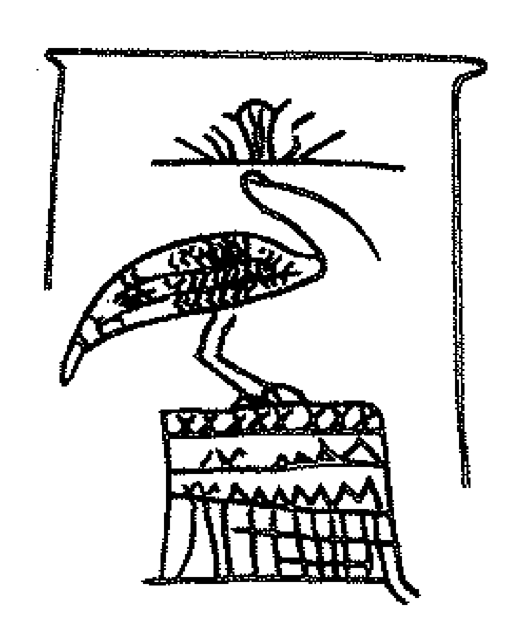
(شكل ٣٥) رسم للاله بس على الجانب الشمالي للفناء الخارجي

وتصوير الكاهن الأول على جانب والملك على الجانب الآخر يذكرنا بمعبد الوحي في سيوة ومقاصير عين المفتله بالبحرية وكلها تؤرخ بحكم أحمس الثاني من الأسرة السادسة والعشرين وينبغي أن نلاحظ توطد عبادة ايمحوتب المؤله ، الوزير الشهير للملك زوسر من الأسرة الثالثة ، ومن الجدير بالذكر ان اسم هذا الرجل وجد مرتبطا بمدفن لطائر أبو منجل عثر عليه المرحوم . .ايمرى في حفائره بسقارة في شتاء ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ .

وفي الصف الثاني على الجانب الأيمن صورت حاتحور ، الالهه العظيمة ، سيدة زسزس (الواحة البحرية) وهي تحيي خونسو ، الاله العظيم ، رب البحرية . وبين

الالهين توجد مائدة قرابين محملة بأرغفة الخبز وأوزة وخيارة . وعلى الجانب المقابل تحيي الالهة موت الاله أمون رع ، سيدة زسزس وبينهما قرابين . وفي الصف الأسفل نرى الاله حورس على اليسار يصب مياها مطهرة ، وعلى اليمين كان يقف الاله تحوت ولكن صورته تهشمت تماما .

الرملي ، تاج من الحجر الجيرى للاله بس ، لوحة لرجل مصور لابسا ملابس يونانية ، تمثال من الفيانس للالهه ايزيس ترضع طفلها حورس هذا بالاضافة الى كمية كبيرة



(شكل ٣٦) رسم للاله تحوت على هيئة أبو منجل على جدار الممر الرئيسي

وعلى جدران الممر الرئيسي توجد بعض الكتابات الديموتيقية وكذا رسوم للاله أمون رع مصور برأس صقر ، وللاله خونسو ، وللاله تحوت برأس أبو منجل ، فضلا عن صورة لمركب الاله أمون رع في وسطها مقصورة الاله ، وأثناء تنظيف الممرات والكوات وجدنا أشياء عديدة لم يفطن اليها اللصوص وأهملوها ، وقائمة هذه الأشياء طويلة ولن أذكر إلا أشياء قليلة لندرك منها ماذا يمكن أن نجده في مثل هذا المدفن ، فمن بينها تمثال صغير من الألبستر للاله حريو خرد ، نموذج مثال للجزء الأعلى من تمثال ملكى ، رأس أبو الهول ، جسم تمثال آخر لأبو الهول ، تمثال أسد من الحجر من قطع برونزية لتماثيل وتيجان ، وتمائم صغيرة من الفيانس وبضعة صناديق خشبية وقواعد تماثيل مطعمة بعلامات هيروغليفية من الزجاج .

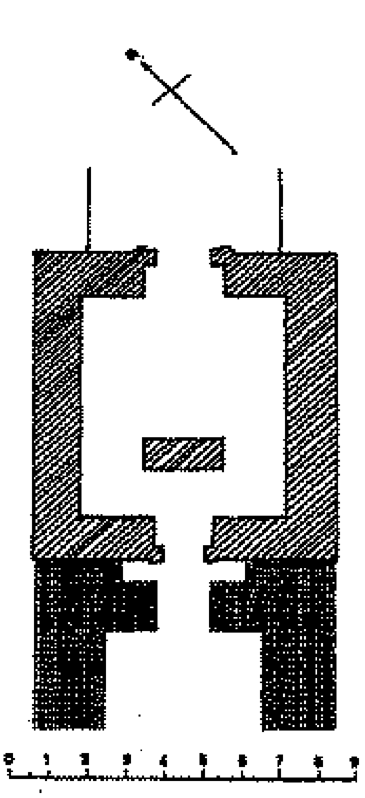
أما عن تاريخ هذا المدفن فيحتمل أنه بدأ قرب نهاية الأسرة السادسة والعشرين أو في بداية العصر البطلمي وظل مستخدما حتى العصر الروماني المبكر .

المواقع الأثرية غربي القصر :

توجد تلال عديدة الى الغرب من القصر بها مقابر منحوتة في الصخر كما هو واضح في الخريطة (شكل ٣٣) وأهم هذه الآثار توجد في قصر علام حيث نجد بقايا حصن من اللبن من العصرالروماني ، والمقصورة الحجرية في العيون والتي سبق وصفها (شكل ٣٨ ، ٣٩) وهي التي عثر فيها على لوحة شوشنق الرابع ، والمعبد الحجري بالمعروف باسم قصر المجيصة والذي كان مكرسا للاسكندر الأكبر.



(شكل ٣٧)مدخل مدفن أبو متحول المنحوت في الصخر



(شكل ٣٨)
خطة المقصورة الحجرية
في العيون بمنطقة القصر

معبد الاسكندر الأكبر :

بالقرب من التبانية وفي الواقع المعروف باسم قصر المجيصبة نجد معبد حجري أقيم باسم الاسكندر الأكبر ، وقد بدأت العمل فيه في عامي ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ولم أنته الا عام ١٩٤٢ ، وعلى الأجزاء المتبقية من الجدران (شكل ٤٠) نرى الاسكندر في حضرة الاله أمون وغيره من الآلهة ، وكثير من النصوص المصاحبة للمناظر لا تزال في حالة جيدة

وهنا نجد اسم الفاتح العظيم داخل خراطيش ، أمّا المعبد نفسه فيتألف من حجرتين مبنيتين من الحجر الرملي تقعان في الجزء الشمالي من ساحة المعبد التي يدور حولها جدار محيط ، وخلف المعبد توجد مساكن الكهنة ، والى الشرق توجد غرفتان يحتمل أنهما كانتا تستخدمان كمكاتب لادارة شئون المعبد والى جوارهما نجد مقصورة جانبية في وسطها مائدة قرابين من اللبن ، وأمام المعبد توجد مساكن ومخازن ، ويبلغ عدد الحجرات داخل ساحة المعبد ٤٥ حجرة ، ويتجه مدخل المعبد صوب الجنوب المحلي (لا المغناطيسي) وبوابة الجدار المحيط به مبنية بالحجر وتفتح كذلك ناحية الجنوب ، وأمام البوابة عثر على مائدة قرابين جرانيتية منقوشة ارتفاعها ١٠٩ سم عليها اسم الاسكندر وهي محفوظة حاليا في متحف القاهرة (شكل٤٢) .

وأثناء تنقيبي في المعبد الحجري وجدت تمثالا صغيرا على الأرض بجوار الجانب الجنوبي للباب المؤدي الي الحجرة الثانية ، وهو تمثال لكاهن للاله رع وإن كان أسمه قد ضاع وعثرت على أشياء أخرى صغيرة في المباني اللبنية وكلها تشير الى أن المكان كان مأهولا خلال فترات عديدة من أيام الاسكندر حتى القرن الثاني عشر الميلادي ومن بين هذه الاشياء كمية من شقف الفخار السمياني مزخرفة بأشكال هندسية وإنسانية ، وعثر على عدد من قطع اللخاف اليونانية والقبطية أحداها تحتوي على نص سرياني من القرن الخامس الميلادي ، اذ أن النص الديني المكتوب عليها لا يجعلنا في شك في أنها من العصر المسيحي (١) . وعثر كذلك على كمية كبيرة من الزهريات والمصابيح الفخارية وكلها تعود الى الفترة ما بين القرن الرابع والقرن الثاني عشر الميلادي . ان هذا هو المعبد الوحيد الذي يحمل اسم الاسكندر والذي عثر عليه في الواحات الخمس .



(شكل ٣٩) مقصورة العيون اثناء الحفائر عام ١٩٣٩

(1) Mured Kamil ,, Ein Syriches ostrakon aus dem v. yarhundert ,"
scritti inonori di Giuseppe Furlani (Roma , 1957) , pp. 411- 3 .

المواقع الأثرية بين الباويطي ومنديشة :

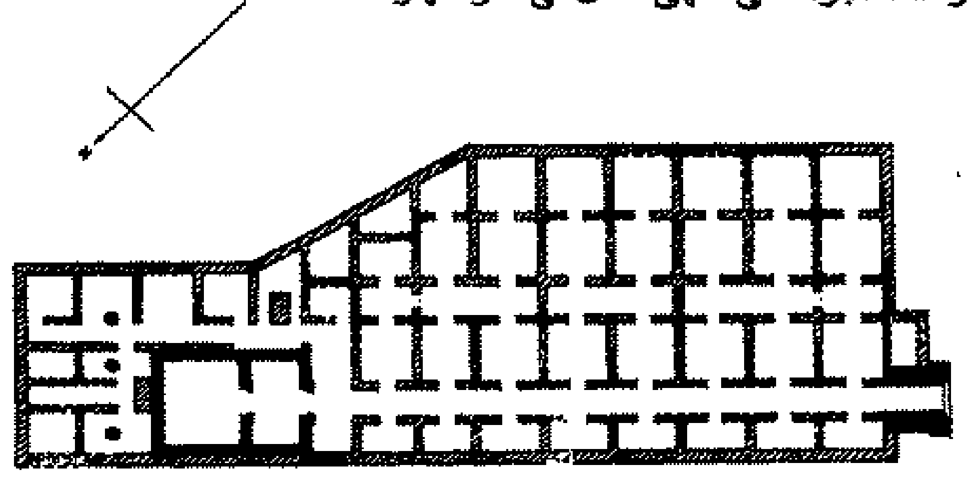
الى الغرب من جبل منديشة يوجد عدد من المقابر الصخرية التي لا تحوى نقوشا وغير بعيد منه يمكن أن نلمح أعالي جدران معسكر كبير بداخله حجرات بارزة على وجه الصحراء ، ولم يقم أحد حتى الآن بفحص المقابر أو المعسكر .



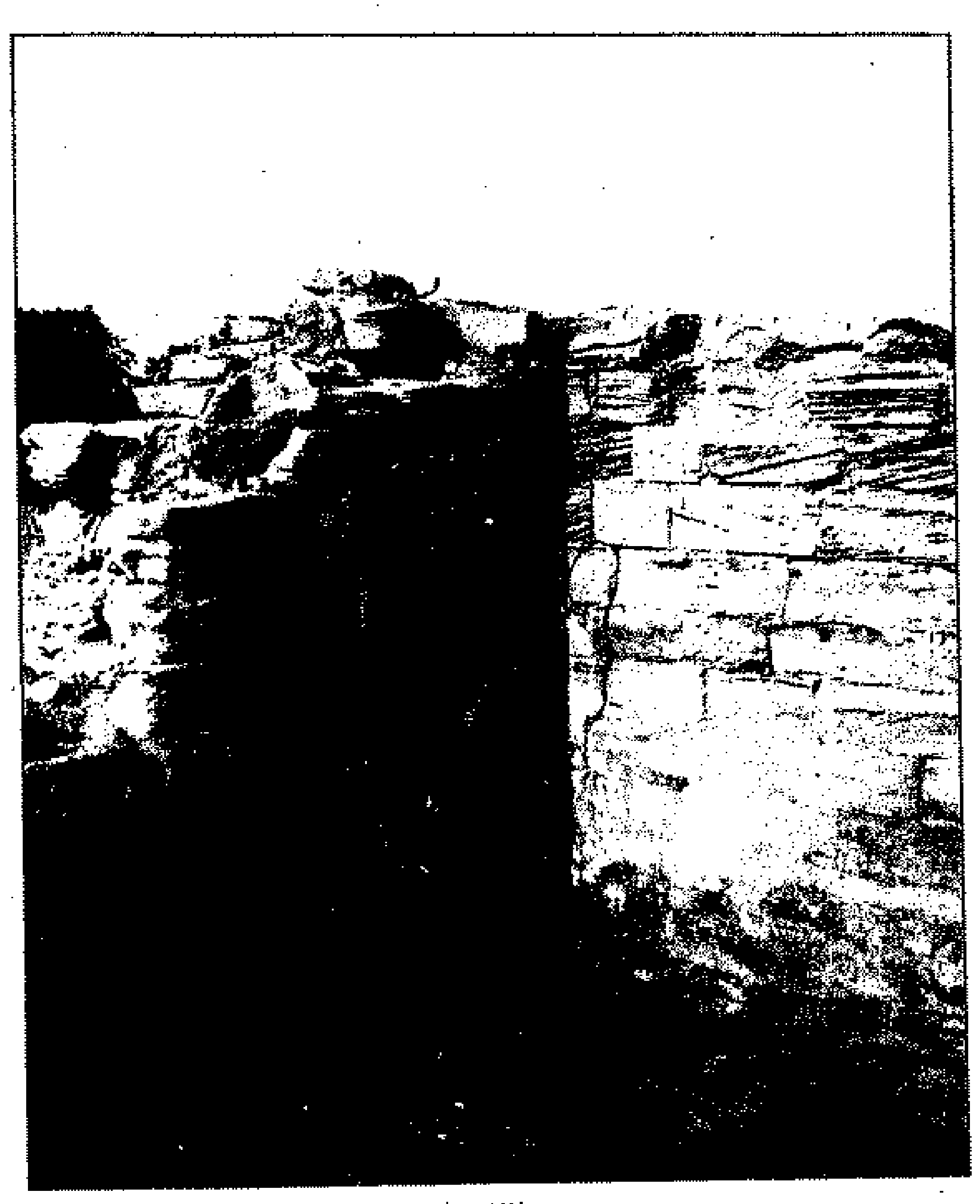
(شكل ٤٠) المعبد الحجري لاسكندر الأكبر في منطقة القبانية والمنازل والمخازن التي بداخله

وفي العجوز توجد بضع مقابر صخرية ، الا أن منازل هذه القرية الصغيرة مبنية فوق موقع قديم ، وقد عثرنا هنا على بقايا كنيسة في عام ١٩٤٦ ، وعلى بعد حوالي ميل وأحد جنوبي العجوز يوجد تل يدعى الجرعاية به نقوش ليبية .

أما في الموقع المعروف باسم المعيصرة فقد كانت توجد قرية قديمة وبجوارها هيكل حجرى من العصر الروماني كان قائما علي واحد من التلال ، وحتى يناير ١٩٣٨ كانت المداميك الثلاثة السفلي لهذا الهيكل لا تزال في مكانها وعليها نقوش يونانية ، ولكن حينما عدت في صيف نفس العام وجدت أن الأحجار قد أزيلت من مكانها على يد بعض مهندسي الحكومة من أجل بناء سور حول عين في منديشة .
ولما رجعت للواحة مرة ثانية في يوليو سنة ١٩٤٥ قررت اجراء حفائر بقايا المساكن القريبة من موقع الهيكل ووجدت أن المنازل كانت قد دمرتها النيران وأن ما تبقى من آثار قد تساعد على تحديد تاريخ الموقع ، وكما يحدث غالبا في التنقيبات الأثرية ، يعثر على أهم الاثار في أقل الأماكن توقعا لوجودها فيها ، في حجرة من حجرات منزل التهمته النيران كان العمال قد بدأوا في ازالة كميات كبيرة من الرماد والتراب المتراكم ، وعلى ارتفاع حوالى ١٧٠ سم من الأرضية لاحظت وجود كوة في الجدار الغربي وبها اناء فخارى صغير يغطى فوهته طبق وحينما حاولت أن أنقل الإناء من مكانه وجدته ثقيلا فأزلت الغطاء واذا ببريق الذهب يعشو عيني ، وبلا تردد وضعت الغطاء مرة ثانية على الفوهة وتركت الاناء في الكوة ، وحينما سألني أحد مساعدى عما اذا كان يوجد شئ داخل الأناء أجبته بأنها مليئة ببعض المواد المحترقة ومن الأفضل تركها في مكانها حتى نهاية اليوم ، وبعدها نأخذه الى المنزل لنفحصها في هدوء ، وكان هذا اجراء أحتياطى ضد أى هياج تثيره كلمة « ذهب » بين العمال وما قد تخلفه من مضاعفات ، ولعل من نافلة القول أن أذكر أننى لم أغادر مكانى على قمة جدار تلك الحجرة حتى أنتهى العمل فى آخر النهار .

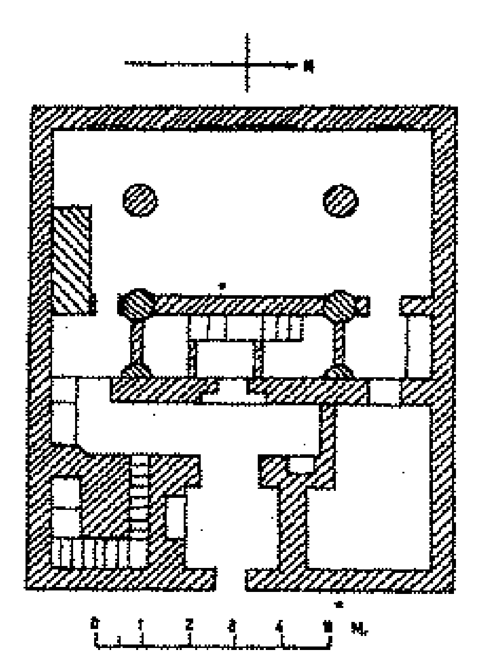


(شكل ٤١) منظر للقصر الاسكندر الأكبر المسمى « قصر المعيصرة »



(شكل ٤٢)

لجدار الخلفي للمعبد وعليه الاسكندر الأكبر يقدم قرابين لآلهة مختلفة



(شكل ٤٣) تخطيط أحد المنازل اللبنية خارج ساحة المعبد



(شكل ٤٤) الهيكل الحجري في قصر المجيسرة أبريل عام ١٩٣٩

وقبل أن أعطى الشارة بالتوقف عن العمل ، أخذت الإناء بين يدى وحين جلست فى السيارة وضعته فى حجرى حتى وصلنا الى مقرنا المؤقت فى الباويطى ، وعندما وصلنا المنزل أخبرت مساعدى الثلاثة إن عمل اليوم لم ينته بعد بالنسبة لهم اذ توجد مفاجأة داخل الإناء فانهالت أسئلتهم ولكن لم يتلقوا منى أى جواب ، وعندما صرنا داخل المنزل وضعت الاناء على المائدة ودعوتهم الى فحصه ، وبمنتهى الحذر تداولت قطع الذهب الواحدة بعد الاخرى ، كان واضحا أن هذه هى مجوهرات احدى سيدات المنزل (احتفظت بها فى غرفة النوم) ولما اشتعلت النيران فى المنزل هرب السكان بحياتهم .

وحيث ان السقف قد احترق وانهار على الأرض لم يتخيل من أعضاء الأسرة أن النيران لم تترك شيئا الا والتهمته بما فى ذلك الاناء فى تلك الكوة ، والواقع أن الحرارة لم تؤثر كثيرا فى محتوياته ، ومن بين قطع الحلى نجد قطعا مصنوعة بمهارة فائقة ، أهمها اقراط ، وحلى فضية ، أسورتان ، قلادة وعدد من الأساور والخواتم البرونزية ، وفى هذا الكنز وجدت قطعة عملة ذهبية تحمل اسم الامبراطور فالنز (Valens) الذى حكم من ٣٦٤ - ٣٧٨ بعد الميلاد وهذا يدل على أن الحلى لا تنتمى الى ما قبل هذا الوقت بل يمكن القول بشئ من التأكيد أنها تعود الى القرن الرابع الميلادى . وهذه الحلى محفوظة حاليا فى المتحف القبطى بالقاهرة .

المواقع الأثرية شرقى منديشة والزبو :

ان المواقع الواقعة الى الشرق من الباويطى والتى تم فحصها حتى الآن تعود بلا استثناء الى العصر الرومانى أو أواخر العصر البطلمى ولا يعود اى منها الى العصور الفرعونية (شكل ٤٥) ، وربما أمكن ايضاح ذلك بافتراض أن المعابد والمقابر الفرعونية وغيرها من المبانى الهامة كانت تقام فى العادة بالقرب من العاصمة ، والظاهر أن هذا الاتجاه بدأ يتغير حينما راحت الواحة تشهد نمو المشروعات الجديدة منذ القرن الأول قبل الميلاد وصار القسم الشرقى من البحرية مكتظا بالسكان والمواقع بين الباويطى ومنديشة ، والتى سبق ذكرها ، تعود الى ما بعد بداية المسيحية ، وينطبق نفس القول على المواقع الكائنة الى الشرق ومن حول منديشة والزبو .

وقد تعرضت المقابر الصخرية المنحوتة فى كثير من الأكمات القريبة من هاتين القريتين للنهب فى الأزمان القريبة ، وتناثرت قطع من التوابيت الخشبية والفخار أمام الكثير منها الى جانب بعض العظام وبقايا لفافات المومياوات وفى شمال شرق منديشة ، عند كوم جبرين ، توجد بقايا مبنى حجرى صغير تبلغ أبعاد بعض الحجارة ١٥٨×٦٠×٥٢ سم ، ولم توجد عليها أى نقوش ولا يمكن تحديد تاريخه دون اتمام الكشف عن الموقع كله ، وعلى حافة الجبانة الحديثة لمنديشة توجد جبانة قديمة ، والموقع يعرف باسم الجور .

وعلى مسافة كيلومترا واحد شرقي الجور توجد جبانه أخرى تسمى الجزاير ، وقد تعرضت كلتا الجبانتين للنهب ومن بقايا شقف الفخار يمكن تاريخهما بالعصر الروماني ، ومثل هذين الموقعين يستحق التنقيب . وتوجد مقابر قليلة منحوتة في صخر أكمة تسمى « سجام » وعلى قمتها توجد جبانة ، والموقع كله يعود الى العصر الروماني . وعلى جدران بعض المقابر تظهر بضعة نقوش ليبية وكوفية ، ويمكن رؤية مقابر أخرى مماثلة في عين بريج شرقي سجام .

وفي قصور محارب توجد أطلال قرية من العصر الروماني بها مباني ذات طابقين ومن بين منازلها يمكن تمييز ثلاثة منازل أكبر مما عداها . وفي نفس الموقع نجد كذلك حصنا من الطوب اللبن ومعبدا من الحجر يتألف من حجرة واحدة ، وبعض الكتب التي تحدثت عن البحرية تشير الى هذا الموقع على أنه « قرية قبطية » ولكن خلال زياراتي للموقع لم أعثر على أي شئ على سطح الأرض أو على الجدران يمكن أن يكون دليلا على أن المسيحية كانت معروفة هناك ، وثمة حي لهذه القرية في مكان يدعى « دنيسة » على بعد حوالى ٧٠٠ مترا من قصور محارب (شكل ٤٦) ومن بين مبانيه يوجد مبنى يسميه الأهالي « الكنيسة »

وفي قارة مغربية توجد جبانة كبيرة فضلا عن المقابر المنحوتة في صخر الأكمة، وتحتوى أحدى هذه المقابر على بضع حجرات كسيت جدرانها بطبقة من الجص ، وتقع هذه الجبانة على مسافة كيلو متر ونصف من كوم جبرين ، ويبدو أنها كانت مدفن أهل تلك القرية القديمة .

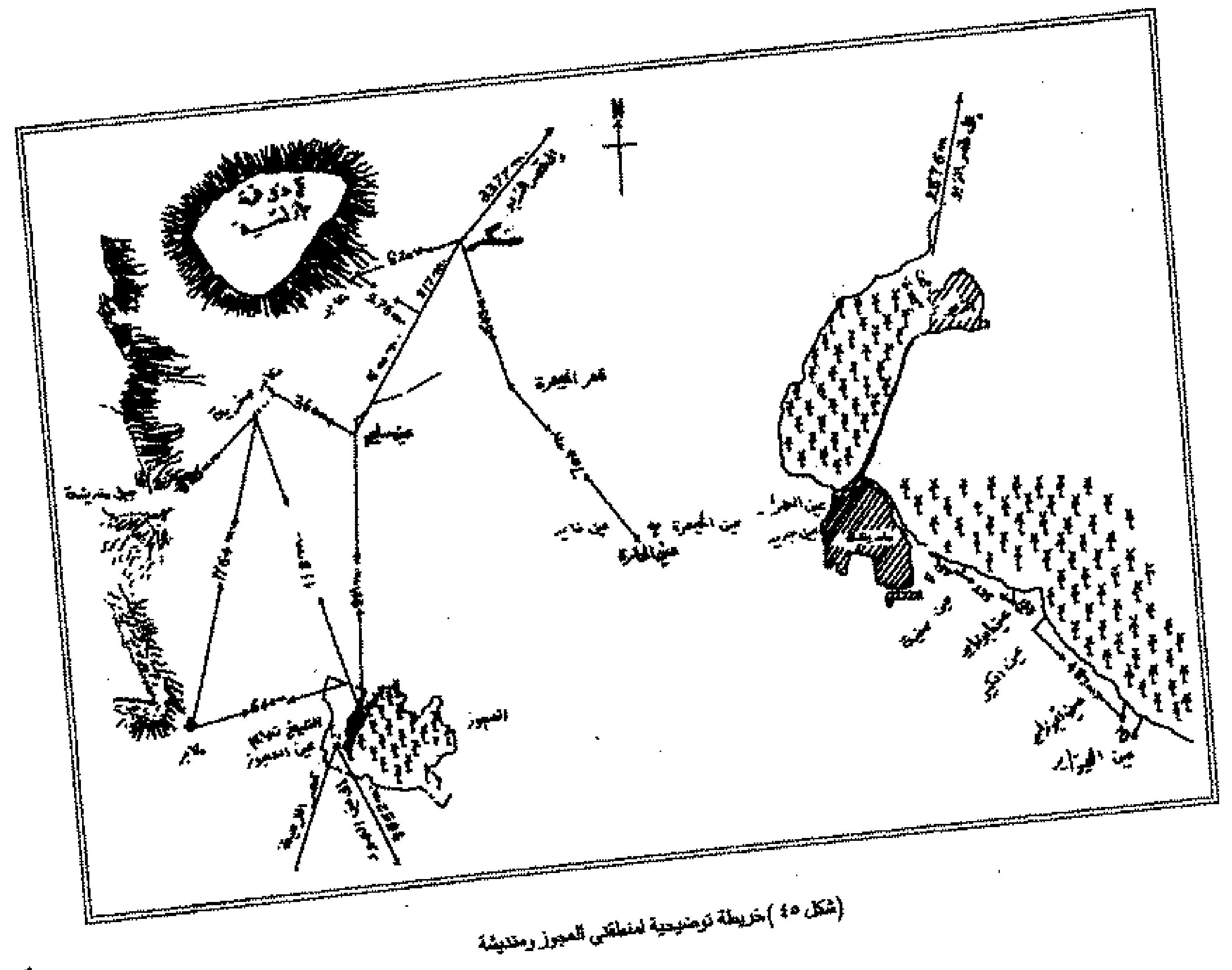
وتوجد مواقع ضئيلة الأهمية مثل عين قاضية جنوبي قصور محارب حيث نجد جبانة صغيرة . والجبانة على بعد ستة كيلو مترات جنوبي منديشة وبها أطلال مبنى روماني من اللبن .

النقوش الليبية في قصر الزبو :

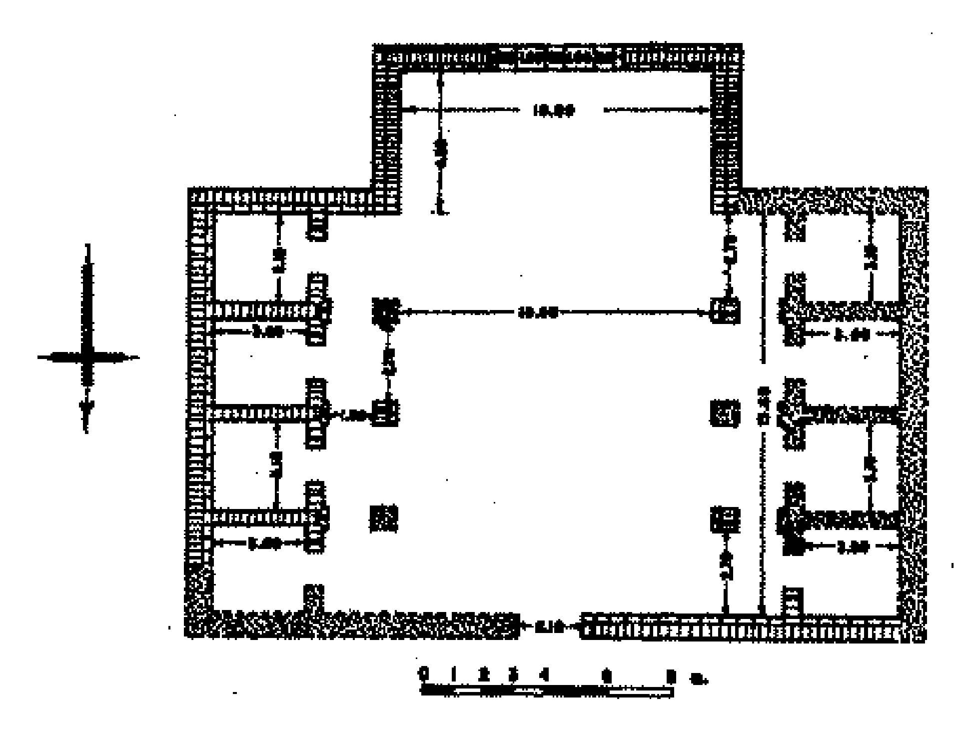
عند بداية أبحاثي في البحرية قمت بزيارة مبكرة لقصر الزبو ، ومن وقع اسمه توقعت أن أجد أثرا مهما هناك ، وقد ذكر بلزوني أنه عبارة عن مبنى من الطوب اللبن [١] ، ورفعه كايو في أحدى خرائطه على أنه « بقايا معبد » أما بول وبيدنل فقالا عنه أنه « أطلال من الحجر الرملي » [٢] وبناء عليه شعرت أنه من واجبي أن أفحص الأثر وأن أحدد تاريخه أو على الأقل أحدد ما اذا كان مبنيا من اللبن أم من الحجر .

(1) Belozoni, operations ... , p. 35 .

(2) Ball and Beadne 11 , Bahria Oasis , p.75.



(شكل ٤٥) خريطة توضيحية لمنطقتي العجوز ومنديشة



(شكل ٤٦) مبنى من اللبن يسمى دلوسة بالقرب من قصور محارب

وحينما وصلت الزيو سمعت قصصا خيالية عن كنوز مخبأة في القصر ، ولكن حيث أن معظم الرجال الذين تحدثوا عنه لم يقتربوا منه لم يخبرني أي منهم عما اذا كان المبنى من اللبن أم من الحجر . اكد لي أحدهم أنه زار المكان عشرات المرات وأنه ليس مبنيا من اللبن ولا الحجر . لأنه قائم على رأسه أو لم أفهم ماذا كان يقصد ، فراح يحكي لي بفصاحة أن المبنى كان في الأصل قصر عظيم عاشت فيه أميرة جميلة ، كانت ثرية وكانت تمتلك حجرات مليئة بالذهب والاحجار الكريمة ، وسمع بها أمير من مملكة أخرى وأسره جمالها فأراد أن يتزوجها ولكنها صدته فوقع صريع المرض فأرسل والده في طلب أمهر الأطباء ولكنهم فشلوا في علاجه ، وحاول ساحر ماكر أن يستميل قلب الأميرة بتعاويذه السحرية ولكن بلا جدوى ، فلجأ الى مساعدة الجن ورفع القصر في الهواء وألقى به عاليه سافله ولذلك فإنه واقف وأساساته الى أعلى أما الكنوز وجثمان الأميرة فلا يزال بداخله حيث لا يصله انسان ، وأنهى محدثي حكايته بابتسامة عريضة ماكرة ثم أضاف أنه نظرا لوقوف المعبد على رأسه فليس باستطاعته أن يخبرني عن المادة التي بني بها .

وفي طريقي الى الموقع ، وعلي بعد خمسة كيلو مترات من منازل الزيو راح مرافقي بشيرون الي شئ ظاهر للعيان يقف بمفرده في وسط طريق القوافل بين البحرية والبهنسا كاحدى علاماته المميزة ، وللقارئ أن يتصور مدى فضولي ونفاذ صبري ، حاولت أن أكون لنفسي انطباعا عن المبنى ، ولكن كلما اقتربت منه كلما زادت حيرتي ، وأخيرا وصلنا إليه ثم بدأت في فحصه ، درت حوله صعدت على سطحه ورحت أجيل النظر في كل الاتجاهات ثم هبطت ، ومما آثار دهشتي وجود عدد كبير من النقوش ، وعلى أي حال ، فقد اكتشفت أخيرا أن ما ظنه بلزوني مبنى من الطوب اللبن ، وما ظنه كايو بقايا معبد ، وما ظنه بول وبيدنل أطلال من الحجر الرملي ما هو في الواقع الا صخرة ضخمة وأن أحدا من هؤلاء الرحالة لم يقترب منها بل اعتمدوا في معلوماتهم على ما سمعوه من أفواه مرشيدهم ، أما الشخص الوحيد الذي زارها عام ١٨٢٠ وحفر عليها فهو هايد ، ذلك المستكشف النشط الذي لم يطبع مذكراته .

ومهما يكن من أمر فان ما وجدته في قصر الزيو لا يقل أهمية عن أي مبنى من الطوب اللبن أو من الحجر الرملي ، فان كل جوانب الصخرة مغطاة بثروة من النقوش الليبية لا تضارعها ثروة أخرى في صحرائنا الغربية فضلا عن رسوم حفرها المسافرون الليبيون الذين سلكوا هذا الطريق الي وادى النيل خلال العصور الوسطى — في القرن الثاني عشر والثالث عشر (شكل ٤٧ ، ٤٨) ، فان ظل الصخرة كان ملاذا للمسافر خلال ساعات النهار الحارة .

وقد نشرت جزءا من هذه النقوش في كتابي Bahria II (Cairo 1950) , pp. 69 - 72 -and pls XLV , LXLI وتوجد ثمة نقوش ليبية أخرى في أماكن متفرقة من صحراء مصر الغربية [١] ولكنها ليست بنفس الكثرة التي هي عليها في البحرية[٢] .

المواقع الأثرية في الحارة :

الحارة قرية صغيرة علي الطريق المؤدى الي البهنسا وغيرها من مدن محافظة المنيا ، وتتوفر فيها المياه والأراضي التي تكفي ستمائة ساكن على رأسهم شيخ ، ومن المؤكد أنها كانت أكثر سكانا في العصر الروماني عنها الآن ، وتتناثر بقايا آثارها في كل مكان ففي عين الوادى نجد مبنى صغيرا من اللبن ، وعلى مسافة خمسمائة مترا الي الشمال من البئر المسمى عين جديد توجد جبانة ، وتغطي سفح الأكمة كسر الفخار .

---

(١) عن المراجع التي تذكر بعض هذه النقوش انظر كتابي Bahria II , p.70, footnote3

(٢) توجد سبعة نقوش في البريج ، وسبعة أخرى في قارة مغربية ، نقشان في سجام وبضع علامات على جدران كنيسة الحيز .

وعلى مسافة مائتى متر الى الشمال من عين الزاوية يمكن مشاهدة مقابر منحوتة في صخر واحد من التلال ، والمقابر صغيرة من حجرة واحدة ، فيما عدا احداها التى تتألف من حجرتين ، وعلى بعد حوالى ستة كيلومترات جنوبى عين الزاوية توجد عين أخرى تسمى عين المقطوعة ، وهنا يمكن مشاهدة مبنى رومانى من اللبن وجبانةصغيرة جدا .

وثمة مكان يرعى ، فاما ، على بعد ثلاثة كيلومترات شمال غرب عين المقطوعة ويذكر بعض الرحالة الأوائل أنهم سمعوا من السكان عن وجود آثار قديمة هناك ، وقد أشار اليه بول وبيدنل كذلك ولكنها اعترفا بأنها لم يزوراه ولم يزره أحد من الرحالة الأوربيين ، وقد بحثت فى كل المنطقة المجاورة ولكنى لم أعثر على أى مواقع أثرية ومن المحتمل أن الاطلال التى ذكرها أشرسون باسم ، فاما ، هى فى الواقع أطلال عين المقطوعة .

الحيــز :

سبق التنويه بأهمية الحيز أكثر من مرة فى فصول هذا الكتاب . وفى رأيى أنها الواحة الرابعة من بين الواحات الوارد ذكرها فى نص بمعبد ادفو يعود الى العصر البطلمى والذى يشير الى سبع واحات فى الصحراء الغربية ، لقد نشره زيته وناقش هذا النص المعروف (١) . وقد جاءت الواحات مرتبة الواحدة بعد الأخرى ، أولاها الخارجة باعتبارها أقرب الواحات الى طيبة ، وثانيهما الداخلة والثالثة هى الفرافرة أما الرابعة فيصفها النص بأنها الواحة القائمة فى مكان نون وبها) ١٣٠٠ شجرة . وخامستها الواحة الشمالية الواقعة شمال شرق أرض البقرة (الفرافرة) وهى زسزس . وطبقا لكتاب الأعياد فان سيوة هى الواحة السادسة أما السابعة فهى وادى النطرون .

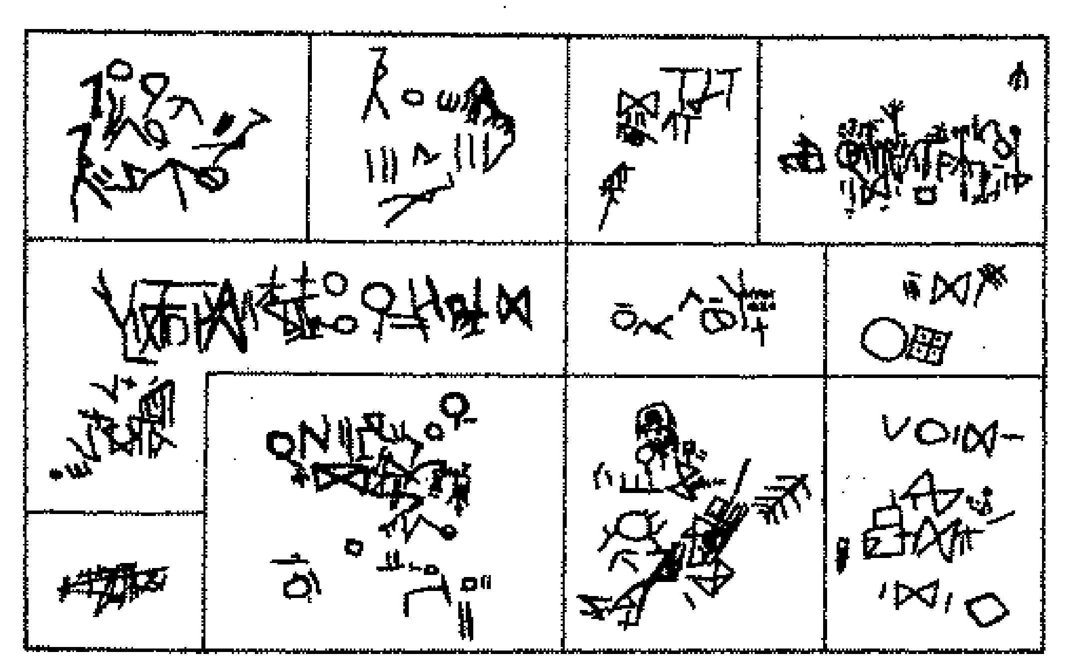
وقد عرف زيته الواحة الرابعة بانها ، عين الوادى ، الواقعة على مسيرة يوم واحد شمالى الفرافرة وهى مهجورة الآن وبها بضعة ابار وآثار رومانية ضئيلة الأهمية .

وقد ناقشت هذه المسألة فى مقال فى Annales du Service 39,pp. 460 ff.

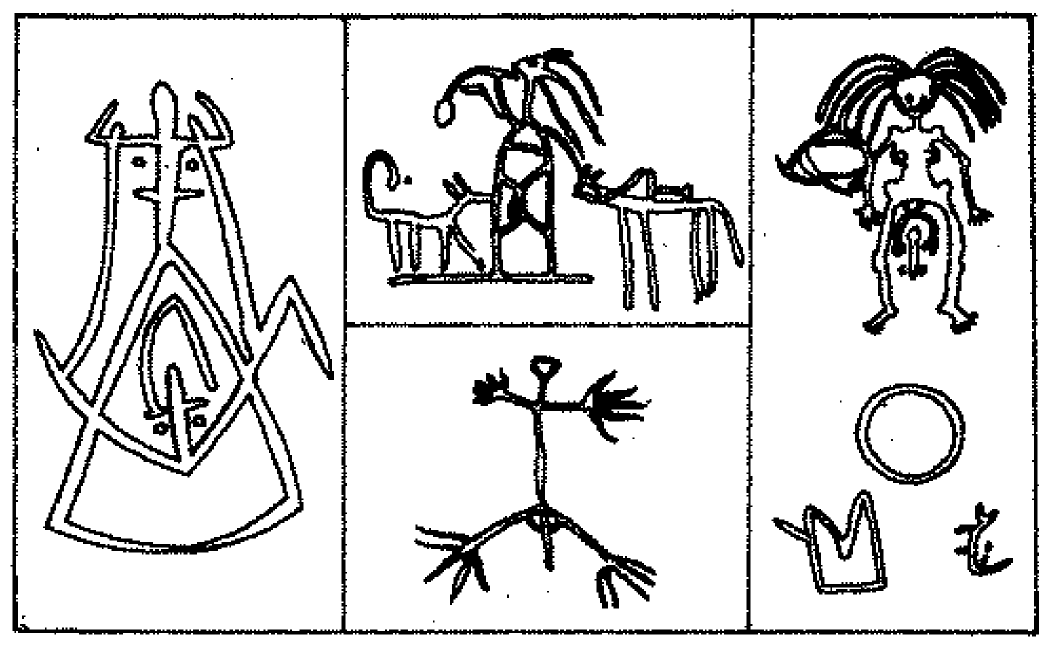
وفى كتابى Bahria I , 13 - 14 حيث ذكرت أن ، واح الحيز ، كما كانت تدعى حتى الآن بواسطة البدو وسكان البحرية ، هى الأكثر احتمالا لأن تكون الواحة الرابعة ، فالعيون ومساحة الأراضى الصالحة للزراعة ، والبقايا الأثرية ، كلها أكثر وأكبر بكثير من عيون وأراضى وآثار عين الوادى ، كما أنها تقع على نفس طريق القوافل بين الفرافرة والبحرية .

---

(١) Z.A.S 56 , pp. 49 - 54



(شكل ٤٧) بعض النقوش الليبية المحفورة على جوانب الصخرة المعروفة باسم « قصر الزيو »



(شكل ٤٨) صور آدمية محفورة على نفس الصخرة

حتى الآن لم يعثر هناك على آثار فرعونية فيما عدا ختم برونزى نقشت عليه هذه الكلمات :

« معبد أمون » وجد بين أطلال المنازل القديمة القريبة من عين العزة وبقايا أساطين حجرية كانت مستخدمة كمعصرة زيتون ، ويبلغ قطر الواحدة منها ١,٥٦ مترا ولا تزال ملقاة بين أطلال القرية القديمة على حافة الكثبان الرملية على بعد كيلو متر واحد من منازل حطية ريس . أما أطلال الآثار القائمة فانها تعود الى عصور المسيحية المبكرة .

وتحتوي منطقة الحيز ، أو بالأحرى واحة الحيز ، على أربع عيون وبضعة آبار صغيرة ، أما العيون فهى : عين العزة وعين الشيخ وهما قريبتان من قرية الحيز ، وعين التبلمسون وعين ريس أهم العيون الأربع وبالقرب منها نجد أهم المواقع الأثرية . وتتوفر الأراضي الصالحة للزراعة في كل مكان تقريبا لاسيما بجوار العيون وتنتج المساحات المزروعة حاليا محاصيل القمح والشعير ، ولكنها مساحات صغيرة إذا ماقورنت بمساحة الأراضي الصالحة للزراعة بصفة عامة . وبناء على الشواهد الأثرية في هذه المنطقة لابد وأنها كانت مزدهرة في العصر الرومانى وان كانت قد هجرت في العصور الوسطى ، وطبقا للاحصاء الأخيرة ، يعيش حوالى ثلاثمائة نسمة فى قرى الحيز في يمقابل حوالي ستين نسمة عام ١٩٣٨ زادوا الى مائتين عام ١٩٤٩ .

قرب عين العزة :

على بعد حوالي كيلو مترين من عين العزة توجد أطلال قرية صغيرة حيث نرى شقف الفخار يغطي وجه الأرض ومقابر صخرية مقطوعة فى بضع أكمات غير بعيدة من المنازل القديمة كما تتناثر بقايا المومياوات وأكفانها وبقايا التوابيت الفخارية أمام المقابر وداخلها ، وطبقا لروايات السكان وجد بعض لصوص الآثار لفافات بردى داخل احدى هذه المقابر وثمة أطلال أخرى بالقرب من بئر يدعى عين السنوسية ، أما قرب عين العزة نفسها فتوجد آبار القنوات القديمة .

حطية ريس :

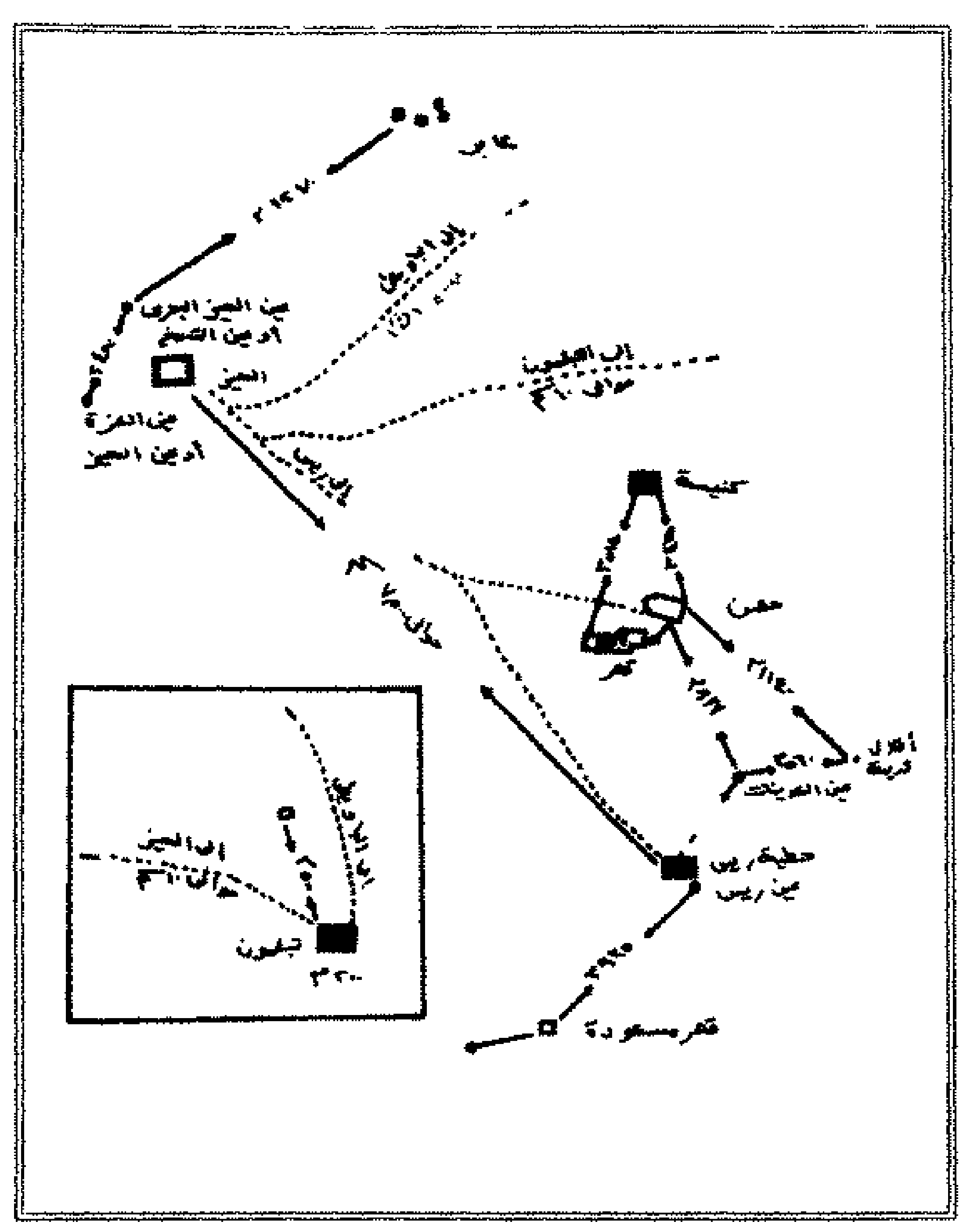
ان أهم آثار الحيز توجد بالقرب من حطية ريس ويمكن الوصول اليها منها ، والواقع أن الأماكن الأثرية تبعد قليلا عن العين القديمة ، والمنازل القليلة المجاورة لها، وكما نرى من الخريطة التوضيحية (شكل ٥٠) فان المواقع متباعدة عن بعضها

البعض ، فالى الشمال وعلى مسافة حوالى ١٨٠٠ مترا من العين والقرية نجد الكنيسة، وعلى بعد حوالى نصف كيلو متر جنوب الكنيسة تقف جدران معسكر قديم [1] ، وغير بعيد منه توجد بقايا بيت كبير أو قصر مسعوده الذى كان عبارة عن مخفر عسكرى به ثلاث عشرة حجرة وبئر فى فنائه المفتوح ، توجد أطلال أخرى بالقرب من ريس، كما يوجد أكثر من موقع أثرى (١١٤) بالقرب من تيلمون ، وسأعطى فيما يلى وصفا مبتسرا لاثنين من آثار الحيز ك الكنيسة والقصر (شكل ٥١).



(شكل ٤٩) أطلال معسكر فى الحيز

(١) ان خطة هذا المعسكر غير منتظمة وربما أقيم بين مبان أقدم منه ، وهو يفتح ناحية الشرق ويبلغ أقصى طوله ٣٠,٨٠ مترا وأقصى عرضه ٢٠,٢٠ مترا .



(شكل ٥٠)خريطة توضيحية للمواقع الأثرية في منطقة العيز

كنيسة الحيز :

ورد ذكر هذا الأثر الهام في كتابات الرحالة الأوائل الذين زاروا هذه الواحة ، أنه أهم اثار الجزء الجنوبي من الواحة البحرية .

لقد سبق اناقشنا تاريخ المسيحية في هذه الواحة في الفصل السابق كما أشرنا أكثر من مرة في هذا الكتاب الى كنيسة الحيز (شكل ٥٢) وهي الكنيسة الوحيدة في الصحراء الغربية التي بقيت في حالة طيبة كما أنها أهم أثر مسيحي في الواحات ، وهذه الكنيسة من طراز البازيليقا وتتكون من طابقين مبنين من الطوب اللبن وجدرانها مكسوة بطبقة من الطين الناعم ، أما من الداخل فان الجدران مطلية باللون الأبيض وصورت مناظر دينية على هيكلها ولا تزال بعض هذه المناظر باقية وان كانت أقل مما كانت عليه في عامي ١٩١٨ ، ١٨١٩ (شكل ٥٣) حيث أشار اليها كل من بزونني وكايو ومن بينها منظر يمثل رجلا راكبا جوادا ، وربما دل هذا على أن الكنيسة كانت مكرسة للقديس جورج الذي كرست له عدة كنائس أخرى في هذه الواحة وللكنيسة مدخلان ، أحدهما الى الجنوب ويؤدي الى مبنى الكنيسة ذاته ، وثانيهما في الركن الشمالي الغربي للكنيسة على يمين الهيكل مباشرة ومن هناك يصعد درج الى الشرفات العليا التي كانت مخصصة للسيدات كما هو الحال في الكثير من الكنائس الشرقية في الأزمان القديمة والحديثة ، وقد دمر السقف والأجزاء العليا من الطابق الثاني . وبامكاننا مقارنة تصميم هذه الكنيسة بتصميم كنيسة دندرة المعروفة والتي تعود الى القرنين الرابع والخامس للميلاد [١] ويمكننا أن نقارن عقودها وزخارف أعمدتها بمقاصير جبانة البجوات بالواحة الخارجة . أما عن تاريخها فلدينا أدلة كافية تؤكد أنها تعود الى القرنين الخامس والسادس ، وقد بقيت في حالة جيدة نظرا لجفاف المناخ في الصحراء ولبعدها عن الأماكن المأهولة ، (شكل ٥٤) . وعلى أي حال فان جدرانها في حاجةالى تقوية والكنيسة بصفة عامة تستحق صيانة أكثر ، كما ينبغي فحص كل المنطقة المحيطة بها فحصا دقيقا .

ولا توجد ابار أو عيون قديمة بالقرب من الكنيسة أو المنازل الكبيرة المجاورة ، ولكن لابد أن مصدرا للماء الصالح للشرب كان موجودا في وقت ما ، ويرجح أنه قد دفنته الرمال في الوقت الحالي ، لاسيما وأن عين ريس تقع على مسافة بعيدة من هذه الاثار .

---

(١) Somer clarke, Christian Antiquities in the Nile Valley (Oxford , 1921) , p.31 .



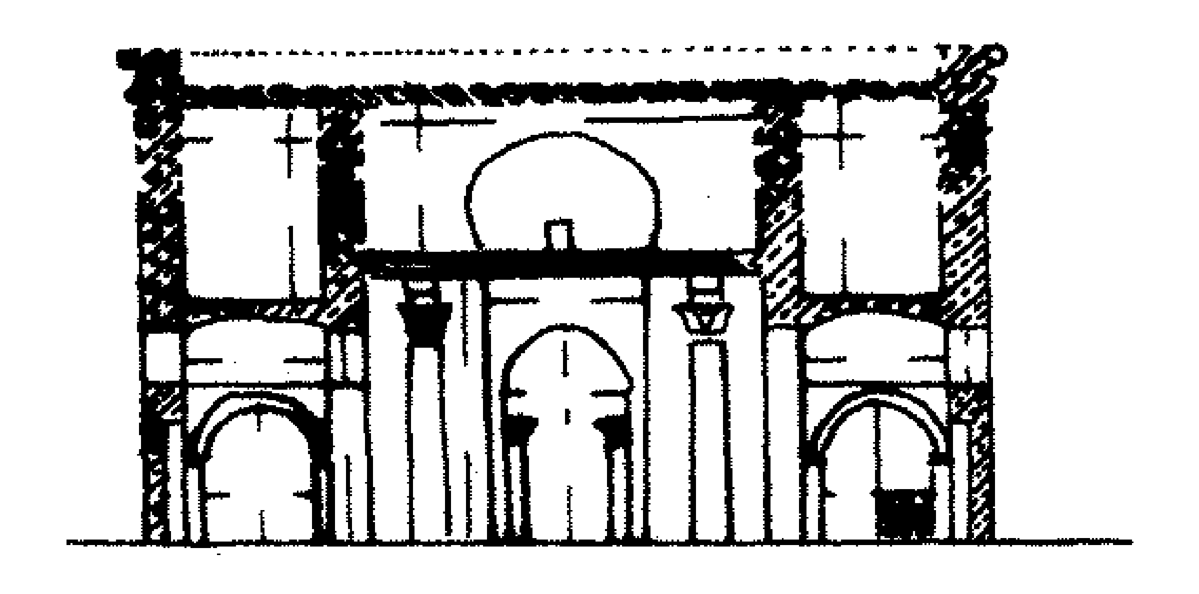
(شكل ٥١)معسكر الحيز عام ١٨٢٠ Cailliaud, Atlas II ,Pl. XXVI

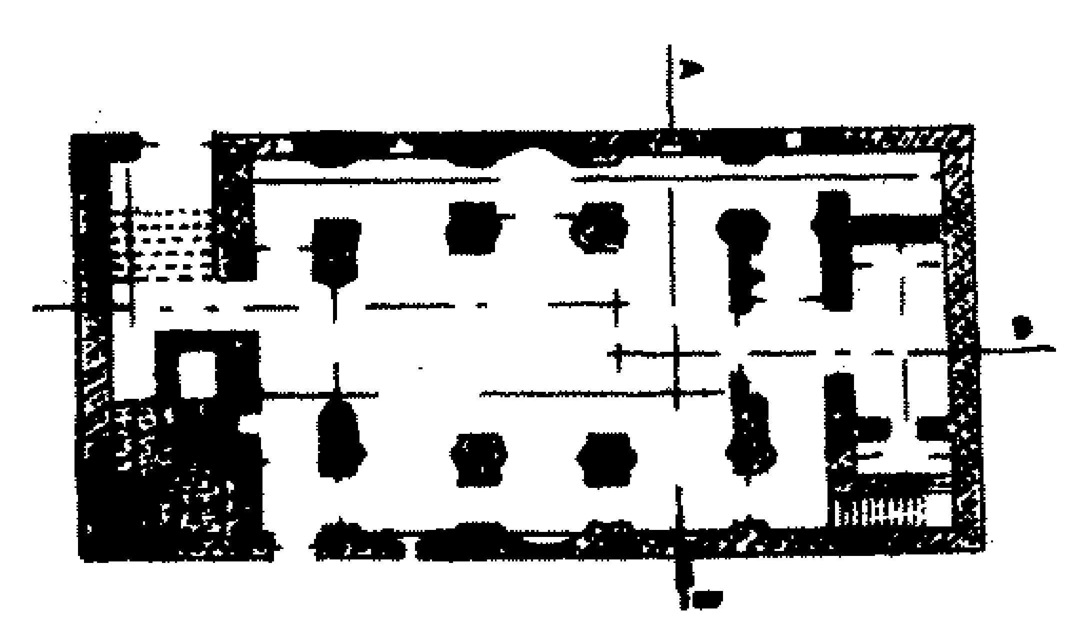


(شكل ٥٢) الكنيسة القبطية ١٨٢٠ Cailliaud, Atlas II pl.XXXVI, 2

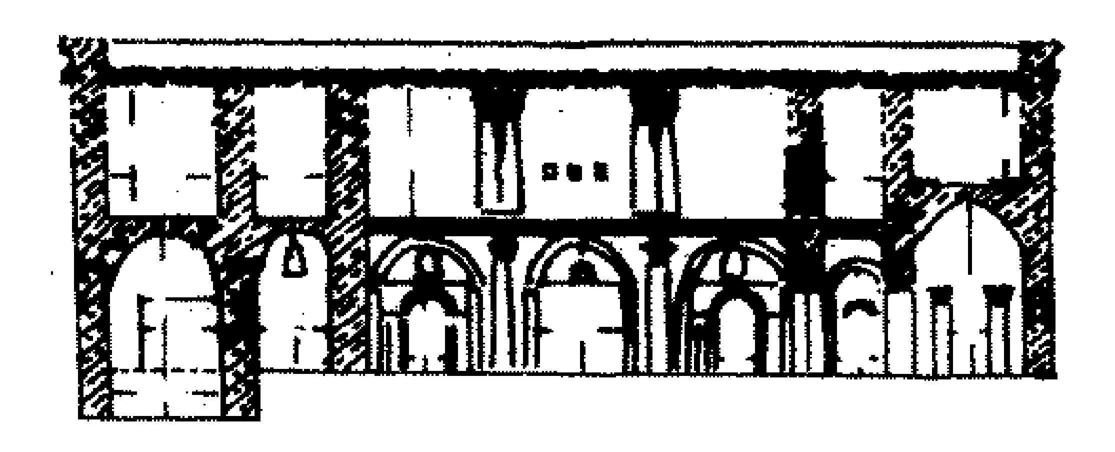


(شكل ٥٣)
منظر داخل الكنيسة الحيز

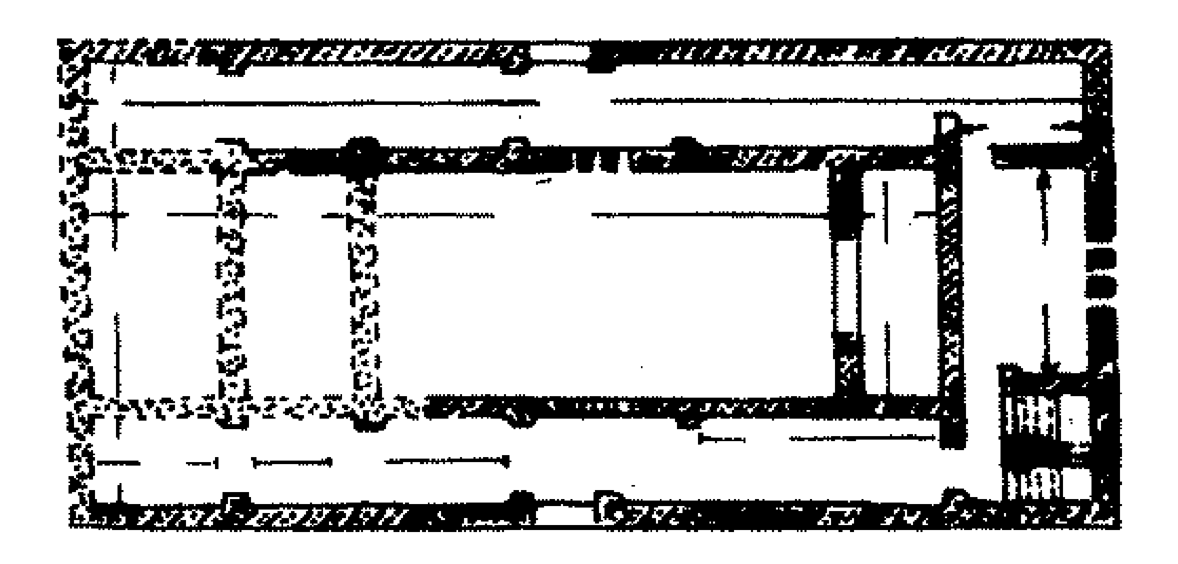




(شكل ٥٤) خطتان ومقطعان لطابقي الكنيسة



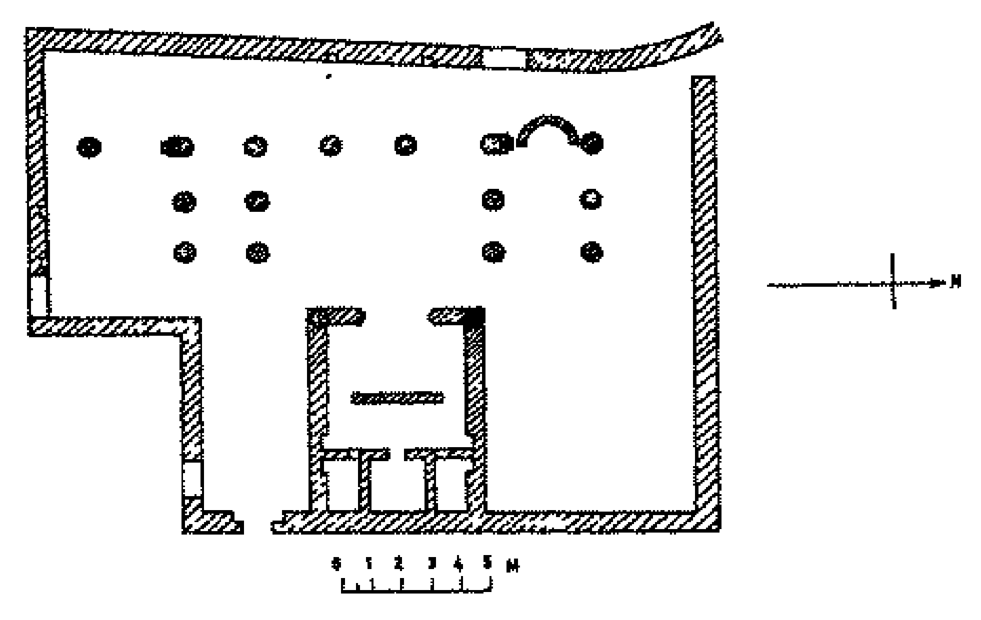




المنـــازل :

بالقرب من الكنيسة والمعسكر توجد عدة كومات مغطاة بشقف الفخار مما يدل على وجود مبان قديمة تحتها ، وأكثر هذه الكومات ظهورا للعيان تلك الكومة القريبة من المعسكر القديم حيث كشفت عن جزء من منزل كبيرا بعد تنقيب استمر ثلاثة أيام فقط عام ١٩٣٨ (شكل ٥٥) ، وكانت جدرانه مغطاة بطبقة من الجص الأبيض الناعم ومزخرفة بأشكال هندسية بديعة التكوين ، كما عثرت على عدد من الأجزاء السفلى لأساطين من اللبن ، وفى تقريرى الأول عنه أسميت هذا المبنى « قصرا » ، ولكنى أجريت المزيد من التنقيبات في ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ وكشفت عن مبان أخرى ومن المؤكد أن أى تنقيبات في المستقبل ستؤدى الى الكشف عن مبان أخرى ، وشكلا ٥٤ ، ٥٥ يعطيانا فكرة عن حجم هذه المبانى أما الصور الفوتوغرافية والرسوم فتعطينا أمثلة لزخارف الجدران .

وحينما نقارن بقايا المنازل القديمة بمنازل أكثر ثراء في الواحة في الوقت الحاضر يبدو واضحا أن سكان الحيز فى الزمن القديم كانوا أكثر تقدما في عمارتهم وفى مستواهم المعيشى ، ويتضح كذلك أن الحيز كانت أكثر عمرانا وأن سكانها زرعوا مساحات أكبر من الأراضى التى تغطيها الرمال الآن .



(شكل ٥٥) خطة أحد المنازل الكبيرة فى الحيز

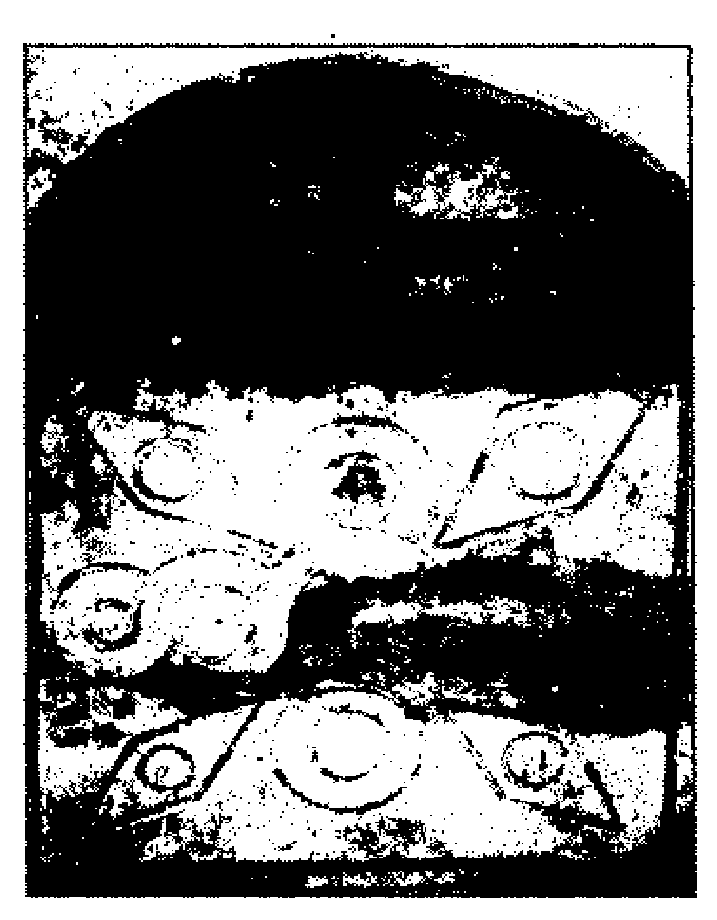


(شكل ٥٦) صورة تبين أحد أركان نفس المنزل أثناء اجراء التنقيبات

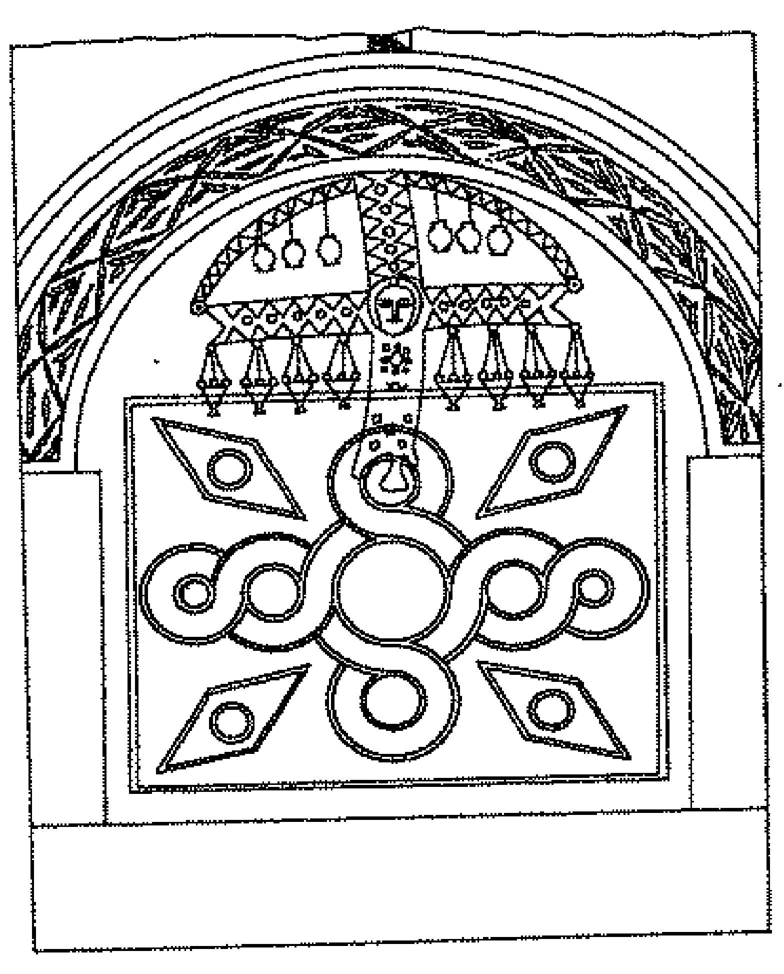
وعلى جدران المباني المكتشفة وجدت بعض الكتابات القبطية ولكنها لا تعطينا أى معلومات عن تاريخ هذه المباني . وعلى أى حال فان منطقة الحيز كانت ميدانا لمشروعات زراعية حيوية خلال القرنين الأول والثانى الميلادين واستمرت حالة الازدهار فيها لبعض الوقت .

ويبدو أن ملاك الأراضي الذين عاشوا في هذه المنازل الكبيرة والذى أقيم المعسكر من أجل حمايتهم كانوا روادا رومانين ، وطبقا لما لدينا الآن من معلومات فلا نستطيع

أن نحدد متى ولماذا تدهورت حالة الإزدهار في المنطقة ولا لماذا هجرت المنازل ليحل بها الخراب ولكنا نعلم أنه حينما وفدت المسيحية على واحات الصحراء الغربية وانتشرت بين سكانها اعتنقها بعض من أهالي الحيز، وبحلول القرن الخامس كانت المنازل قد هجرت تماما وحول المسيحيون جزءا من أحد المنازل المهجورة إلى مكان للعبادة(شكل ٥٧) وعلى الجدار الشرقي لأحد حجراته رسموا صليبا كبيرا يعلوه قوس مزخرف، وفي وسط الصليب يوجد رسم لرجل مما يؤيد الاحتمال أنه منظر لصلب السيد المسيح وزخرفة الصليب ملفتة للنظر لما فيها من تفصيلات تصور مصابيح مدلاه من ذراعي الصليب ومن القوس الذي يعلوه ، وأمام هذا الجدار أقيم مذبح من الطوب اللبن ، وإلى جوار الحجرة توجد صالة طولية كان المؤمنون يستخدمونها ككنيسة .



(شكل ٥٧) حجرة كبيرة في أحد المنازل كانت تستخدم ككنيسة في القرون المسيحية المبكرة ويمكن رؤية صليب على الجدار الشرقي



(شكل ٥٨) رسم تخطيطي للجدار الشرقي يبين تفاصيل رسم الصليب

وقد ازدهر المجتمع المسيحي بمرور الزمن حتى أنه تمكن من تشييد الكنيسة التي سلف وصفها . وباستطاعتي أن أؤكد إنه حينما يتم فحص هذه المواقع الأثرية بدقة فإننا سنجد معلومات قيمة عن القرون المبكرة للمسيحية في تلك الأماكن النائية والكائنة في قلب الصحراء ، هذا فضلا عن احتمال العثور على آثار جديدة من العصر الفرعوني ، وأنني لأرجو بحرارة أن تبدأ هذه التنقيبات قبل أن تصل مشاريع استصلاح الأراضي إلى هذه المنطقة، وما يتبعها من هجرة من وادي النيل، إن دمار الآثار القديمة حاليا في حكم المؤكد إذا استمرت مصلحة الآثار على إهمالها المعروف لآثار الصحراء.

الفصل الخامس

مقابر الباويطى

تحتل جبانه الأسره السادسه والعشرين التلال القريبه من العاصمة القديمة على جانبها الشرقى ، ويمكننا أن نحدد أماكن مقابر هذا العصر المنحوته فى الصخر تحت منازل الباويطى الحديثه وفى التلال الملاصقة لها مثل قاره السوبى وقاره قصر سليم .

المقابر المنقوشه فى الباويطى :

يبلغ عدد المقابر المنقوشه خمسه ، ثلاث منها تقع تحت المنازل المنحوته فى قاره السوبى (شكل ٥٩) ، والشيخ السوبى ولى محلى من المحتمل أن تكون مقبرته ذات القبه مقامه فوق ضريح أكثر قدما . أما المقبرتان الأخريتان فهما فى قاره قصر سليم بالقرب من أطلال بيت بنى فى القرن المنصرم ليكون مركزا للشرطه .

وأثناء زيارتى الأولى للبحريه رحت اسأل عن مقبره منقوشه رآها «بكلى» عام ١٩٠٨ وأخبرنى البعض أن المكان الوحيد المعروف لديهم يدعى «مغاره دوس» تحت منزل أسره «أبو خزام» وأما «دوس» فكان محصل ضرائب مسيحى مات فجاة فى البحريه حوالى عام ١٨٥٠ ، ولما لم يكن هناك مسيحيون بالواحه ليرتبوا عملية دفنه فقد قرر السكان أن أفضل حل هو دفنه فى واحد من مقابر أسلافه اذ لم يكن من المقبول دفنه فى جبانه المسلمين . وقد وجدت هيكله العظمى وما تبقى من ملابسه ، كان طربوشه على رأسه ولكن لم يبق شيء آخر من متعلقاته فيما عدا مشط وحافظه نقود خاويه وكان واضحا أن جثمانه «الدنس» لم يمنع جيرانه «الطيبين» من نهب نقوده وممتلكاته الأخرى ، وفى عام ١٩٣٨ استعنت باثنين من صناع الفضة الاقباط اللذين كانا يقيمان فى البحرية على اعاده دفن عظامه خارج القريه بعد قرابه تسعين عاما من وفاته وقام رفيقاى بقراءة ، فقرات من الكتاب المقدس وصلى ثلاثتنا على روحه .

حينما شرعت في تنظيف هذه المقبره لاحظت تردد العمال ، كانت عقولهم وقلوبهم العامره بالخرافه مليئه بنوع من الخوف من المكان الذى كان يحوى جثمان «دوس» وكان لزاما علىّ أن أبدأ بملء المقاطف بنفسي . وكانت الحجرة الأولى التى بدأنا العمل فيها مليئه بالرديم وحينما نظفت جزئيا وجدناها متصله ببقيه الحجرات وجدرانها مكسوه بطبقه من الجص وعليها صورت مناظر دينيه . وعندما أزلنا الرديم تماما وجدنا أن اللصوص القدماء لم يسرقوا هذه المقبره فحسب وأنما نهبوا مقبره أخرى مجاوره عن طريق كسر في الصخر الفاصل بين المقبرتين ، وفي العصرالروماني كان قد اعيد استخدام المقبرتين للدفن حيث عثرنا على بضعه توابيت حجريه وأخرى فخاريه تعرضت جميعها للنهب . ورغم أن أحد التوابيت الحجريه في المقبره الأولى كان قد فتح ونهب في الأزمان القديمه فانه نجا من لصوص العصر الحديث ووجدنا به بعض التمائم رغم أن كل الأشياء الأخرى كانت قد سرقت .

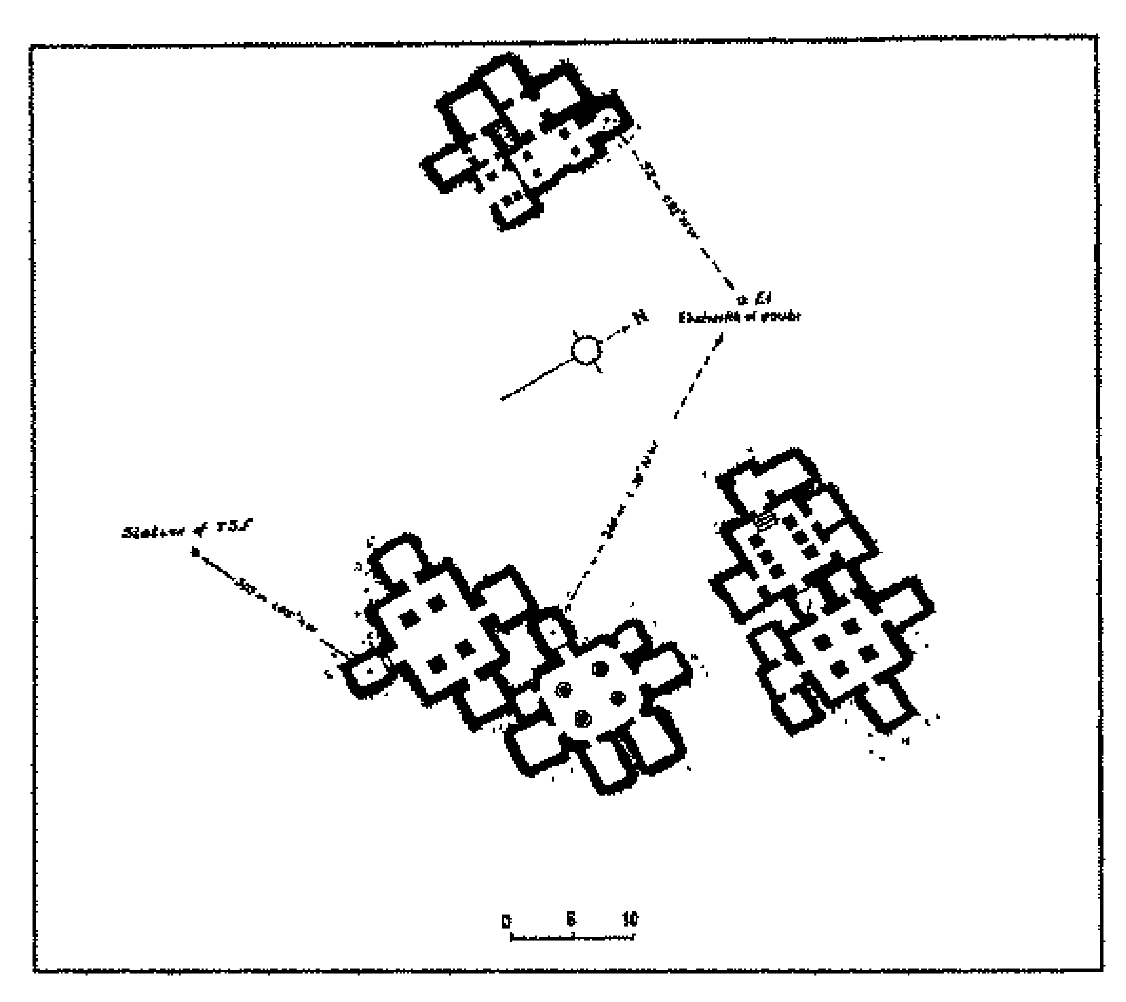
مقبره بادى عشتار :

كان بادى عشتار (والاسم يعني عطيه الاالهه عشتار) (١) كاهنا أكبر للاله خونسو وكاهنا للاله حورس ، وكان أبوه «حارخب» يحمل نفس الألقاب أما أمه فكانت تدعى «تا ارو» ويبدو أنه عاصر الجزء الأول من عهد «واح ايب رع» (ابريس) أو قبله بقليل اذ أننا نعلم من الآثار الأخرى بالبحرية أن ابنته «نعس» كانت والدة حاكم البحريه الشهير «جد خونسواف عنخ» الذى عاش في عهد الملك أحمس الثاني ، وقد استحوذ فرعان من هذه الأسره على كل المناصب المهمه في الواحه وكعضو من الفرع الأقل أهميه فان بادى عشتار كان الكاهن الأكبر لخونسو وكاهن حورس في حين أن ابن عمه كان حاكم الواحه وكاهنا لعديد من الآلهه بما فيها أمون رع وأوزيريس .

وما تبقى من مناظر هذه المقبره يعالج موضوعات دينيه ، اذ تصور طقوسا واحتفالات وارده في كتاب الموتي وتتعلق بالحياه الأخرى (شكل ٦٠) وقد قام بتصويرها فنان متمكن ومن سؤ الحظ أنه لم يبق منها الا بقايا ضئيله .

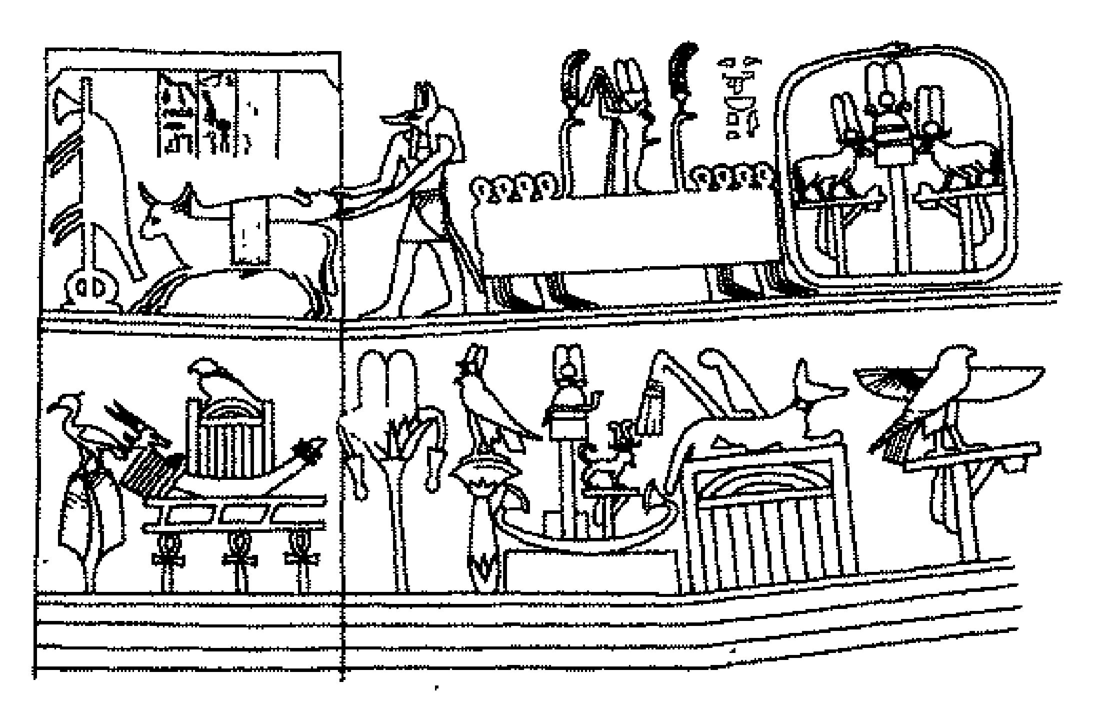
---

(١) لا يرد هذا الاسم في Ranke , Personennamen . وعشتار هي الالهه السوريه الشهيره التى قدمت عبادتها الى مصر مع الاسره الثامنه عشره وعاده ما تصور على هيئه امرأه برأس لبؤة . ويوجد تصويران طريفان لهذه الالهه في قدس الأقداس ؛ بمعبد هيبس بالخارجه ، أولهما يصورها ممتطيه صهوه جواد ويصورها الآخر مسلحه بالقوس والسهم .



(شكل ٥٩) خريطه توضيحيه لمقابر الباريطى

وتفتح المقبره ناحيه الشمال ويمكن الوصول اليها بواسطه بئر ، أما المقصوره التى كانت قائمه فوقها فقد اختفت تماما ، وتتكون من صاله بها أربعه أعمده سقفها مقبى وثلاث حجرات صغيره ، وبين الاعمده يقبع التابوت الاصلى ، ويوجد بالأضافه إلى ذلك تابوتان حجريان فى الصاله الصغيره ولكنهما يرجعان للعصر الرومانى حالهما حال تابوتين آخرين عثر عليهما فى الحجره الصغيره الأولى ، وقد قطع التابوت الأصلى بعنايه وزخرفت جدرانه من الخارج بالمناظر المعروفه والتى تصور ساعات النهار والليل وآلهه قاعه المحاكمه الاثنين والاربعين ولكن معظم الألوان غدت باهته أوضاعت تماما ولم يبق منها الا القليل .

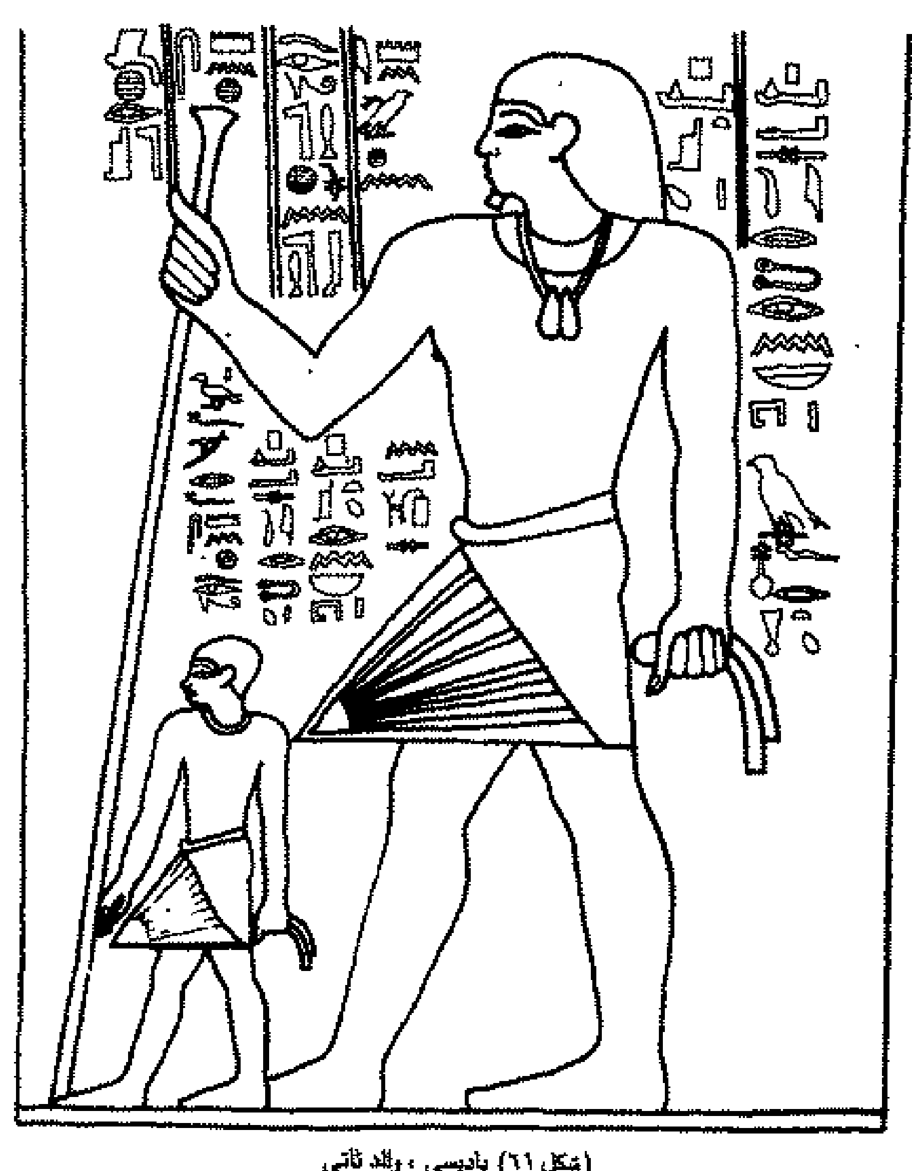


(شكل ٦٠) مثال من المناظر الدينيه في مقبره بادى عشتار بقاره السوبى

وأثناء تنظيف الصاله وجدنا بالقرب من التابوت أربعه جمارين وعشر تمائم وداخل التابوت نفسه وجدنا ثلاثث تمائم وهذه جميعها تنتمي إلى الدفنه الأولى .

مقبره ثاتي :

كان ثاتي حفيدا لبادى عشتار وقد حفر مقبرته في نفس التل خلف مقبره جده وإن كانت فتحتها تتجه ناحيه الجنوب ، وصخر هذا الجزء من التل من النوع الرديء (شكل ٦١) ، وقد انهار سقف المقبره كما تشققت جدرانها في مواضع عديده مما تسبب عنه تحطيم عدد من المناظر ، ونظرا لأن المهندس أخطأ في تقدير المسافة بين هذه المقبره وبين مقبره بادى عشتار فانه وصل في حفره حتى المقبره القديمة ولذلك اضطر إلى تغيير تخطيط الصاله ذات الأعمده وقد نهبت المقبره وأعيد استعمالها في العصر الروماني حيث عثر على ثمانيه توابيت مستديره من تلك الحقبه ولكنهما جميعا تعرضت لعبث العابثين في زمننا هذا .



(شكل ٦١) باديسي ، والد ثاتي

والمقبره مفتوحه للزوار منذ زمن ومن خلال كسر في جانبها الشمالي يمكن الوصول منها إلى مقبره بادى عشتار وفي عام ١٩٠٨ دخل بكلي كلتا المقبرتين عن طريق حفره في السقف الصخرى ورغم أن الصخور الآيله للسقوط جعلت تنظيف مقبره ثاتي عمليه شاقه الا أن العمل سار بطريقه مرضيه ولم تقع أيه حادثه .

والمناظر المصوره علي جدران الحجرات الثلاث تعالج ، كما هو متوقع ، مواضيع دينيه ففي الصاله ذات الأعمده يوجد تصوير لقاعه المحاكمه للاله أوزيريس وتصوير لرحله مركب الشمس ولرحلة القمر . ولم ترسم مناظر الجدران أو تلون بنفس العنايه التي رسمت ولونت بها مناظر الأعمدة فان المناظر هنا نفذتها يد ماهره لفنان مقتدر (شكل ٦٢) وتصور صاحب المقبره وزوجته . أما الحجره الثانيه ، وهي صغيره جدا ، فتحوي مناظر دينيه ومناظر من تلك التي تصور عاده مرافقه لفصول من كتاب الموتى ، وأخيرا فان الحجره الثالثه والتي قصد بها أن تكون حجره الدفن ، كانت مصوره هي الأخرى ولكن مناظرها جميعها اختفت تقريبا .

وقد صور ثاتي وأبو باديسي وأخوه الاصغر بادي عشتار وأعضاء أخرون من الاسرة لابسين ملابس مصريه تقليد به تتفق مع ذوق عصرها ولا تختلف عن الملابس التي نعرفها من مناظر أخرى (شكل.٦١) الا أن زوجته . . تا – نفرت – باستت ، وابنتها قد ارتديا ملابس غير مصريه (شكلا ٦٢ ، ٦٣) .

مقبره تا – نفرت – باستت

حفرت تا – نفرت – باستت خلف مقبره زوجها ثاتي ولكن العمل لم يكن قد انتهى فيها تماما ، وقد صورت في الجزء الذى انتهي العمل فيه في حفرة الآلهه ايزيس ، أوزيريس ، ونفتيس وهي ترتدى رداء طويلا أبيض اللون مزين بأهداب في حافته السفلي ، وهذه الملابس ذات الأصل الليبي معروفه لدينا من مقبره أخرى في البحرية وهي مقبره جد – أمون – آف –عنخ في قاره قصر سليم .

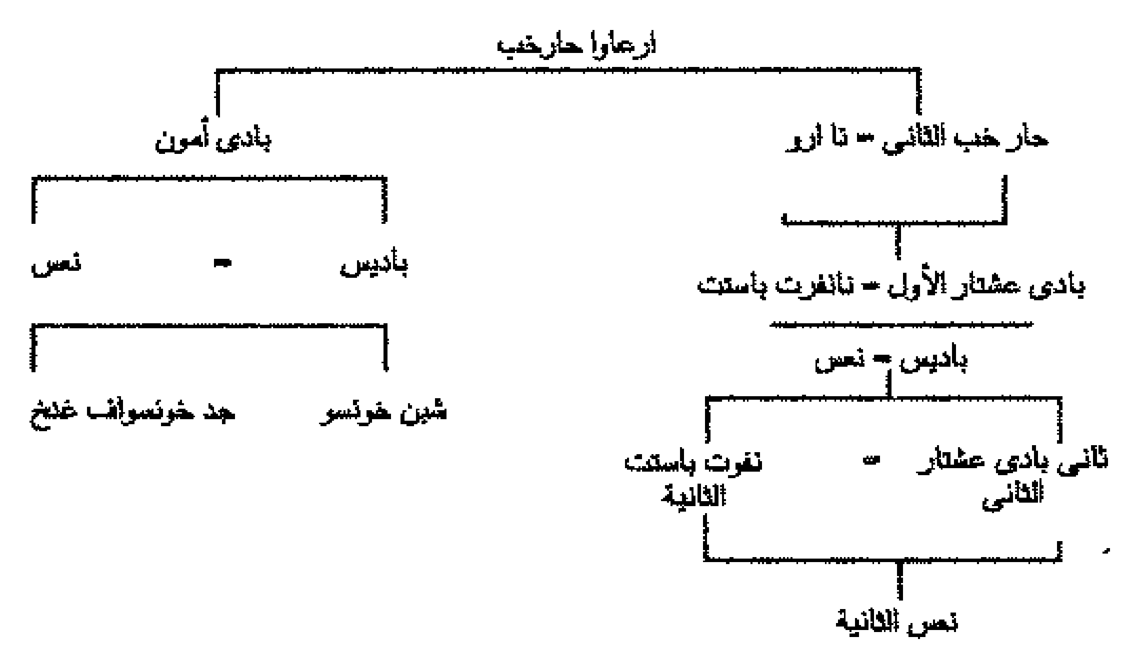
وقد صورت نسوه بملابس ليبيه على آثار مصرية أخرى وتختلف طرز الملابس على مر القرون ، فعلى جدران معبد ساحو رع من الأسرة الخامسه (من حوالي ٢٥٥٣ – ٢٥٣٩ ق . م) تلبس ابنه الزعيم الليبي رداءا يغطي الجزء الأسفل من جسدها وتلبس مشدا حول وسطها وشريطين حول صدرها [1] ، ١٤٥ وفي مقبره خنوم حتب ببني حسن ، من الأسرة الثانية عشره ، يوجد منظر يصور قافله من الليبيين ، وهنا تلبس السيدات تنوره طويلة مهدبة الحواف [2] تشبه في كثير من خصائصها ملابس النساء المصوره على جدران مقابر البحرية التي تعود إلى عصر الأسرة السادسه والعشرين .

(١) L . Borchardt , Sahurè II , PI . T ; See also w. Holscher ,Libger und Aegypter (1973) , pp . 14 - 16 .

(٢) Newbery , Beni Hassan T , pls . 45 and 47 (Tomb No . 14)

وكانت أسرة حكام وكهنه البحرية مغرمه بتسميه ابنائها بنفس أسماء أقربائها وحتى يتجنب القارىء الخلط بين مختلف الأشخاص فانني أعطى هنا شجره الأسرة . كان الجد الأكبر يدعى «ارعاواه وأنجب ابنه «حار خب» (ص ١٣٢) ولدين هما بادى – أمون وحار خب ،

وغدا كل واحد منهما رأسا لفرع من فرعى الأسرة ، وبمرور الوقت صار فرع بادى أمون أكثر قوه ونفوذا، وفى عهد الملك «واح – ايب – رع» (ابريس) صار «شين – خونسو» حاكما للبحرية وشرع فى بناء عده آثار هامة .



وقد خلفه أخوه جد – خونسو – اف – عنخ فى منصب الحاكم وفى كهانه عدد من الالهه الهامه . وحتى الآن لم يعثر على مقبره «ارعاوا» ولا على مقابر أفراد أسرته ، أما المقابر الثلاث الموجوده فى قاره السوبى فانها تخص «بادى عشتار» الأول وحفيده ثانى وتانفرت باستت الثانيه وهى أحدى حفيدته التى تزوجت من شقيقها ، وتقع هذه المقابر الثلاث بين منازل البحريه وليس لدى أى شك فى أن المنازل المجاوره لها تخفى تحتها الكثير من المفاجآت لباحثى المستقبل .

وعلى بعد أقل من ثلاثين مترا من هذه المقابر وجدت المداميك السفلى لمقصوره احدى المقابر والتى أطلقت عليها حينذاك اسم معبد الباويطى .



(شكل ٦٢) تانفرت باسدت زوجة ناثى وابنتها . وتختلف ملابسهما في بعض تفاصيلها عن ملابس السيدات وادى النيل في تلك الحقبه

معبد البـاويطى :

يوجد هذا المعبد ، أو بتعبير أدق مقصوره مقبره جد - خونسو - افـ - عنخ ، فى قاره السوبى كذلك بين منازل البـاويطى وعلى مسـافة قصيره من مقبـرتى بادى عشتار وثاتى . وقد عثرت على بقايا هذا الأثر تحت المساكن بعد اعاده ردم الحفائر



(شكل ٦٣) نفس السيده تلبس رداء آخر وتصب ماء من أناء معدني

وبعد اعاده بناء الحجرات والمنازل التى كان من الضرورى هدمها لاجراء الحفائر . وانى لعلى يقين من أن مقابر أفراد هذه الأسرة من كهنه وحكام توجد فى هذه الأكمه، واذا ما أجريت تنقيبات حقيقية فى هذا الموقع فسيعثر على مقابر مزخرفه لأجيال عديده متعاقبه من الرجال والنساء .

صحيح ان الأمل ضعيف في العثور على مقاصير المقابر لأنه خلال القرون أزال القرويون أحجار الأجزاء العليا من المقابر واستخدموها في بناء منازلهم وغيرها ، كما أن الأمل ضعيف في العثور على أي من المقابر لم تتعرض للنهب أو العبث ومع هذا من المحتمل العثور على صور ونصوص على الجدران الموجوده تحت سطح الارض حتى ولو لم تكن في حاله طيبه .

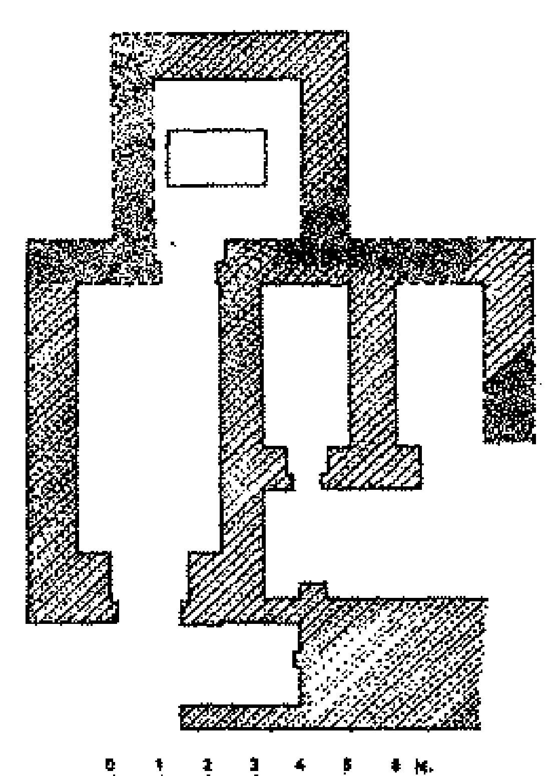
وكما سبق أن أشرت فانني حينما بدأت اجراء حفائري في البحريه كنت على علم بوجود مقبره مصور تحت منازل الباويطي ، ولكن رغم أن بقايا هذا المبنى الحجرى كانت قريبه من موقع عملي الا أنني لم أستطع أن أتخيل وجودها اذ أن أيا من جدرانها لم يكن ظاهرا على سطح الأرض أو في أفنيه المنازل التي تيسر لي دخولها وفيما يلي أعطى للقارىء قصته الاكتشاف :

- لكي أشجع الأهالي على الارشاد عن أماكن الأحجار المنقوشه أعلنت أنني سأدفع قرش صاغ واحد لكل من يرشد عن مكان حجر منقوش سواء أكان ملقى في العراء أو مبنيا في منزل ، واذا ما انتزعت حجرا فانني سأدفع لصاحبه بسخاء في مقابله .

وأنتج العرض نتائج مثمره ودلني الأهالي على العديد من الأحجار المنقوشه ، وفي أحد الأيام طلب مني رجل من الباويطي أن أصحبه الى منزله ، وهناك شاهدت حجرين منقوشين مبنيين في أحد الجدران الداخلية ، وفي مثل هذه الأحوال يهمني كثيرا أن أسال عن تاريخ الجدار وعما اذا كان الناس يذكرون المكان الذي أتوا منه بالأحجار ، ولكنهم عاده ما يجيبون أما بقولهم بأن الجدار قد بني منذ وقت بعيد ، حتى قبل أن يولدرا ، أو أن الحجر قد جيء به من ركام جدار منهار ، ولكن أين مكان ذلك الجدار ؟ لا أحد يذكر . ولكن في حالتنا هذه كان الأمر مختلفا ، لقد أخبرني الرجل أنه اقام الجدار بنفسه وأنه أتى بالحجرين المنقوشين من حائط قديم يملكه أحد أقربائه الذي لا يسكن بعيدا ، ثم اضاف القول بان كل الأحجار في ذلك الحائط القديم تشبه هذين الحجرين ، فوعدته عشره قروش ان هو أراني ذلك المكان ، وفي أقل من ربع ساعه كنت في منزل ذلك القريب الذي بدا على الفور يزيل بعض التراب ليكشف عن وجه الأحجار المكتوبه ، وأعطيت صديقي الجديد العشره قروش وعينته ريسا لتسعه عمال اخذتهم من بين أقربائه وبدأنا التنقيب في اليوم التالي ، ولكن النتائج لم تكن هي التي توقعتها فان جدران الاثر كانت قد استعملت بمثابه حجر وهكذا اختفت تماما بعض حجراته دون أن تترك أي أثر على الصخر يهدي المستكشف في اكمال

رسم التخطيط الأصلي للمبني وكان أقصى ارتفاع لأى جدار متبقي لا يزيد عن ٨٧ سم .أما متوسط الارتفاع فكان حوالى ٤٥ سم . أما النصوص المتبقيه فكانت عباره عن مقتطفات من فصول كتاب الموتى ولكنها كانت في حاله سيئه .

وكما نرى من الخطه (شكل٦٤) فان هذا الأثر كان يحتوى على مدخلين أحدهما يؤدى ا لى المقصوره الرئيسيه والآخر يؤدى الى جزء منفصل من المبنى ، والتخطيط لا يزال ناقصا ولكن بقيه المقصوره والبئر المؤدى الى المقبره ، فيما يحتمل ، لا يزالان في انتظار من يكشف عنهما . لم يكن بامكانى أن أستمر في التنقيب لأن أصحاب المنزل المجاور راحوا يثيرون المصاعب ورفضوا أن يهدموا منزلهم حتى بعد أن وعدتهم باعاده بنائه لهم .



(شكل ٦٤) خطه مقصوره مقبره جد – حونسو – اف – عنخ
حاكم البحريه أيام أحمس الثانى

ونقوش الجدران مكتوبه بعلامات صغيره فى خطوط رأسيه من النقش الغائر ،والجدران مدهونه باللون الأبيض فى حين أن العلامات الهيروغليفيه ملونه بالأزرق (شكل ٦٥) ، والجانب الأيسر للمدخل المؤدى الى المقصوره الجانبيه مهدم ولم يبق منه الا الجزء الآسفل الذى لا يحمل أى نقوش ولكن ربما كانت نقوش ذلك الجانب مشابهه لنقوش الجانب الأيمن ، وهنا نجد الملك أحمس الثانى مصورا على هيئه أبو الهول برأس انسان يمد ذراعيه ناحيه مائده قرابين محمله بالزهور (ش ٦٦) ، وفوق أبو الهول يوجد خرطوشان للملك مشوهان جزئيا وترافقهما الدعوات التقليديه ، وخلف الملك نرى أرجل وأقدام رجل وأمرأه يتجهان ناحيه اليمين وأمامهما توجد كوه عمقها ٣٠ سم وعرضها ٧٦ سم ، وليس من المعروف ما اذا كان الشخصان يمثلان الها والهه أم صاحب المقبره وزوجته ، وثمه لوحه مثبته فى الجدار وكتابات هيروغليفيه مكتوبه على يسارها وتحتها ولكن ما تبقى من كلمات لا يضيف الا القليل لمعلوماتنا لأنها تتألف من الدعوات التقليديه وقائمه بالأنواع المختلفه للقرابين .

ولن أستطيع أن أعطى تفصيلات النصوص الهيروغليفيه فى هذا الكتاب وعلى من يبغى الاستزاده أن يرجع الى كتابى Bahyia I , pp . 9 - 19 ولكن قبل أن أنتهى من وصف هذه المقصوره ينبغى أن أشير الى أرضيه الحجره الداخليه للمقصوره الجانبيه حيث توجد حفره تبلغ ٢١٠ سم طولا و١٢٥ سم عرضا وثلاثه سنتيمترات عمقا ومن المحتمل أنه كان تقوم بها قاعده ، وضع فوقها ناووس .

فى هذا المبنى نجد بقايا المقصوره الوحيده التى تم الكشف عنها حتى الآن وبجانبها توجد مقصوره مستقله أقيمت على شرف الملك أحمس الثانى ، ولم تحتفظ النقوش باسم بانيها ولكن يرجح أنه كان جد – خونسو – اف عنخ أو أحد أفراد أسرته .



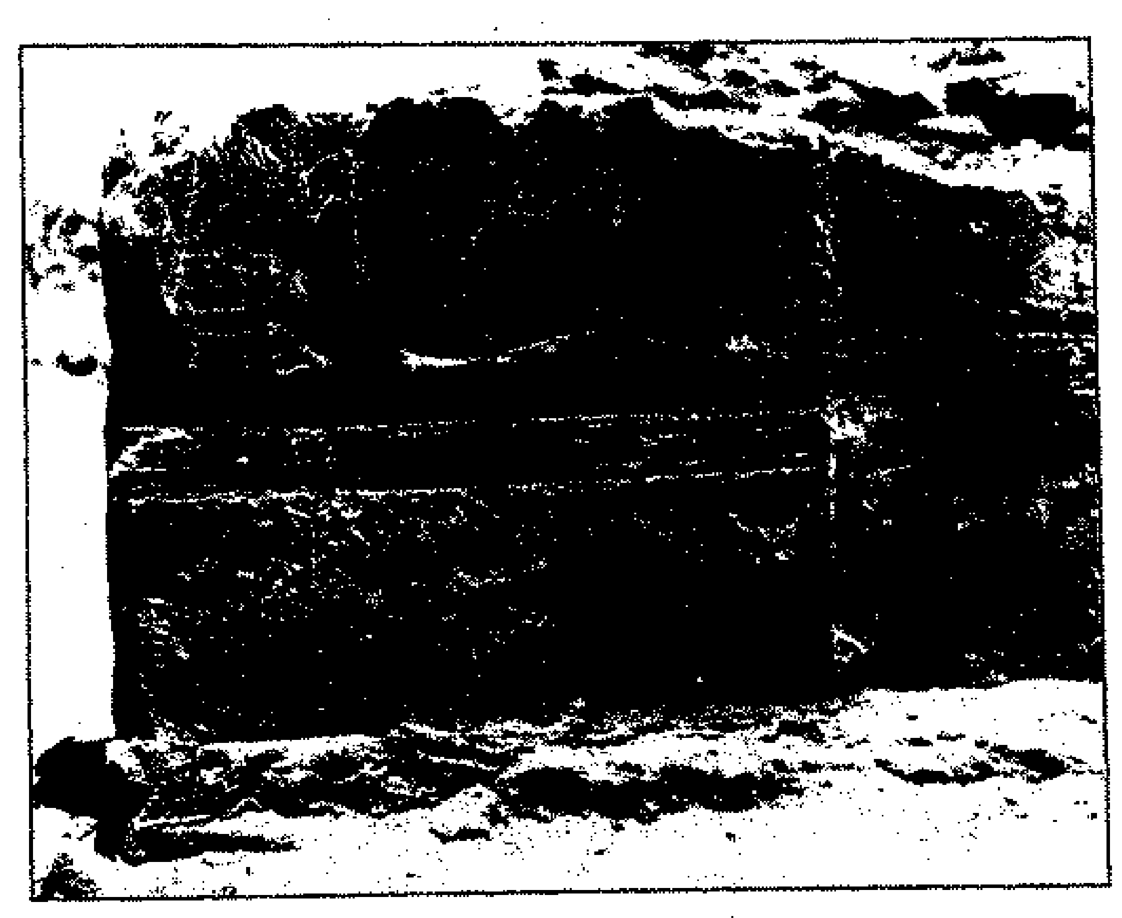
(شكل ٦٥) الجزء الأسفل لركن احدى الحجرات ، أما الأجزاء العليا للجدران فقد أزيلت عن آخرها

مقابر قاره قصر سليم :

الى الشرق من قاره السوبى توجد اكمه أخرى تدعى قاره قصر سليم ، هنا اكتشفت أربع مقابر اثنتان منها تحتويان على مناظر مصوره لا تزال فى حاله ممتازه أما الاخريتان فهما خلو من الزخارف ، وقد أعيد استخدام المقابر الأربع للدفن فى العصر الرومانى وكلها تعرضت للنهب فى الأزمان الحديثه ، وصاحبا المقبرتين المزخرفتين هما : جد - أمون - اف - عنخ ، وابنه : بانتيو ، ولا ينتسب أى منهما الى أسره الكهنه وانما ينتميان الى أسره غنيه من ملاك الأرض أو التجار لا سيما وأن النصوص لا تعطيهما أى ألقاب اداريه أو كهنوتيه .

مقبره – جد – أمون – اف – عنخ

يمكن الوصول الى حجره الدفن في هذه المقبره من طريق بئر عمقه ٤٩٥ م وتتجه فتحته ناحيه الغرب ، وقد قطعت المقبره في قمه الأكمه ، أما المقصوره التي تعلوها فلم يبق منها شيء وكان المدخل المؤدي الى حجره الدفن مسدودا بكتله كبيره من الحجر الرملي وتعلوه زخرفتان تمثلان قرصي الشمس المجنحين أحدهما فوق الآخر ، وصور الاله حورس علي اليمين والاله تحوت علي اليسار ، وكل هذه الاشكال مصوره بالجص . وقد نهبت المقبره في العصور القديمه وكانت مفتوحه في العصر الروماني حيث أعيد استخدامها للدفن ، وفي أماكن الأبواب الوهميه قطعت الجدران لاعداد مواضع دفن جانبيه وان كان ذلك لم يؤثر كثيرا علي الصور الجداريه (شكل ٦٧) .



(شكل ٦٦) الملك أحمس الثاني مصور علي مدخل مقصوره مقبره الحاكم

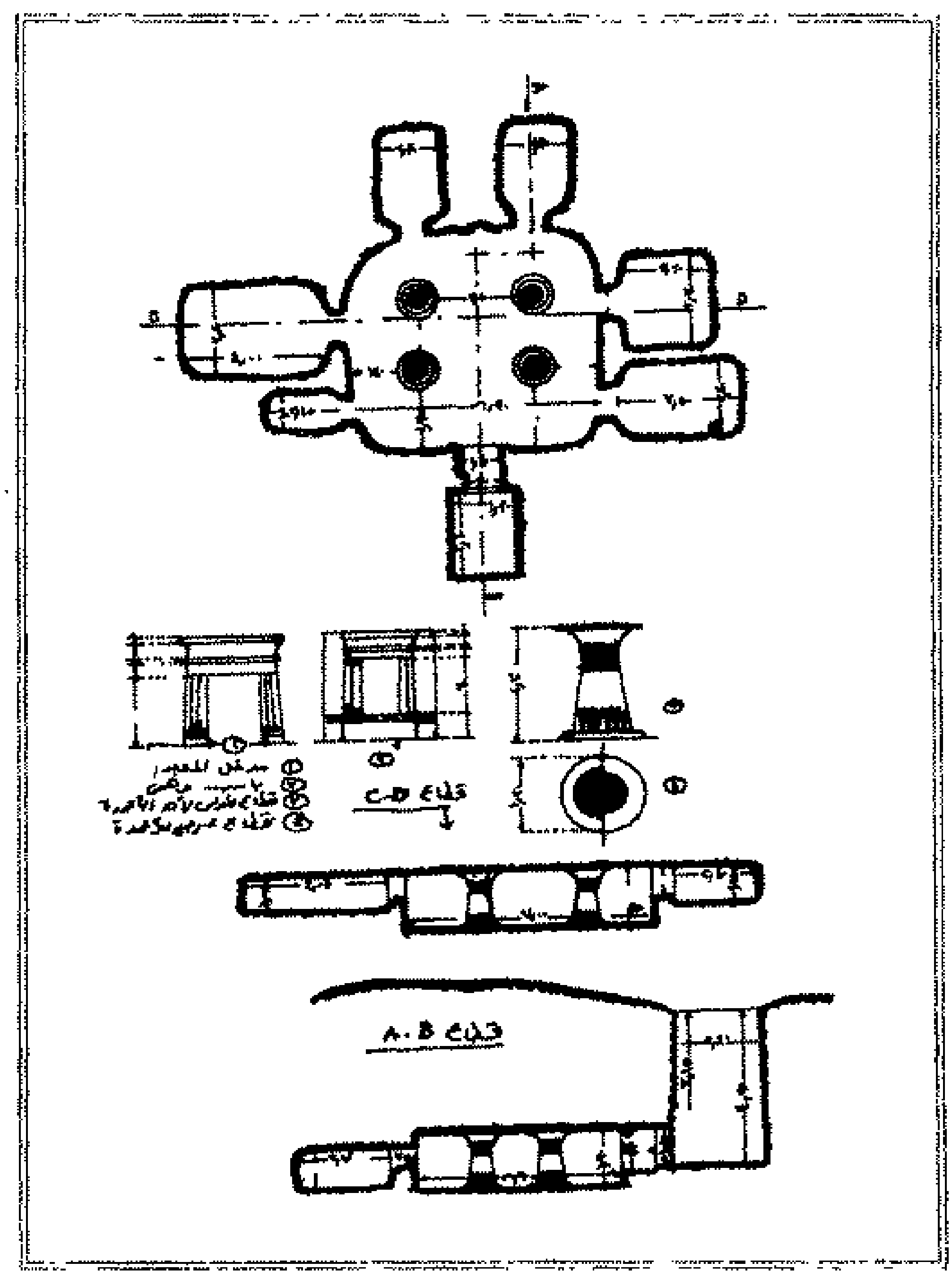
وحينما نظفت البئر من الردم والرمال ودخلت حجره الدفن في ١٨ يناير سنه ١٩٣٨ كانت الحجره نصف مليئه بالرديم ولم يترك لي اللصوص الا بقايا مومياوات متأخره وقطع من شقف التوابيت الفخاريه وكسر زهريات فضلا عن قطع خشبيه ولكن صور الجدران المحفوظه في حاله جيده كانت مكافأه طيبه لي (شكل ٦٨) وكان السقف مدعوما بأربعه أعمده منحوته في الصخر مزخرفه الجوانب وذات تيجان على هيئه زهره البردي (١) .

كانت الجدران مغطاه بالمناظر الدينيه ولكن ترتيبها يختلف عن ترتيبها في المقابر الأخرى بالواحه البحريه ، وكان الفنان الذي زخرف المقبره مغرما بتصوير الأبواب الوهميه والأعمده أكثر من المعتاد . وقد صور جد – أمون – اف – عنخ يقدم القرابين للالهه في اماكن عديده من حجره دفنه ، وهناك عده مناظر أخرى تتعلق بطقوس من الحياه الأخرى وبحمايه المومياوات (شكل ٦٩) ، وكان أبوه يدعى ، وبن – اعح ، بمعنى ، القمر يتألق ، أما زوجته التي صورت معه في المقبره فكانت تدعى ، دي ايسه – بكن ، ابنه ، خونسو – اروس ، ومن الجدير بالذكر أن ، وبن – اعح ، كان والد ، بانتيو، صاحب المقبره المجاوره والتي سنصفها بالتفصيل فيما بعد .

ويقسم صفا الاعمده السقف الي ثلاثه أقسام وفي كل قسم صور صف من اثنتي عشر رخمه محلقه (رمز الالهه نخبت) على أرضيه زرقاء ،رمزا للسماء، وفي المساحات الخاليه تظهرنجوم ملونة باللون الأصفر ومعظم النجوم خماسية وإن كان بعضها سداسيا ووجه السقف غير مستو كما أن معظم الجص الذي كان يغطيه قد سقط .

---

(١) ان الاعمده في مقابر الأسره السادسه والعشرين الأخرى في البحريه أما مربعه او مستطيله وجوانبها مزخرفه بصور لآلهه أو الأشخاص ، والمقبره الوحيده بالبحريه التي تحتوي على أعمده اسطوانيه هي مقبره أمنحتب حاكم البحريه والموجوده في قاره حلوة وهي مؤرخه فيما بين الأسرتين الثامنه عشره والتاسعه عشره .



(شكل ٦٧) خطة وقطاعات مقبرة جد – أمون – اف – عنخ في قارة قصر سالم

مقبره بانتيو(١)

قطعت مقبره «بانتيو» على مسافة ١٥ مترا من مقبرة أبيه وهى فى حاله أحسن وهذه هى المقبره التى عادة ما يدخلها الزوار ولذا فاننى سأشرح اثارها بشيء من التفصيل .



(شكل ٦٨) صور جداريه من نفس المقبره

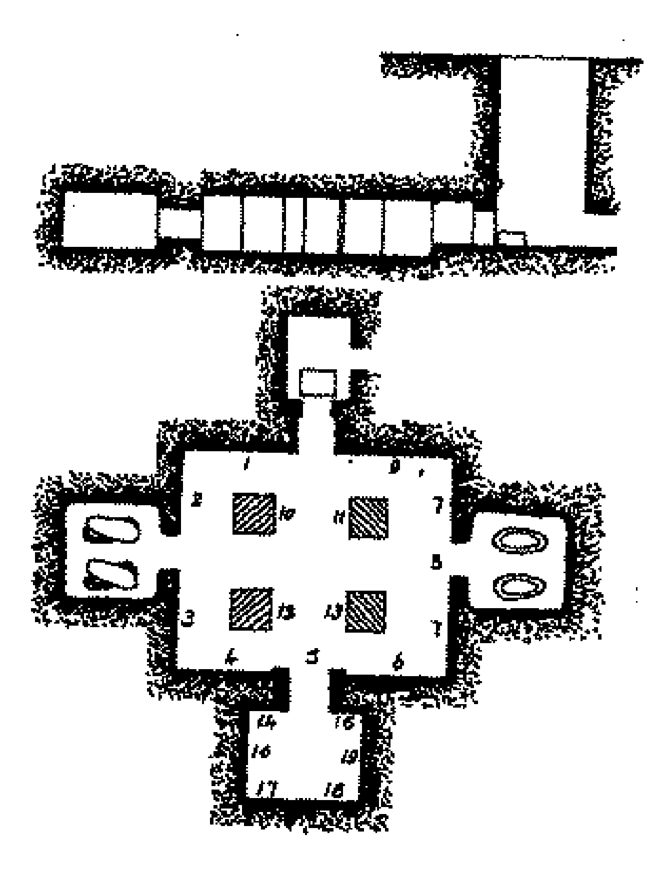
(١) يمكن نطق هذا الاسم « بناتى » أو « بنيوتى » اذ أنه كتب بطرق مختلفه فى نصوص المقبرة ورغم أن نطق « بانتيو » ليس أفضلها وربما لا يقبله بعض الزملاء فانى فضلت الاحتفاظ به لأنه هو الذى ورد فى مقالتى الأولى ونعرف المقبره بهذا الاسم في الكتابات الأثرية . ومن الواضح أن الاسم غير مشتق من أصل مصرى وربما كان منحدرا من أصل ليبى .

(ص ١٤١) لم تبق أية آثار للمقصوره التي كانت مقامه فوق المقبره ، ونصل الى حجره الدفن عن طريق بئر عمقه سته أمتار وعند قاع البئر يوجد مدخلان أحدهما في الجانب الشمالي ويؤدى الى الغرف التي كانت مخصصه لدفن « باننتيو » أما الآخر الذي يفتح ناحية الجنوب فيؤدى الى مقبره ناقصه خاليه من الزخارف وربما كان يجرى اعدادها لدفن زوجته (شكل ٧٠) .

وقد نحتت جدران مقبره « بانليتو » بعنايه ظاهره ، أما المناظر المصوره على جص الجدران فكانت في حالة ممتازه رغم أن المقبره تعرضت للسرقة في الأزمان القديمة وأعيد استخدامها لدفنات جماعية في العصر الروماني .



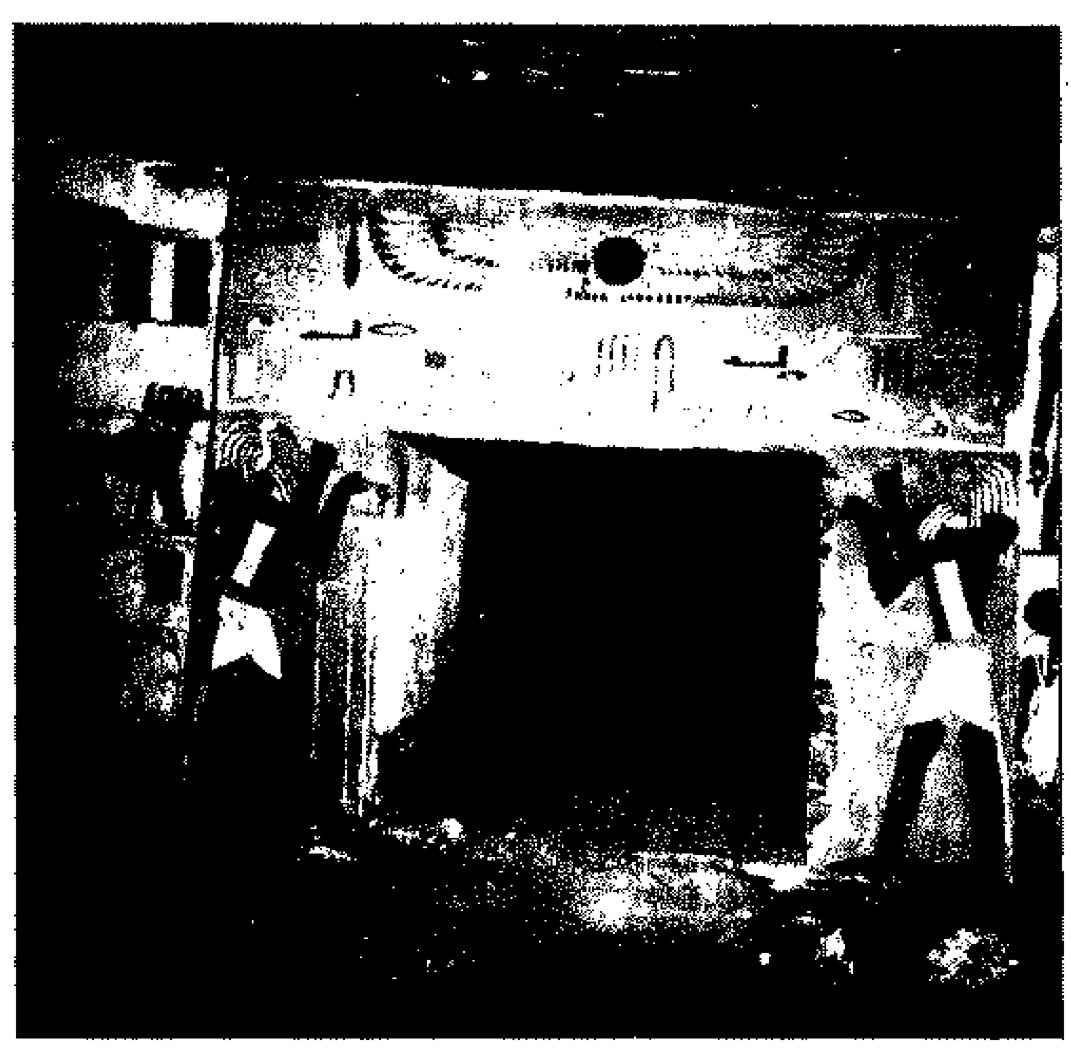
(شكل ٦٩) صورت عدة أبواب وهمية على جدران المقبره
ولكن قطعت فيها حجرات جانبيه استخدمت للدفن في العصر الروماني



(شكل ٧٠) خطة مقبرة بانثيو في قصر سليم

وحينما عثرت على المقبره فى ٢٢ أبريل سنه ١٩٣٨ التقطت صورا فوتوغرافية لكل المناظر والنقوش كما نسخت كل النصوص ، ولكن حينما أعدت فتحها بعد عام واحد لرسم المناظر وجدت أن بقعا سوداء بدأت تظهر على الجدران وأن بعض النصوص المكتوبه بالمداد الأسود على أرضية صفراء قد بدأت تبهت وفى أماكن أخرى من المقبرة بدأ لون أسود يغطى الجدران (شكل ٧١) وهذا راجع الى طبيعة الصخر الحديدية فى هذه الواحة .

وتتكون المقبرة من صالة ذات أعمده وثلاث حجرات جانبية ، وفى حين أن الحجرة المواجهة للمدخل مزخرفة فان الحجرتين الاخريين خاليتين من المناظر ، أما السقف فقد كسى بطبقة من الجص ورسمت فوقه مناظر .



(شكل ٧١) منظر فى مقبرة باننتيو ويرى حورس وست على جانبى مدخل حجرة الدفن

وسأعطى هنا وصفا للمناظر بادئا من الجانب الأيمن للمدخل كما هو مبين فى الشكل المرافق (شكل ٧٠) .

(١) نرى هنا كاهن ، أيون – موت – اف ، يقدم صاحب المقبرة الى الاله أمون رع الذى يتبعه الاله حورس برأس صقر ، وخلف ، باننتيو ، يقف الاله أنوبيس رب الجبانة . أما بقية الجدار فتشغله ستة ألوية عليها شارات الآلهه وبواوت ، حورس ، أبيس (اله العجل) ، نفرتوم ، رع حور آختى ، خونسو .

الجدار الشرقي :

توجد حجرة جانبية قطعت في وسط هذا الجدار ، والى اليمين صورت خمس من شارات الآلهه الستة المصورة على الجدار الذى سبق أن وصفناه ، أما الشارة السادسة ، أى شارة الاله نفرتوم ، فقد صورت ، منفصلة على طاولة موضوعة على قاعدة في حين صورت الالهه ايزيس مجنحة على اليمين وأختها الالهه نفتيس على اليسار .

(٣) (١) صور الفنان هذا منظرا يمثل تحنيط الجثة في حضرة كل من أوزيريس – وننفر والاله حورس ، ففى الصف الأعلى نرى أنوبيس يحنط الجثمان فى حين صورت ايزيس ونفتيس فى وأضع حداد وروح بانتيو (البا) ترفرف فوق المومياء.

الجدار الشمالي :

ان المدخل المؤدى الى حجرة الدفن يوجد فى وسط هذا الجدار ، والى اليمين يوجد منظر يصور رحلة القمر اما الى اليسار فتوجد مناظر رحلة الشمس .

(٤) رحلة القمر :

صور هذا المنظر في صفين (شكل ٧٢) ، ففى الصف الأسفل نرى الاله شو يرفع عارضة ملونة باللون الأزرق ترمز الى ماء السماء وعليها تقف (فى الصف الأعلى) الالهتان ايزيس ونفتيس وتلمس كل منهما قرص القمر بيد فى حين ترفع اليد الأخرى في حركة تعبد ، أما عن القمر نفسه فقد صور الهلال يحتضن القرص المكتمل فى حين نرى خونسو (على هيئة طفل) جالسا بداخله وثمة أربع سلاسل من علامات الحياة تسقط من القمر لتغمر الاله شو ، وخلف الالهه ايزيس يقف ثلاثة آلهه أما خلف نفتيس فيقف الهان مذكران والهة مؤنثة . وفى الصف الأسفل نرى الآلهه الثمانية المرتبطة بمدينة الاشمونين (الثامون) أربعة ذكور وأربعة أناث . فمن المعروف أن الاشمونين كانت مركز عبادة القمر ولذلك فمن المناسب أن نجد آلهتها مصورة فى هذا المنظر ، ومن الجدير بالملاحظة أن القمر فى هذه المقبرة ، وكذا فى مقبرة ثانى ، اعتبر مصدرا للحياة مثل الشمس سواء بسواء .

---

(١) لا يوجد رقم (٢) فى الاصل الانجليزى (المترجم)

ان للقمر أهمية بالغة بالنسبة لسكان المناطق الحارة لا سيما أولئك الذين يعيشون في الصحراء اذ أنهم خلال شهور السنة الحارة يفضلون السفر بالليل لتجنب قيظ النهار وفضلا عن ذلك فان القمر يعاونهم في التقويم في حين ان الشمس لا تفيدهم في هذا الشأن الا مرة واحدة في العام ، فلا عجب اذن أن نجد عبادة القمر تحتل هذه المكانة الرفيعة في الواحات .

ومن المرجح أن عبادة تحوت كاله للقمر بدأت في مصر مع بداية عبادة الشمس وربما كانت أقدم منها خاصة وأننا نجد اشارات الى أعياد تحوت في مقابر الاسرتين الأولى والثانيه ، وربما نبعث عبادته آصلا في الدلتا ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط أين بدأت وخلال الدولة القديمة وجدت عبادة تحوت سبيلها نحو مصر الوسطى ، فأقيم معبد له في الأشمونين حيث عبد مع آلهه المدينة الآخرين ، وفي عصر الأسرة الثانية عشرة كانت له معابد كثيرة في طول مصر وعرضها ومع قدوم الأسرة الثامنة عشرة اكتسبت عبادته مكانة ممتازة في كل مكان واستمرت هكذا طوال ما تبقى من التاريخ الفرعوني ، وهنا في البحرية نجد عبادة القمر اما باسم تحوت ، أو باسم خونسو ، وهو الاكثر شيوعا ، ذات أهمية واضحة حتى ان عائلة الكهنة من الأسرة السادسة والعشرين والتي أقامت آثارا ضخمة كان أفرادها في الواقع كهنة للاله خونسو وينبغي أن نضع في اعتبارنا ارتباط هذه الواحة بمصر الوسطى طوال الوقت .ونحن نعرف عن مناظر رحلة القمر من الآثار الموجودة في الوادى وعادة ما نجد اله القمر مصورا في قارب ومبحرا في السماء (١) .

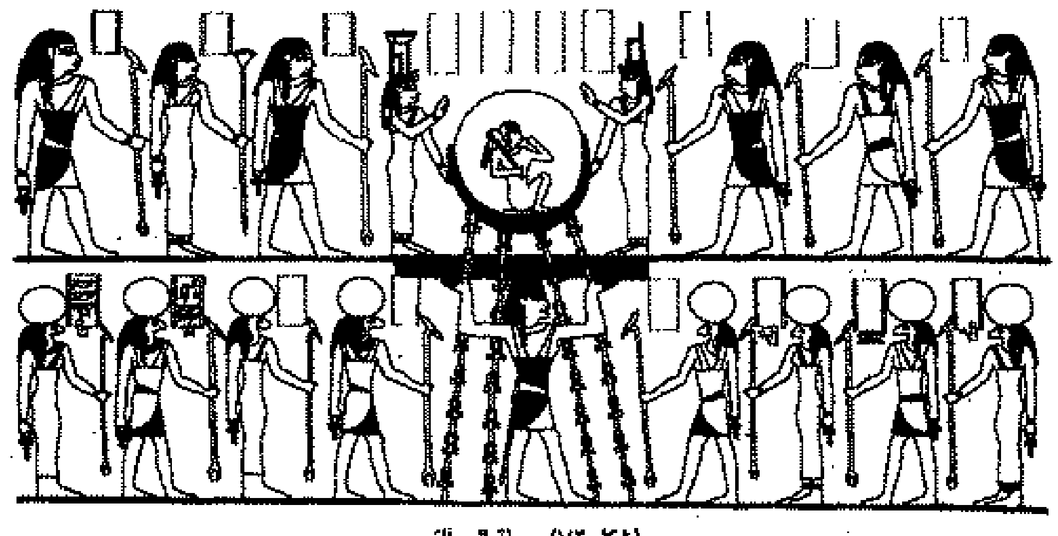
(٥) وعلى جانبي المدخل المؤدى الى حجرة الدفن توجد صور بديعة ، فعلى اليمين يقف الاله حورس وعلى اليسار يقف الاله تحوت وكل منهما يسكب مياه التطهير من أناء بين يديه .

---

(١) انظر على سبيل المثال

Lanzone, Dizinario , Pls . 37 , 38 , 168 ,169 , 171

انظر كذلك . BUDGE, Egyptians . I , p . 413 and II p. 321



(شكل ٧٢) رحلة الى القمر

(٦) رحلة الشمس :

على الجانب الآخر من الجدار الشمالى يوجد منظر رحلة الشمس موزع بين صفين ، ففي الجزء الأوسط للجدار صورت مركب الشمس في حين يرى الاله شو يرفع المياه بيديه وأمامه وخلفه الهان ممثلان على هيئة القرد ولكن بروؤس أدمية يساعدانه فى رفع المياه (شكل ٧٣) وهؤلاء للاعمدة الأربعة التى ترفع السماء عن الأرض ، وعند طرفي الجدار يوجد أربعة قرود (في كل جانب) يرفعون أيديهم علامة على التعبد ، وهم في الواقع ثامون الأشمونين وداخل قرص الشمس يجلس اله الشمس «رع حور آختى» على عرش وأمامه تقف الاله سخمت وهى تلعب على شخشيختين .

يرى الاله حورس الآله العظيم وسيد السماء ، جالسا على مقدمة المركب التى تتدلى منها ستارة فى حين يقف حورس آخر قابضا على رمح بكلتا يديه استعداد لقتل أعداء الاله رع ، ويقف خلفه الاله تحوت ، مصورا على هيئة قرد ، حيث يقدم لاله الشمس علامة العين «وتات» التى يعلوها رمزا لحق (الريشة) . وعلى مؤخرة المركب يقف طائر البا وعلى رأسه قرص الشمس وأمامه يقف الاله حورس يتولى أمر المجدافين اللذين يقومان مقام الدفة ، وفي وسط المركب ، بين حورس وقرص الشمس ، يقف اله

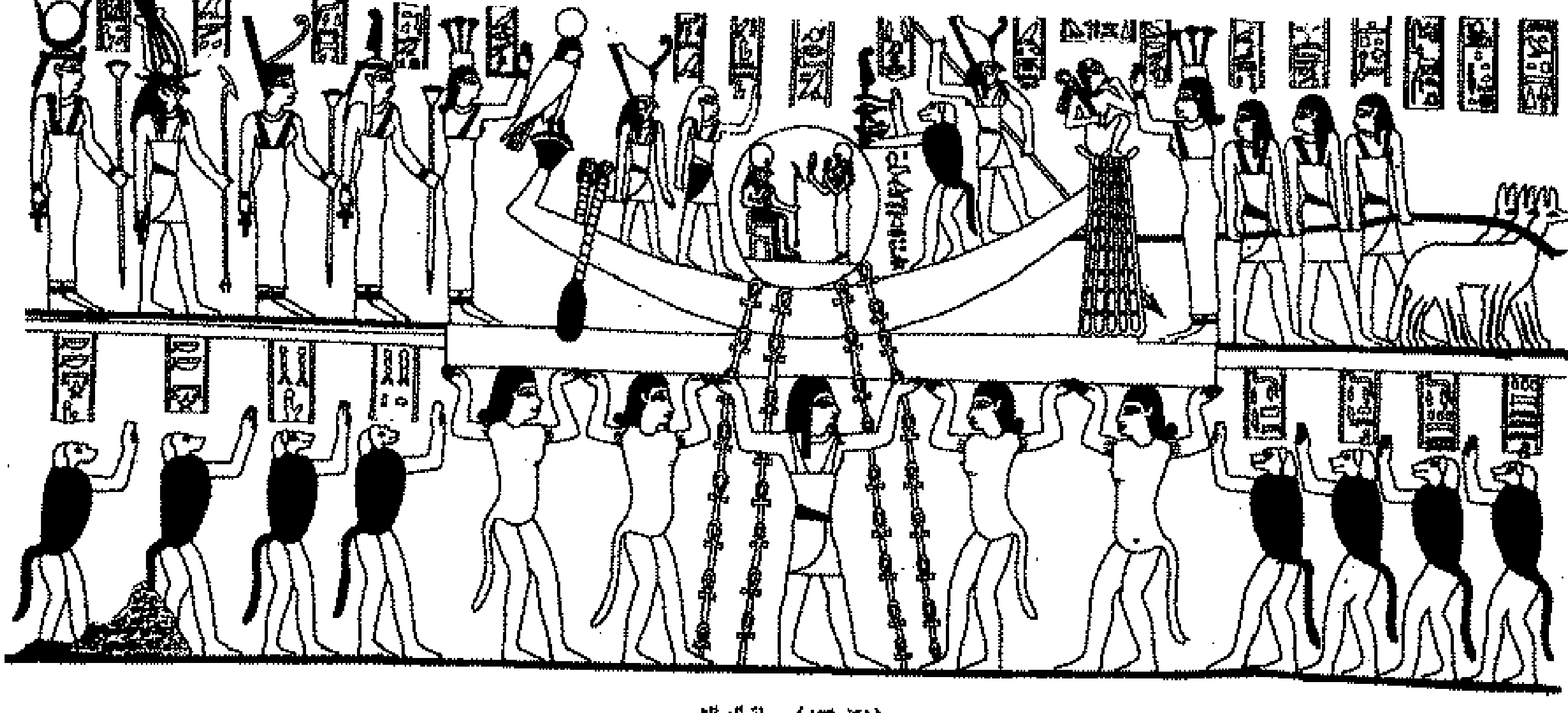
يمثل « حو » و « سا » أي « كلمات » القوة » و « المعرفة » وأمام وخلف مركب الشمس مباشرة تقف الهتان رافعتان ذراعيهما ومن المفترض أنهما ترتلانالأغاني ، انهما الالهتان « مرت » (الشمالية والجنوبية) المرتبطتان عامة بالفيضان ومياه الرى وتنتمي احداهما الى الدلتا بينما الأخرى الى الصعيد وليس من المألوف أن تظهر هاتان الالهتان في مناظر رحلة الشمس على آثار وادى النيل ، ولكن يبدو أنهما شغلتا مكانة ممتازة في الواحات لا سيما وأن وجود الأهالي والحدائق والحقول يعتمد في المجال الأول على وفرة المياه ، وكثيرا ما يرد ذكرهما على آثار هذه الواحة والواحة الخارجة، وخلف « مرت » الجنوب يقف أربعة أرباب هم ماعت ، نيت ، حورس ، وحاتحور .

(٧) الجدار الغربي :

لم يكن العمل في تصوير مناظر هذا الجدار قد تم حينما وافت صاحب المقبرة منيته ولذلك أكمل جزء منها على وجه السرعة . على الجانب الأيسر للجدار نرى صاحب المقبرة مصورا وأمامه مائدة قرابين ، يرفع كلتا يديه متعبدا لآلهته ثمانية اثنان منهما على يسار الباب المؤدى الى الحجرة الجانبية وستة على يمينه ، وثمة شكل صغير ، يرجح أنه ابن لبانتتيو صور على عجل فوق مائدة القرابين ، وسبعة من الآلهه الثمانية هم : (١) رع حور أختي (٢) عبعست ورمزها القنفذ مصور فوق رأسها، (٣) أتوم ، (٤) أيزيس ، (٥) حقاى ، (٦) سخمت و (٧) با – نب – ددواله منديس ذو رأس الكبش .

وفي (٨) على حسب الشكل نجد المدخل المصور والمؤدى الى الحجرة الجانبية .

(٩) لم يكن العمل قد انتهى كذلك في الجانب الغربي من الجدار الجنوبي عند وفاة بانتتيو والاشكال الباقية عليه مرسومة اما بخطوط صفراء أو أنها تلقت أول « وش » من التلوين وهنا نرى صاحب المقبرة حاملا لوحة كتابة تحت ذراعه يسبقه كاهن « ايون – موت – اف » ، ويتبعه الاله انوبيس وأمامه مائدة قرابين والالهة التي يقدم بانتتيو قرابينه اليها هي : أوزيريس ، ايزيس وحورس .



(شكل ٧٣) رحلة اله الشمس

الأعمدة :

ان الأعمدة الأربعة المنحوته في الصخر قد كسيت بطبقة من الجص ، وقد صور من كل منها الجانب المطل على محور الصالة ، وقد رتبت الرسوم على الأعمدة الأربعة بنفس الطريقة ، ففي القمة يوجد قرص الشمس المجنح وتحته يقف الهان ينظران صوب مدخل المقبرة (شكل ٧٤) وتوجد نصوص فوق الالهين وعلي جانبي العمود .

(١٠) هنا يقف الاله حب ، اله الأرض ، وخلفه زوجته الالهه نوت ربة السماء .

(١١) نرى هنا اله منديس برأس كبش وخلفه الالهه عبعست .

(١٢) أوزيريس – ونفروايزيس .

(١٣) صور هنا شو (باسم روح شو) واقفا وخلفه تفنوت .

السقف :

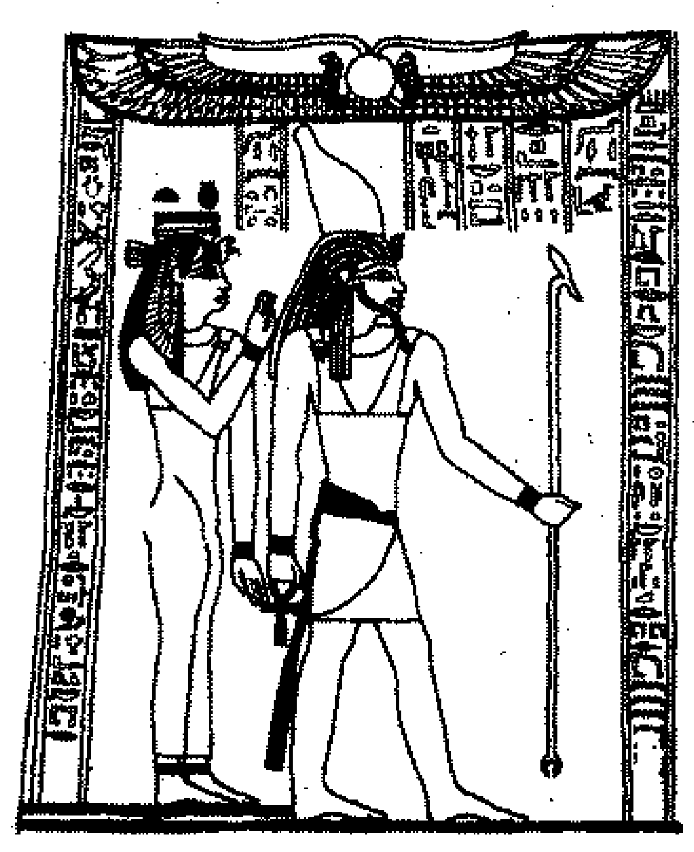
ان السقف مزخرف كذلك ، وقد قسم إلى قسمين ، في القسم القريب من المدخل صور قرص الشمس المجنح وعلى جانبيه نص مكرر يقرأ : « البحدتي ، الاله الأعظم رب السماء ، ذو الريش المرقش ، ذلك الذي يبزغ في السماء كل يوم ، واهب الحياة والاستقرار والازدهار مثل رع الى الأبد » . أما القسم الآخر من السقف فنجد في وسطه سطرا من الكتابة الهيروغليفية يبدأ قرب قرص الشمس ويستمر حتى نهاية الغرفة ونجد وكذلك ثمانية سطور قصيرة من الكتابات قرب الأعمدة . وكل هذه الكتابات عبارة عن أدعية لرفاهية بانثتيو ابن جد – أمون – اف – عنخ والسيدة بادى – ايسه – يكن وضمان حياة سعيدة له في العالم الآخر .

حجرة الدفن الداخلية :

ان المناظر المصورة على جدران هذه الحجرة الصغيرة تتضمن تصويرا لا يزال في حالة ممتازة لقاعة المحاكمة برئاسة أوزيريس ووزن قلب المتوفى .

١٤ – نشاهد في الجانب الأيمن عند دخولنا الحجرة صفين من الرسوم ، الأعلى يصور منظر تحنيط ، والأسفل يصور الالهه نيت وفي يديها القوس والسهم وخلفها الالهان أنوبيس وتحوت .

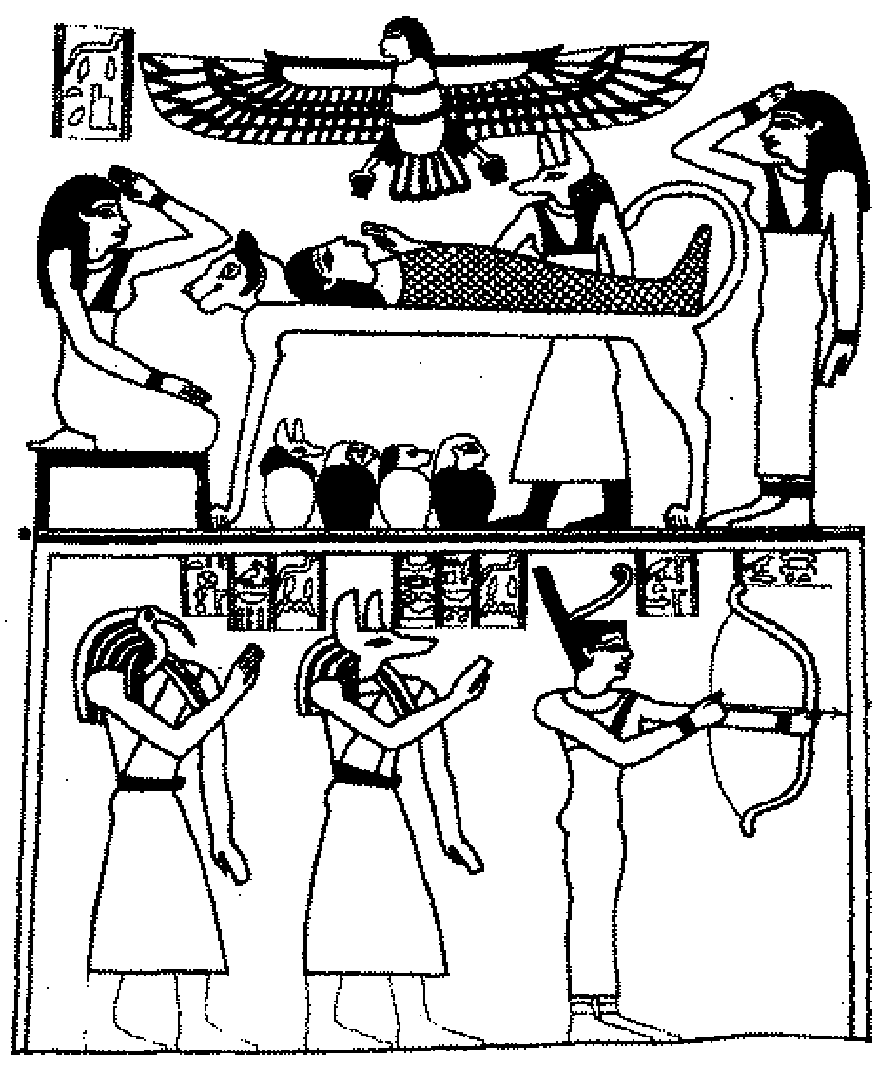
١٥ – وعلى الجانب المقابل يقف الاله « حا » قابضا على رمح (شكلا ٧٥ ، ٧٦) ومثله مثل نوت فانه على استعداد للقذف بسلاحه . ووجود هذين الالهين (أى نيت وحا) على جانبي المدخل يجعلنا نظن أنهما صورا لحماية المتوفى من أى معتد أثيم والنص المرافق للمنظر يقول : « حا ، رب الغرب ، اله أبيدوس العظيم ، لعله يهب الحياه » . وقد لبس على رأسه علامة الجبل لأنه كان دائما مرتبطا بالغرب والصحراء وحماية هذه الاقاليم ، وقد ورد اسمه في نصوص الأهرام وفي كثير من مقابر الدولة القديمة وما تلاها ، أما مركز عبادته فكان في غرب الدلتا ، وكان يشغل مكانه بارزه في الواحات ففضلا عن تصويره في هذه المقبره نجده مصورا كذلك في مقاصير مقابر « عين المفتلة» وكانت عبادته منتشرة كذلك في الواحة الخارجة ففي معبد هيبس نجده ملقبا « حا ، رب الغرب ، الاله العظيم المبجل في هيبس » .



(شكل ٧٤) أحد الاعمدة الأربعة مصور عليه جب ونوت

الجدار المواجه للمدخل :

يوجد سطر من الكتابة فى وسط الجدار يقسمه الى قسمين ، فعلى اليمين (رقم ١٧ فى شكل ٧٠) يجلس الاله أوزيريس وأمامه مائدة قرابين وخلفه تقف الالهة ايزيس وعلى الجانب الآخر من المائدة يربض الوحش الذى كان يلتهم المذنبين (فالنص يقوله عنه أنه « ملتهم الكثيرين ، وقاتل الأعداء) ، أما بقية منظر المحاكمة فيظهر على الجدار الشرقى .

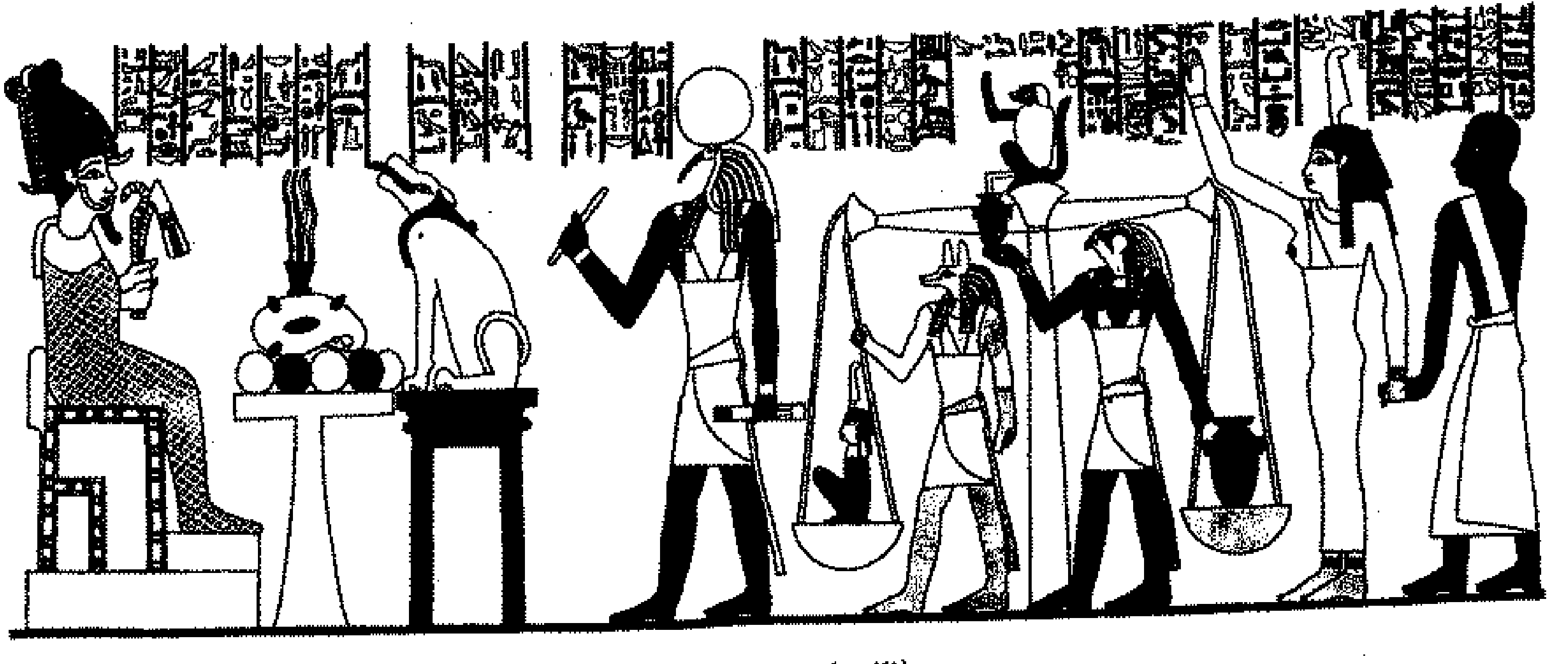


(شكل ٧٥) الالهة نيت داخل حجرة الدفن وفى يديها القوس والسهم

وفى (١٦) نجد الميزان في الوسط يعلوه رمز الاله تحوت ممثلا بالقرد (شكل ٧٧) . ويتولى كل من حورس وأنوبيس عملية وزن القلب في حين يعلن تحوت نتيجة الميزان للاله أوزيريس ، ففي إحدى كفتي الميزان وضع قلب المتوفى ، وفي الكفة الاخرى تجلس ماعت ربة الحق . والى يمين الميزان تقف ماعت ممسكه بصاحب المقبرة بيدها اليسرى في حين رفعت يدها اليسرى لتشهد ببراءته ، ويظهر منظر قاعه المحاكمه هذا في كثير من المقابر ، أما على التوابيت وفي البردى فان المنظر الكامل يصور الى جانب هذا الأرباب الاثنان والأربعون الذين يمكن اعتبارهم بمثابه المحلفين في محكمه أوزيريس ، ومن المفروض ان يخاطب المتوفى كل واحد منهم باسمه ويخبره أنه لم يرتكب خطيئه معينه ، هذا هو ما يسمى بالاعتراف السلبي الذى يعطينا مستوى خلقيا رفيعا كان من المفروض أن يستمتع به المصرى القديم ، والخطايا المعروفه والوارده في نصوص دينيه أخرى تدخل ضمن الاعترافات الاثنتين والأربعين السلبيه .



(شكل ٧٦) حا ، إله الصحراء ، مصورا على الجانب الآخر للباب قابضا على رمحه



(شكل ٧٧) منظر قاعة المحاكمة ووزن القلب

(ص ١٥٣) وفي الجـانب الأيمـر من الجـدار الخلفى (رقم ١٨) يجلس أوزيريس وخلفه تقف ايزيس كما هو الحال فى المنظر على الجانب الأيمن وأمامها توجد مائدة قرابين

ويستمر المنظر في (١٩) حيث يقف صاحب المقبرة مادا ذراعيه في حركه تعبد لكل من اوزيريس وايزيس وخلفه صور سبعه آلهه هم : حاتحور ، أنوبيس ، أيزيس ، حورس ، نفتيس ، حورس – أنوبيس والهـه تدعى حات مـحيت صورت مرتديه رداءأحمر اللون ووجها على هيئه سمك الشلبه (١) ، وهو رمز اقليم منديس بالدلتا . وحات محيت هي زوجه الاله با – نب – ددو المصور أكثر من مره في هذه المقبره .

سقف حجره الدفن :

على السقف ، الذى كان مطليا بالجير ، لا تزال توجد آثار بعض الرسوم الملونه وسطر من الكتابه الذى كادت علاماته أن تختفى .

وخلال الاثنين وثلاثين عاما التى انقضت منذ اكتشاف هذه المقبره راحت ألوانها تخبو تدريجيا كما ضاعت بعض العلامات الهيروغليفيه ، ولكن أسوأ الأضرار هي تلك التى لحقت بنصوص السقف وأعمده الصاله ، أما المساحات السوداء التى غطت جزئيا بعض مناظر حجره الدفن الداخليه فقد اتسعت بمرور الوقت ولكنها لم تقلل بصفه عامه من جمال ولا أهميه المقبره .

---

(١) رغم ان ظهر سمكه الشلبه لا يحتوى الا على زعنفه واحد فان معظم صور العصر المتأخر تظهرها خطأ بزعنفتين على الظهر .

الجزء الثانى

واحــه الـفرافـره

الفصل السادس
أرض البقـره

الفرافره في العصور القديمه :

تقع الفرافره ، أصغر واحات الصحراء الغربيه ، في منتصف المسافه بين البحريه والداخله .

ومن الغريب أن هذه الواحه الصغيره والتي اعتمدت خلال تاريخها على البحريه بطريقه أو بأخرى ، ورد ذكرها في النصوص القديمه ومن بينها نص من الأسـره الخامسه [١] ، في حين أن اسم البحريه لم يظهر في النصوص قبل الأسره السابعه عشره [٢] وذلك طبقا لمعلوماتنا الحاليه ، وقد ورد اسم الفرافره كذلك في قصه القروى الفصيح التي جرت أحداثها في بلاط ملوك مدينه هراقليوبوليس ومكانها الحالي مدينه اهناسيا في محافظه بني سويف .

فمن بين السلع التجاريه التي حملها إلى هراقليوبوليس ذلك القروى من وادى النطرون هراوات من واحه الفرافره [٣] ، وهذا يبين أنه منذ ذلك العصر المبكر كانت هذه الواحه على علاقه وثيقه بالواحات الأخرى وبوادى النيل .

---

(١) تعريف اسم الفرافره من ألقاب موظف من الأسره الخامسه أنظر :
Henry Fischer , JNES 16 :226 Edel ZAS 81 : 67 - 68

(٢) طبقا للنص المنقوش على لوحه كامس الجديد ، فإن نبيذ البحريه كان معروفا بوادى النيل منذ الأسره الثانيه عشره .

(٣) ترجم جون ولسون هذه البرديه في
James Pritchard (ed) , Ancient Near Eastern Texts (Princetan , 1955) pp . 407 - 410
وتعود القصه الي عهد الملك خيتي الثالث من الأسره العاشره والذي عاش خلال القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد .

واسم الواحه القديم هو « تا ايحه » بمعنى « أرض البقره » وهو اسم مرتبط فيما يبدو بالهه حانحور ، أما أصل اسم « الفرافره » فهو غير معروف . وقد ورد الاسم القديم كذلك في معبد الأقصر بين قائمه أسماء الأماكن التى كانت تنتج المعادن والبلح في عهد الملك رمسيس الثانى (١) ولكن أى نوع من المعادن كان المصريون القدماء يستخرجونها من هناك ؟

في كتاب بيدنل (٢) عن هذه الواحه نقرأ : « ان أرضيه المنخفض مغطاه بكسر كبيرة وصغيره متبلوره من بيريت الحديد iron pyrites والماركاسيت Marka-siteوقد تراكمت هذه الكسر على السطح الطباشيرى الذى نشأت عنه فى الواقع أثناء عمليات التعريه التي لحقت به بفعل الرياح الحامله للرمال ، وغالبا ما تكون هذه المعادن سوداء حيث أنها مرت بعمليه التغير من الكبريتيد Sulphide الى الاوكسيد وليس من النادر أن نجد الليمونيت Limonite الكاذب بعد بيريت الحديد ، والتل الصغير الذى تقع عليه « عين بشوى » والذى يرتفع حوالى ٢٠ مترا عن مستوى سطح المنخفض يمكن اعتباره بمثابه قطاع صغير على الجانب الغربى وحيث نجد حجر جيرى طباشيرى ابيض يعلو المرلMarl ذا اللون الأصفر البرتقالى لا الحجر الجيرى المزلى ، أما الى شرق وشمال شرق القريه فان أرضيه المنخفض المتموجه مغطاه كذلك بالطباشير الأبيض وبيريت الحديد والماركاسيت (شكل ٧٨) .

ومن المحتمل أن هذا هو المعدن ، أو أحد المعادن ، الذى كان يجلب الى وادى النيل خلال الأسره التاسعه عشره أو ربما قبلها ، وكل ما يمكن ان أضيفه هو الأمل فى أن يستثمر هذا المصدر من مصادر الثوره القوميه – كما هو الحال الآن مع البحريه ، اذا أثبتت الأبحاث وجود كميات تجاريه منه ، ومن الجدير بالذكر أننى لم ألاحظ وجود مناجم قديمه فى البحريه أو الفرافره ، لقد أخذ القدماء ما كانوا يحتاجونه من على سطح الأرض .

وللفرافره أهميه استراتيجيه للدفاع عن مصر ضد الهجمات الآتيه من الغرب ، فحينما هاجم الليبيون مصر من الغرب ابان عهد الملك مرنبتاح من الأسره التاسعه

---

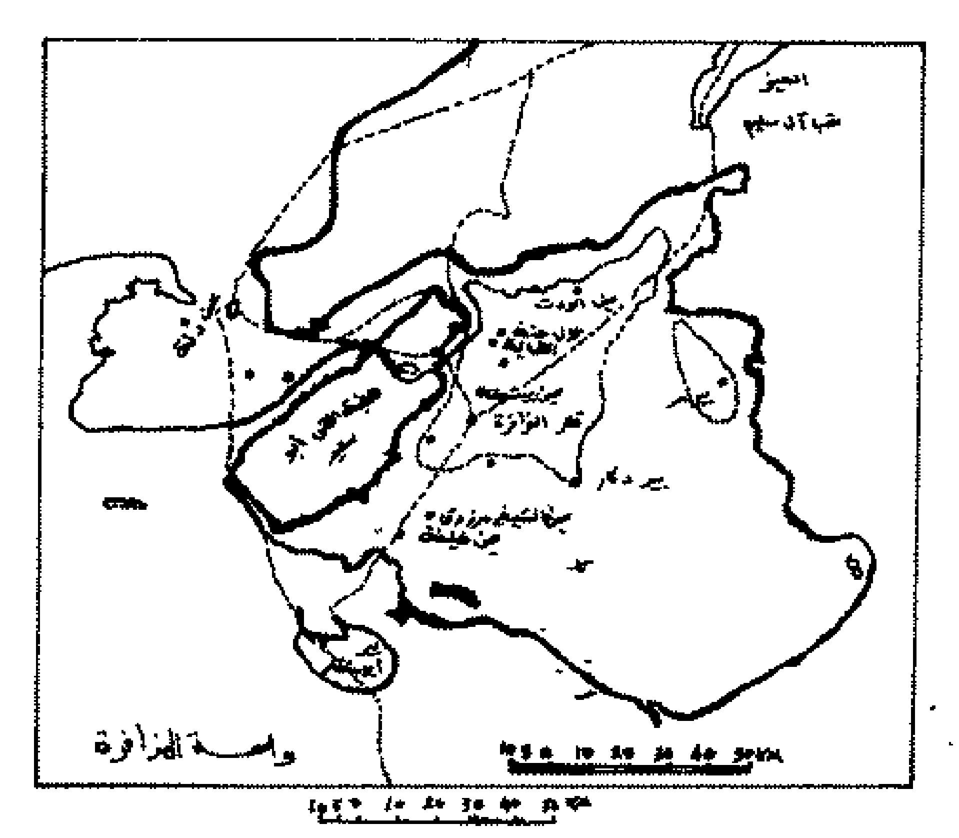
(١) W . Max Muller , Egyptalogical Researches (Washington 1906 - 20) , 2 : 20 .

(٢) Beadnell , Farafra Oasis , pp 10 - 20

J . H . Breasted , Ancient Recient Records 3 , par . 580

عشره (حكم من ١٢٢٣ - ١٢١١ ق . م) سلكوا أحد الطرق القديمه في الصحراء الليبيه الذى يمر عبر الفرافره واحتلوا الواحه ، وفي السطر رقم ٢٠ من نص الكرنك نقرأ ما يلي :

« لقد وصلوا (أى الأعداء) جبال الواحه وعزلوا اقليم الفرافره » (١) . ويظهر أن بعض القوات الليبيه زحفت من جنوب ليبيا ، ربما من فزان ، وسلكت ذاك الطريق القديم حتى لا تصطدم بالتحصينات المصريه القائمه على الساحل والتى أسس عددا منها رمسيس الثاني لحمايه الحدود الغربيه ، وقد وجد اسمه في عدد منها زاويه أم الرخم ، جنوب غرب مرسى مطروح ، والعلمين والغربانيات التى لا تبعد كثيرا عن الحمام في اقليم مريوط .



(شكل ٧٨) خريطة لمنخفض الفرافره

---

(١) أما عن المصادر والنصوص الاخرى التى أوردت اسم الفرافره أنظر :
Gauthier , Dictionnaire Geographique , 6 : 4

وفي نص الواحات السبع بمعبد ادفو ورد اسم الفرافره على انها ثالث الواحات : « تا – ايحه (ارض البقرة) شمال غرب كنمت (الواحه الداخله) » (١)

ورغم كل هذه النصوص فلم يعثر حتى الآن على أيه آثار من العصور الفرعونيه في الفرافره وكل ما نراه الآن هناك يرجع الى العصر الروماني (٢) الا ان الحفائر التى قد تجرى فى المستقبل ربما كشفت عن آثار أو مبانى من عصور أخرى .

منخفض الفرافره :

ان منخفض الفرافره هو أكبر منخفضات واحات الصحراء الغربيه ، وهو على شكل مثلث غير منتظم الأضلاع يتجه رأسه ناحيه الشمال بحيث أن عرضه يتسع كلما اتجهنا صوب الجنوب ويحيط بالمنخفض جرف صخرى من ثلاث جهات ، والجرفان الشرقي والغربي شديدا الانحدار عظيما الارتفاع ، أما الجرف الشمالى فهو أقل ارتفاعا وان كان ظاهرا للعيان ، والى الجنوب ترتفع أرضيه المنخفض تدريجيا لمسافة ١٥٠ كم حتى نصل الى حافه منخفض الواحه الداخله . والمسافه الواقعه بين شرقي وغربي الجرف عند خط عرض قصر الفرافره تبلغ حوالى ٩٠ كم فى حين أن أقصى طول المنخفض من رأس المثلث فى الشمال الى حافه منخفض الداخله فى الجنوب يبلغ حوالى مائتى كيلو متر .

والهضبتان على الجانبين الشرقي والغربي للمنخفض يمتدان على نفس المستوى ، أى حوالى ٢٤٤ مترا فوق مستوى قصر الفرافره ، وهما مسطحتان رتيبتان (٣) ، ولا توجد فى أرضيه المنخفض ملامح مميزه فيما عدا عدد من التلال المخروطيه الشكل على الجانب الغربى منها ثلاثه على مسافه عشرين كيلو مترا شمالى قصر الفرافره

---

(١) K . Sethe , ZAS 56 : 48 - 49

(٢) لم يحاول أحد أن يبيع لى آثارا من الفرافره ، مره واحده أرانى أحدهم خرزه من العصر الرومانى وعلمت بعد أن صاحبها جاء بها من البحريه . «

(٣). Beadnell , Farafra Oassis , P . 9

واثنان على بعد ١٢ كم جنوبى نفس القرية ، وحينما يتحدث واحد من الاهالى عن هذه التلال فانه يسمي واحدها ، الجنة ، وتغطي الرمال السافيه جزءا كبيرا من أرضيه المنخفض خاصه في الشرق والجنوب الشرقي ، وبالقرب من حافه منخفض الداخله تتكون كثبان رمليه عاليه متوازنه تمتد من الشمال والشمال الغربي الى الجنوب والجنوب الشرقي .

وقصر الفرافره هي القريه الوحيده في المنخفض وهي تقع عند خط العرض الشمالى ٢٧ درجه ، ٣٠ دقيقه ، ٣٠ ثانيه وخط الطول الشرقي ٢٨ درجه ، صفر دقيقه ، ١٥ ثانيه أي تقريبا على نفس خط عرض مدينه اسيوط على النيل [1] ، وصحيا تعتبر الفرافره أفضل الواحات . ورغم أن منخفضها أكبر من كل منخفضات الصحراء الليبيه فانها لا تلعب دورا اقتصاديا هاما في الوقت الحالي ، ولكن اذا نفذت مشروعات جديده في المستقبل واستصلحت بضعه عشرات من آلاف الافدنه فان الصوره ستتغير تماما . وفي الوقت الحاضر توجد عشر عيون جاريه في كل المنخفض أهمها العين الموجوده في قصر الفرافره التي حلت محل ، عين القديمه ، بساى ، (تلفظ أحيانا ابساى) وقرب كل منهما توجد مساحات واسعه نسبيا من الأراضي المزروعه . والعين الأولى تقع في القريه ذاتها وتمد الأهالي بما يحتاجونه من مياه الشرب والاغراض اليوميه الأخرى فضلا عن سقيا حدائقهم . وفي القرن الماضي كان عدد عيون المنخفض يبلغ ثمانيه عشر عينا ولكن في السنوات القريبه توقف جريان بعضها حتى انخفض عددها الى عشر عيون فحسب .

---

(١) بنيت قريه قصر الفرافره على مرتفع يعلو عشره أمتار عن الأراضي المحيطه به ويعلو ٧٦ مترا عن مستوى سطح البحر ، أما أرضيه المنخفض التي توجد فيها العيون فان ارتفاعها عن مستوى سطح البحر يتراوح ما بين ٧٠ ، ٩١ ، أما عين الوادي ، في الجزء الشمالي من المنخفض ، فترتفع ٢٦ مترا على مستوى سطح البحر .



(شكل ٧٩) منظر لقريه قصر الفرافره

والى الغرب من الفرافره يوجد منخفض كبير آخر تفصله عنها هضبه مرتفعه تمتد لمسافه عشره كيلو مترا فقط ، وقد أثبتت الأبحاث الأخيره أن جزءا كبيرا من أرضيه صالحه للزراعه ولما حفرت به آبار اختبار فيما بين ١٩٦٤ ، ١٩٦٧ ثبت وجود كميات كبيره من المياه الجوفيه تكفي لري أكثر من خمسين الف فدان . وعلى أي حال فقد أحكم اغلاق هذه الآبار حيث ان المشروع لا يزال موضع دراسه ، ولدى سكان الفرافره مياه كافيه وأراضي زراعيه تسد حاجتهم ، وقبل البدء في استطلاح اى اراضي زراعيه جديدة لا بد من ايجاد حلول مناسبه لمشاكل نقص الأيدى العامله وتهجير سكان من وادى النيل الى ذلك الركن النائي والمنعزل في الصحراء الليبيه ، وأعقد المصاعب التي ستواجه المسئولين في المستقبل ترجع الى صعوبه نقل الأهالي والمحاصيل كما أنها ستنشأ عن حاجه المهاجرين الجدد الى مدارس ومستشفيات .

الطرق التي تربط الفرافره بغيرها من الأماكن :

تربط طرق القوافل الفرافره بالبحريه في الشمال وبالداخله في الجنوب وبوادى النيل عند محافظه أسيوط في الشرق وبواجه سيوه وليبيا في الغرب ، وقد سبق أن

تحدثنا عن الطريق بين الفرافره والبحريه . وطريق القوافل القديم بين الفرافره والداخله يبلغ طوله حوالي مائتي كيلو متر وكانت القوافل تقطع المسافه الواقعه بين قصر الفرافره وبلده ، القصر في الواحه الداخله في أربعه أيام ، ويمر طريق القوافل القديم ببير دكار ويستمر على حافه منطقه الكثبان حتى يهبط حافه منخفض الداخله قبيل القصر ، ولا يزال هذا الطريق مستخدما ، أما طريق السيارات الذى يبدأ من موط ويمر بالقصر وأبو منقار ومنها الى الفرافره ، فيبلغ طوله ٣٠٠ كيلو مترا .

ولا يبدأ الطريق الذى يربط بين الفرافره وأسيوط نفسها وانما يبدأ من بنى عدى أو من دشلوط أو من مير وبعد مسافه قصيره من حافه الأراضي الزراعيه تلتقى هذه الطرق بالطريق الرئيسي من بني عدى الى الفرافره الذى يبلغ طوله حوالى ٢٨٠ كيلو مترا وتقطعه قوافل الجمال أو الحمير في سبعه أو ثمانيه أيام ولا يزال هذا الطريق مستخدما من قبل قبائل البدو وأهل الفرافره .

ولعين الداله القديمه ، التي تقع على بعد حوالى ٧٥ كيلو مترا من قصر الفرافره ، أهميه كبيره لطرق القوافل بين الفرافره والغرب حتى ليبيا . وفى عام ١٨٧٤ وصل الى الفرافره منْ سيوه الجيولوجي الالماني ج . رولفس مارا بالعرج والبحرين ومن هناك سلك طريقا متجها الى الجنوب حتى قصر الفرافره (١) .

آثــار الفــرافــره :

تشمل المواقع القديمه فى الفرافره كل الاطلال التى شاهدتها قرب العيون حول قصر الفرافره والآثار الموجوده في الداله وعين الوادى ، وقد زرت الفرافره عده مرات أولاها في

يناير سنه ١٩٣٨ وآخرها في نوفمبر سنة ١٩٦٨ وكانت هذه الزيارات لغرض واحد فقط : دراسة وفحص آثار هذه الواحة وفى كل مره لم تزد اقامتي عن يومين باستثناء عام ١٩٣٩ حين أمضيت أسبوعا بأكمله هناك .

ولم يذكر أحد من الرحالة الأوروبين الذين زاروا البحريه (٢) فى القرن التاسع عشر وجود آثار بالواحه فيما عدا كايو الذى سجل على خريطته كلمه «مقابر» بالقرب من قصر الفرافره ولكنه لم يذكر شيئا عن هذه المقابر فى كتابه .

---

(١) G . Rohlfs , Drei Monate in der libyschen W üste

(Berlin , 1876) , pp.118 - 211 .

(١) هكذا في الاصل وربما كان المقصود الفرافرة (المترجم)

وسأعطى هنا قائمة بالمواقع القديمة الموجودة حاليا بالفرافرة :

(١) بالقرب من قصر الفرافره ، عاصمه الواحة ، توجد جبانة قديمة مطمورة تقريبا تحت الرمال وتوجد بضع مقابر منحوته في الصخر بعضها يحتوى على أكثر من حجرة واحدة ولكن جدرانها خالية من الصور أو الزخارف .

(٢) غير بعيد من عين جلاور توجد بعض المقابر الصغيرة المنحوته في تل ، وهى غير مكتمله الحفر ، وقد رسم راهب مسيحي عاش في واحدة منها صلبانا وزخارف أخرى باللون الأحمر على جدرانها وسقفها .

(٣) عند عين بشوى نحتت مقبرتان صغيرتان في تل غير عال ولكن العمل فيهما لم يتم ، كما توجد جبانه على كثب من العين .

(٤) عند عين جلاو ، التى تقع غربى عين شمنادا ، توجد بعض المقابر المنحوته في الصخر لا التي تزال مداخلها مدفونه . وعلى صخرة بالقرب من مدخل واحدة من هذه المقابر نقش قبطى قصير ، وقد رآه آشرمون عام ١٨٧٤ .

٥ ، ٦ ، ٧) عند عين أكوار ، وعين السنط ، وعين الحاره نجد بقايا مبانى من الطوب اللبن تعود فيما يظهر الى العصر الرومانى .

(٨) بالقرب من عين بسأى ، يوجد أهم موقع بالفرافره حيث نجد جبانه وبقايا مبنيين من الطوب اللبن ومقابر صخريه غير مصورة وعلى بعد حوالى ١٥٠ مترا شمال شرق المقابر الصخرية توجد مقصورة صغيرة وغير مصورة مبنية من كتل الحجر الجيرى .

هذه هى المواقع القديمة بالقرب من الجزء المزروع من المنخفض ، أى حول قصر الفرافرة ولكن يوجد موقعان آخران مرتبطان بالفرافرة هما عين الوادى وعين الداله . وقد سبق أن ذكرت عين الوادى (خط عرض ٢٧ ْ ، ١٢ وخط طول ٢٨ ْ ، ١٣) كمحطة قوافل هامة فى رحلة يوم واحد من الفرافره وذلك أثناء مناقشتى لمشكلة الواحة الرابعة وفيما اذا كان المقصود بها الحيز أو عين الوادى ، وهذه عبارة عن منخفض تبلغ مساحته حوالى ٤٥ كيلو مترا شمال شرق قصر الفرافره ، والعين الرئيسية فى هذا المنخفض تقع عند حافته الجنوبية ونحيط بها مجموعة من أشجار النخيل فى وسط دغل من الشجيرات وطبقا لرواية بيدنل(١) فان مياه العين من النوع

---

(١) Beadnell , Farafra Oasis , p . 12

الممتاز وتجرى ببطء من منبعها ، ولا يوجد سكان هناك ولم تبذل أى محاولات للزراعة رغم توفر الأراضي الصالحة للزراعة كما يمكن مشاهدة بقايا حقول بالقرب من العين أو على مسافة يسيرة منها لقد كان هذا المكان المهجور مأهولا في الأزمان القديمة .

وفي موقع قديم قريب العين المسماة « عين الخضرة » يمكن مشاهدة جدران منازل مبنية من كتل حجرية غير مستوية ، وعلى وجه الأرض تتناثر بقايا فخار روماني ، وقد عثرت على تميمتين صغيرتين من البرونز للالهه سخمت والاله حار بوقراط كما وجدت تمثال جمل خال من النصوص وخرزتين وقطعة عملة رومانية متآكلة . وعلى مقربة من العين يبدأ وادى أبو حنى حيث يوجد بئران صغيران وقرب واحد منهما توجد أطلال مبان من اللبن على جانب مرتفع يدعى « وطاق أبو طرطور» ومن المحتمل أنها بقايا منزل كبير من العصر الروماني . وفي منخفض عين الوادى يمكن رؤية أعداد من الغزلان في كل مكان وخلال أى ساعة من ساعات النهار وأحيانا نرى قطعانا منها .

عين الدالة :

تقع عين الدالة على بعد حوالى ٧٥ كيلو مترا الى الشمال من قصر الفرافره ومن الممكن الوصول اليها عن طريق درب يدور حول الحافة الشمالية لهضبة مرتفعة من الحجر الجيرى تسمى قرص أبو سعد (خط عرض ٢٧° ، ١٩ وخط طول ٢٧° ، ٢٠) . وتقع العين على رمال احد التلال وعندها تنمو بعض الشجيرات ، وقد قام بتطهيرها المرحوم الأمير عمر طوسون في أواخر العشرينات وبطن جوانبها بالأسمنت ، وتفيض مياهها خلال انبوب طوله عشرين مترا جنوب غرب البئر ، وقد أمر الامير بتنفيذ هذا العمل من أجل النازحين الليبيين الذين طردهم المستعمرون الايطاليون من ديارهم والذين فقد الكثير منهم حياته في الصحراء . وطريق القوافل القديم من داخل ليبيا الى الفرافره يمر بالدالة ، وحينما قمت بزيارة الموقع عام ١٩٣٩ وجدت جوسقا خشبيا ترك فيه الأمير عمرطوسون عشرين صفيحة مليئة بالبنزين بالاضافة الى أدوات للحفر والمقاطف وذلك لمعاونة أى شخص قد يحتاجها في تلك البقعة النائية ولكن الهامة في وسط الصحراء الليبيه . ومياه العين من النوع الجيد وتجرى بمعدل ثلاثة جالونات في الدقيقة وبذلك تكفى حاجة أى قافلة صغيرة .

ولا يزال بامكاننا رؤية بقايا منزلين كسيت جدرانهما بطبقة من الجص وبالجير ولكن تخطيطهما لا يزال ينتظر من يكشف عنه وربما كان أكبرهما عبارة عن مخفر عسكرى وفى كتاب م . أزاديان (M . Azadian) عن مياه عيون الصحراء الغربية نشرت صورة صليب من الحديد قال أنه وجد فى عين الدالة وأنه فى حوزة الأمير عمر طوسون .

ويمكن أن توصف هذه الأماكن الأثرية فى الفرافره بأنها ضئيلة الأهمية اذا ما قورنت بمثيلاتها فى البحرية أو الداخلة ، وكلها تعود الى العصر الرومانى وما تلاه ، وأما ما تبقى من آثار أقدم فيبدو أنها قد دمرت واندثرت . ورغم أن الفرافره كانت مكانا صغيرا طوال تاريخها الا أنها كانت محطة هامة على طريق القوافل بين الواحتين الكبيرتين فى الشمال والجنوب ولكن يظهر أنة لم يشيد معبد هام بها على الاطلاق ، أما الآثار القليلة المتبقية فتعود الى الفترة التى ازدهرت فيها واحات الصحراء الغربية ، أى مابين القرن الأول قبل الميلاد والقرنين الأول والثانى الميلاديين ، وبعد ذلك بدأ الانحلال يحط على الواحة بسبب انخفاض كميات المياه الجارية من ناحية والحياة غير الآمنة خلال الأوقات التى تعرضت فيها البلاد قاطبة لسؤ الحكم و الاضطراب فى أواخر العصر الرومانى وابان العصور الوسطى من ناحية أخرى .

غاصت الفرافره ، بعد ذلك ، فى غياهب النسيّان وان كانت المسيحية وجدت طريقها الى قلب بعض سكانها قبل أن يهتدوا الى الاسلام فى القرن السابع الميلادى(١) ، ولسنا فى وضع يسمح لنا بأن نقرر ما اذا كان بعض أهالى الفرافرة تسكوا بالمسيحية كما حدث فى البحرية ام أنهم اعتنقوا الدين الجديد جميعهم ، ومهما يكن من أمر فان أهل الفرافرة كانوا يقطنون دائما بجوار العيون الجاريه ومن المؤكد أنهم كانوا على اتصال مستمر بالواحات الاخرى وبوادى النيل .

وليس بامكاننا ان نحدد بالضبط متى أقام الأهالى حصنهم ولكن يرجح أن ذلك تم فى وقت ما فى العصور الوسطى .

وتجرى فى عروق أهل الفرافرة دماء ليبية وعربية أكثر من سكان البحرية والداخلة وملابسهم وعاداتهم أقرب ما تكون بملابس وعادات البدو ، وقد وصف

---

(١) من المحتمل كذلك ان اولئك الذين تركوا زخارف للصلبان كانوا رهبانا لجد والى الواحة .

رحالة القرن التاسع عشر خاصة «كايو» الحياة في هذه الواحة بشيء من التفصيل وقد استمرت حياتهم وعاداتهم الاجتماعية على ما هي عليه حتى عام ١٩٥٠ . وعلى أى حال فإن الفرافره في وقتنا الحاضر تعطى زائرها احساسا حقيقيا بأنه يعيش في واحة يسكنها أناس دمثوا الاخلاق مسالمون ، قانعون بنصيبهم من الحياة رغم ما يعانونه من فاقة ومن مشاق حياة الصحراء . أن الكثيرين منهم ينزحون الى الفيوم واسيوط والقاهرة ، ولكن بعد وقت قد يطول وقد يقصر لا يلبثون أن يعودوا الى واحتهم الوادعة والعزيزة على نفوسهم .

الفصل السابع
الفرافرة فى الأزمنة الحديثة

الفرافرة فى القرن التاسع عشر :

ان أول رحالة أوربى قام بزيارة الفرافرة هو ف . كايو حيث وصلها عام ١٨١٩[١]، ويقول فى مؤلفه أن القصر عبارة عن حصن مهجور وأن الناس يعيشون فى القرية المحيطة به ، ويصف كايو كذلك طبوغرافية المكان ويذكر أهم العيون والآبار والحقول والحدائق التى تسقيها كما ترك لنا ملاحظات هامة عن جيولوجية المنخفض ولا يشير الى أى مشاعر عدائية من قبل الاهالى .

ويذكر ولكنسون ، الذى زار الفرافره عام ١٨٢٥ ، أن الواحة « خالية من أى بقايا قديمة »[٢] وحينما ناقش واحة زرزورة الخرافية أعطانا معلومات طريفة حيث يقول أن الزنوج الذين هاجموا الواحة واختطفوا عددا من أبنائها ، بضع سنين قبل زيارته ، أتوا من واحة زرزورة ، ولا يورد ولكنسون تاريخا محددا لهذا الحادث ولكن مجرد وقوعه هو فى فى حد ذاته مؤشر لعدم الأمان الذى عانى منه الاهالى حتى القرن التاسع عشر ، وحينما ناقشت هذا الأمر مع بعض المتقدمين فى السن فى عام ١٩٣٨ قالوا أنهم يتذكرون أن آباءهم وأجدادهم أخبروهم حكايات كثيرة عن أمثال هذه الغارات حينما كان الزنوج أو بدو الصحراء يأتون من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب ويفاجئوهم بالهجوم وينهبون محاصيلهم وجمالهم ويسبون نساءهم ، وعنما كان

---

(١) Cailland , Voyage a Meroe I , 206 ff

(٢) Willdnson , Modern Egypt and Thebes 2 , 361

العدو يهاجم بأعداد غفيرة ومسلحا بالأسلحة النارية فان الأهالى كانوا يلجأون الى الحصن حيث يدافعون عن أنفسهم ، وفى حالات كثيرة كانوا يتعقبون المغيرين ويستردون شيئا ما نهبوا ويقتلون بعضا منهم بينما يهرب البعض الآخر في الصحراء . ويضيف محدثي أن في أيامهم لم تقع مثل هذه الغارات رغم حدوث بعض السرقات الصغيرة من آن لآخر .

وحينما راحت الحركة السنوسية تمد نفوذها فى برقة أقام الاخوان زواياهم فى أماكن كثيرة من الصحراء وكان أهالي الفرافره من أوائل الذين فتحوا قلوبهم للطريقة الجديدة التي ذاعت في كل مكان ، وأقيمت زاوية في واحتهم واستقبلوا بحرارة مندوب سيدى محمد السنوسي عندما جاء ليقيم بين ظهرانيهم ، وغدت الزاوية مركزا للتعليم ولارشاد الناس في شئون دينهم ، ومن المرجح أن زاوية الفرافرة أقيمت حوالى عام ١٨٥٠ (١) ، وأذا وجد مندوب السنوسى شخصا نجيبا من بين تلاميذه فانه كان ينصحه بالتوجه الى جغبوب لمتابعة دراسته على يد مشايخ الزاوية الكبار وهناك يتلقى التدريب والمعرفة اللازمين لجعله قادرا على أن يصبح هو نفسه ممثلا للسنوسى وإماما لواحدة من الزوايا ، وقد لاقت الحركة السنوسية اقبالا كبيرا من سكان الفرافرة الذين يتصفون بالتدين والمسالمة ودماثة الخلق .

ولم يلاق الرحالة الأوربيون الذين زاروا الفرافره فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أى متاعب من قبل سكانها ، بل وجدوهم كرماء بالرغم من فقرهم وتخلفهم ، لقد كان الزائر يقابل دائما بالترحاب ، الا أن تغيرا طرأ على هذا الوضع خلال النصف الثاني من نفس القرن .

فمن الطريف ، على سبيل المثال ، أن نقرأ أنتقاد رولفس لسكان الفرافره الذين يصفهم بأنهم ضيقوا العقل ، متعصبون وغير مضيافين وأرجع مسئولية ذلك على الحركة السنوسية ومندوبها . فقد وصل رولفس وقافلته قصر الفرافرة فى ٣٠ ديسمبر عام ١٨٧٣ ومكث فيها حتى يناير سنة ١٨٧٤ وكان برفقته عدد من المساعدين وخدم

---

(١) حينما توفى السنوسى الكبير في سبتمبر سنة ١٨٥٩ وكان قد بلغ من العمر ٧٤ سنة كان عدد الزوايا ٣٨ فى برقة و ١٥ على الساحل وفى الواحات التى كان من بينهما سيوة والبحرية والفرافرة والداخلة والخارجة ، وفى جغبوب كانت توجد الزاوية الرئيسية التى عاش فيها السيد السنوسى وعلم اتباعه وأدار فروعها المختلفة ، وفيها توى فى لحده . وقد منع اقامة الزوايا فى مصر قاطبة وأخيرا أغلقت في عام ١٩١٧ وصادرت الحكومة ممتلكاتها .

المان ومصريون ومرشدون من البدو وجمالة ، وبعبارة أخرى ، قافلة كبيرة . وعندما اقترب من الواحة بدأ أعضاء القافلة في اطلاق أعيرة نارية في الهواء ليعلنوا عن مقدمتهم مما ترتب عليه أن هرع الأهالي الى حمل السلاح وتحصنوا بقلعتهم واستعدوا للدفاع عن أنفسهم (شكل ٨٠) . وكانت هذه بداية غير موفقة للزيارة الا أن أهل الفرافره كانوا دائما على أهبة الاستعداد ضد أخطار الاغارة على هذه الواحة المنعزلة ، فهم لم ينسوا حكايات البدو (ص ١٦٩) وعصابات البدو الذين كانوا يختطفون نساءهم وأطفالهم ويغيرون على محاصليهم .



(شكل ٨٠) حصن قصر الفرافره في عام ١٨٢٠
عن caillieud , Atlas II , pl xxxv , 2

بعد هذا الحادث التزم الأهالي جانب الحذر والتحفظ تجاه أعضاء البعثة ، وينتقدهم رولفس بشدة بسبب هذا الموقف وبسبب احجامهم عن بيع المؤن والضروريات الأخرى للقافلة . وانى لأعجب ماذا كان يتوقع من هؤلاء الناس الذين لا يملكون من المؤونة الا القليل ؟ وكيف كان يتوقع حسن ضيافتهم بعد أن أدخل في قلوبهم الرعب باطلاق الأعيرة النارية كما لو كانت القافلة عبارة عن جيش منتصر ؟ ان أى منصف يمكنه أن يقدر الموقف المتحفظ الذى اتخذه أهل الفرافره .

ومن جهة أخرى فحينما زار الواحة كل من بول وبيدنل في عام ١٨٩٨ وكانا على علم بما قاله رولفس ، وجدا سكانها ودودين مضيافين مما دفعهماالى التعبير عن دهشتهما . ورغم ادانته الظالمة لموقف أهل الفارفرة فان رولفس يعطينا وصفا قيما

للواحة ويمدنا بمعلومات عن عيونها وآبارها وأراضيها الزراعية ومنتجاتها ويمدنا كذلك بلمحة عن حياة سكانها .

كانت الفرافرة محكومة بشيوخ من أهلها الذين كانوا رؤساء بعض عائلاتها ولم يكن يوجد أى موظف حكومي بين ظهرانيهم ، وكان البدو وفلاحون من محافظة أسيوط يزورون الواحة في وقت حصاد البلح والزيتون حاملين معهم سلعا يحتاجها الأهالى ويشترون منهم فائض محاصيلهم .

ومن الجدير بالملاحظة أن أهل الفرافرة يمتلكون الجمال ، فعلى عكس الواحات الأخرى لا توجد في الفرافرة تلك الحشرة الضارة التى تتسبب فى انتشار مرض الزفر الذى يصيب الجمال بأضرار جسيمة ، وعادة ما يمتنع البدو عن احضار جمالهم الى الواحات أثناء شهور معينة من السنة حينما تنتشر هذه الحشرة ، ولكن اذا اضطروا لزيارة الواحات خلال واحد من هذه الشهور وتقابلت جمالهم مع جمال أخرى فانهم يتخذون احتياطات للوقاية من هذا المرض بأن يضعوا كمامة مشبعة بالقار فوق أنوف جمالهم لتجنب العدوى ولكن سكان الفرافرة يسافرون من أجل التجارة الى البحرية ، الداخلة ووادى النيل على ظهور جمالهم أو حميرهم .

وفي عام ١٩٣٨ ، حينما زرت الفرافرة لأول مرة ، كانت الأحوال مختلفة عما هى عليه الآن وكان العمدة ، الشيخ عبد الله وهو حفيد الشيخ عبد الله الذى كان يشغل نفس المنصب أيام رولفس ، يرعى شئون السكان بمعاونة شيخين من رؤساء العائلات ذات النفوذ ، ولم يكن بالواحة ممثل للطريقة السنوسية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، الا أن قاضي الفرافرة ، وهو المسئول أمام السلطات الحكومية عن تسجيل المواليد والوفيات والزيجات والذى كان يؤم صلاة الجمعة ، كان أحد اتباع السنوسي ، وكان يدعى الشيخ عبد النبى أبو سيف وقد درس في شبابه في جغبوب حيث قضى سنين كثيرة .

كان العمدة والشيخان يتقاضون مرتبات شهرية رمزية من الحكومة بواقع خمسة جنيهات للعمدة وثلاثة جنيهات للشيخ . وفي عام ١٩٤٨ كان يوجد بالواحة أربعة مسئولين حكوميين : خفيران من أهل الواحة أما الآخران اللذان كانا من خارجها فكانا حلاق الصحة الذى كان قد تلقى تدريبا خاصا وكان بمثابة ممثل وزارة الصحة ، ومدرس في المدرسة الابتدائية الصغيرة .

ولم يكن هناك أى وسيلة من وسائل الاتصالات الحديثة لتربط الواحة بالعالم الخارجي ، فلا هاتف ولا مكتب للبرق ولا مذياع ولا وسيلة انتقال آلية . وفي حالات الطوارىء كان العمدة يرسل أحد الخفراء الى البحرية على جمل وهى رحلة تستغرق أربعة أيام . وقبل نهاية الشهر بأربعة أيام كان أحد الخفراء يذهب الى البحرية على

ظهر جمل ليعود ببريد أهل الواحة ومرتبات الموظفين وليشترى بعض الأشياء التى يحتاجها الأصدقاء لا سيما الشاى والسكر .

وقبل ذهابى الى الفرافرة كنت قد تعرفت فى البحرية على عمدتها وعلى الشيخ عبد النبى أبو مسرب ووجدت أنهما رجلان لطيفا المعشر ، دمث الأخلاق وعندما وصلت الواحة فى يناير سنة ١٩٣٨ سعدت بهما ونعمت بضيافتهما ، وكان الشيخ عبد النبى هو رفيقى خلال زياراتى اللاحقة .



(شكل ٨١) الشيخ عبد الله ، عمدة الفرافرة عام ١٩٣٨

ويتميز أهل الفرافرة بلهجتهم الخاصة والتي تختلف عن لهجات أهل البحرية والداخلة ، وهم يعيشون في منازل لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في البحرية الا أن عاداتهم تختلف في أوجه كثيرة ، وتجري في عروقهم دماء بدوية وعربية أكثر من الزنجية وهم فقراء بصفة عامة الا أنهم يعرفون كيف يكرمون ضيفهم ويأنسون وحشته ، وهم أكثر تديناً من جيرانهم ، ولا يحبون الشغب أو المشاكسه كما أنهم متعاونون فيما بينهم ، ويجيدون ابرام الصفقات مع تجار البدو والجشعين ويكرهون أن يستغلهم أحد أو يغشهم أو يضغط عليهم ، وهم معروفون بالاستقامة والوفاء بالعهود وفي حياتهم الخاصة يتمسكون بتعاليم الاسلام ومن النادر جدا ، بل وربما من المستحيل ، أن نسمع عن حدوث قتل أو سرقة أو قول الكذب في واحتهم ، وعلى عكس أهل البحرية فان نساءهم لا يختلطون بالأغراب ومن النادر رؤيتهن وهن معروفات بجديتهن وبعدم ميلهن الى الاغراق في الزينة ، والمشروبات الكحولية غير معروفة في الفرافرة كما أن التدخين يعتبر من العادات المكروهة (شكل ٨٢) .

وفي زيارتي الثانية عام ١٩٣٩ للفرافرة التقى بي شاب لطيف المعشر وعرض على أن يرافقني الى أي مكان أريد زيارته ، وبينما كنا نسير في احدى الحدائق سألني عن نوع الطباق الذي أفضله وحينما أجبته بأنني لست من زمرة المدخنين لم يذكر السجائر مرة ثانية ، وعند عودتي سألني الشيخ عبد النبي وفي عينيه نظرة قلقة عما اذا كان الشاب قد ضايقني بأية صورة فأكدت له أنه شاب رقيق للغاية ولا يروم الا معاونتي ولكن هذا لم يقنع التلميذ السابق للسنوسي الذي أضاف قائلا أن هذا الشاب كان قد نزح الى أسيوط ومنها الى القاهرة منذ خمس سنوات ، وفي تلك المدن المزدحمة التقط عاداتها السيئة بما فيها تدخين الطباق ، وانه «ولد غير طيب» وبما أن أحدا في الواحة لم يكن يبيع أو يدخن الطباق فان الشاب التصق بي على أمل أن أعطيه صندوقا من ذاك «الشيء الملعون» على حد تعبير الشيخ عبد النبي .

ويعتبر أهل البحرية أهل الفرافرة سذجا وبسطاء وذلك لانهم مستقيمون ولا يحبون المراوغة ، ويحكون عنهم النادرة التالية : ذات مرة أصر «فريق من أهل الفرافرة أن يوما ما هو الأربعاء بينما أصر «فريق آخر على أن هذا اليوم نفسه يوم الثلاثاء وكان كل فريق متأكدا من رأيه حتى أنهم بدأوا يناقشون مشكلة صلاة الجمعة وتوصل الفريقان الى حل مؤداه هو ارسال شخص مؤتمن الى الواحة الداخلة ليتأكد من اليوم . ولا ينكر أهل الفرافرة هذه النادرة بل يقولون مبتسمين أنها حدثت منذ وقت بعيد لأنهم سمعوا بها من آبائهم وأجدادهم وأنها ربما وقعت منذ مئات من السنين .

وأهل الفرافرة مشهورون بمعرفتهم الكاملة بالنجوم ، ومثل هذه المعرفة من الأمور الضرورية لسكان الواحات لتحديد ساعات النهار والليل وتحديد توزيع مياه الري ،

ولكن معرفة النجوم فى الواحات الأخرى مقصورة على عائلات معينة فى حين أن كل فرد تقريبا فى الفرافرة ملم بالفلك ، ويستطيع أن يخبرك بمجرد التطلع الى النجوم عن عدد الساعات التى انقضت منذ غروب الشمس أو عن الساعات المتبقية حتى بزوغ الفجر ومن النادر أن يخطيء تقديرهم بأكثر من نصف ساعة وفى حالات كثيرة لا يزيد الخطأ عن ربع ساعة .

وقد لا حظت أثناء زيارتى الأولى للفرافرة أن ثلاثة من شيوخها كانوا يمتلكون ساعات ولكنها كانت معطلة جميعها اذ لم تكن هناك حاجة اليها وكانت تستخدم فقط حينما يقوم المشايخ بزيارة البحرية أو الوادى ، أما تحديد أوقات أذان الصلوات الخمس فكان يتم بواسطة حجر مثبت أفقيا فى واحد من أركان المسجد الخارجية يستعمل كمزولة خلال النهار ، وبعد ثلاثين سنة كان معظم شبان الفرافرة لا سيما الموظفين منهم يلبسون فى معاصمهم ساعات سويسرية أنيقة كما أن المذياع «الترانزستور» انتشر فى الواحة .



(شكل ٨٢) فتاة تلعب فى أحد الشوارع

وفي عام ١٩٣٨ لم يكن من أهل الفرافرة يرتدي الملابس الأوربية ولكن في الوقت الحالي نجد المدرسين والموظفين من أهل الواحة وقد تخلصوا من الزي التقليدي ولبسوا سراويل وسترات على الاقل خلال ساعات العمل ، أما خلال أوقات الفراغ وحينما يذهبون للمسجد فانهم يلبسون الجلاليب الفضفاضة .

حصن الفرافرة :

وأهم معلم في الفرافرة هو حصنها الذي يدعى القصر ، وقد شيد هذا المبنى في العصور الوسطى على مرتفع صخري يعلو قليلا على الصحراء المحيطة (شكل ٨٣) وتصميمه يكاد يكون مربعا يبلغ طول ضلعه حوالي ٥٥ مترا أما ارتفاعه فكان يبلغ حوالي عشرة أمتار ، وقد بنيت أساساته ومداميكه السفلي لارتفاع حوالي مترين بكتل حجرية غير مهذبه أما بقية الجدران فهي مبنية بالطوب اللبن . وكانت بوابته (١) القوية تؤدي الى ممرات ضيقة متعرجة صممت كذلك لأغراض دفاعية وفي الداخل كان يوجد عدد من الشوارع الصغيرة المتعرجة ذات جوانب منحدرة وبها ١١٦ حجرة (شكل ٨٤) ، وفي الجانب الشمالي الغربي للحصن كان يوجد بئر محفور في الصخر أو صهريج مياه كان من الأهمية بمكان حينما يأوي الاهالي الى حصنهم في ساعات الخطر ، وقرب القمة كان يوجد طوار يستخدم في الدفاع أما الأجزاء العليا من الجدران مزودة بشرفات لاطلاق النار .

وتحيط بالحصن منازل القرية أما ضريح الشيخ مرزوق ، ولي الله في الفرافرة ، فيقع جنوب غرب المساكن وقد رتبت الحجرات المائة وستة عشرة في صفوف ولكل واحدة بابها المصنوع اما من أفلاق جذوع النخيل أو من جريد النخيل ، وللوصول الى الحجرات العليا كانت تقام سلالم من جذوع النخيل ، أو أشجار المشمش ، التي كانت تعد لهذا الغرض .

---

(١) استولى جنجز براملي على الضبة الأصلية لهذا الباب في يناير سنة ١٨٩٩ حينما زار الواحة وهو في طريقة الى سيوة .



(شكل ٨٣) قصر الفرافرة في عام ١٩٣٩

كان لكل أسرة حجرة خاصة بها لتخزين فائض محاصيلها من القمح أو البلح أو الزيتون المجفف أو المشمش ولم يكن يسمح الا لشخص واحد بالمعيش داخل الحصن وهي امرأة كانت تدعى «سعيدة» وكانت تعرف كل شخص وكل حجرة ، ولم تكن تسمح الا لصاحب الحجرة بدخولها (شكل٨٥) ومنذ عام ١٩٤٥ وبسبب هطول أمطار غزيرة غير عادية تهدمت بعض الجدران الداخلية للحصن ولما لم تبذل أي محاولة لترميم الجدران أو تدعيمها انهار البناء في عام ١٩٥٨ (شكل ٨٦) وهرول السكان كل الى حجرته لينقذ ممتلكاته لا سيما أبواب الحجرات .



(شكل ٨٤) قصر الفرافرة ، كومة من الركام



(شكل ٨٥) بعض الحجرات الصغيرة داخل الحصن

سكان الفـرافـرة :

يلغ عدد سكان الفرافرة ، حسب احصاء عام ١٨٩٧ ، ٥٤٢ نسمة (١) (منهم ٢٧٠ من الذكور و٢٧٢ من الاناث) ولكن جوردن Jordan ،وهو أحد أعضاء بعثة رولفس ، أعطى احصاء فى عام ١٨٧٤ بلغ عددهم فيه ٣٤٥ نسمة . وسكان الواحة فى ازدياد

مطرد ، ففي عام ١٩٣٨ كانوا لا يزيدون عن ٦٠٠ نسمة الا قليلا ولكن في عام ١٩٤٧ بلغ عددهم ٧٤١ نسمة ، وفي عام ١٩٥٠ سجلت الاحصاءات ٨٦٨ نسمة وارتفع الرقم في عام ١٩٦٠ الى ١٠١٠ نسمة (منهم ٥٢٣ ذكور ٤٨٧ اناث) وحينما زرت الواحة عام ١٩٦٨ واطلعت على الاحصاءات الرسمية وجدت عدد السكان قد بلغ ١١١٨ نسمة ولكن هذا الرقم تضمن بعض الضيوف والعمال الذين يعملون في المشروعات وعددا من موظفي الحكومة .

وقد عانت الفرافرة سنين عجافا في الفترة ما بين ١٩٤٥ ، ١٩٦٢ وذلك لان العين الرئيسية بها ، عين البلاد ، كادت أن تجف تماما كما أن مستوى المياه في الآبار الأخرى انخفض بشكل ملحوظ ، وعند زيارتي لها في عام ١٩٥٠ كانت أحوال الأهالي محزنة رغم أن التفتيش العام لرى الصحراء بذل كل ما في وسعه لاصلاح العطب الذى لحق بالعين ، وذهبت كل جهوده ادراج الرياح . كان الحل الوحيد هو حفر آبار جديدة ولكن كيف يمكن احضار الآت الحفر الضخمة الى الفرافرة ؟ وأخيرا ذللت هذه العقبة حينما عثر على ممر شمالي منخفض الداخلة يمكن ان تمر عليه الشاحنات الكبيرة وحفرت آبار جديدة بالقرب من القرية وعادت نضرة الحياة الى الحدائق والحقول القديمة كما جهزت أراض وحدائق جديدة للزراعة ، بل أن عددا من الآبار الجديدة أغلق نظرا لقلة اليد العاملة التي يمكن أن تزرع مساحات الاراضي الاضافية التي يمكن أن ترويها هذه الآبار .

وقد تحسنت الأوضاع في الفرافرة ولا شك أن سكانها أكثر رفاهية الآن مما كانوا عليه عم ١٩٣٨ أو ما قبله وذلك رغم تضاعف عدد السكان ، وتوجد الآن بالواحة محطة اتصالات لاسلكية تربطها بالقاهرة وبالمحطات الأخرى في واحات الصحراء الغربية وهناك عدد كبير من شبابها الذين تلقوا تعليمهم أما بالواحة أو بالقاهرة أو أسيوط يعملون كموظفين حكوميين في خدمة واحتهم وفي حين أنه في عام ١٩٣٨ لم يكن يوجد بها الا أربعة مسئولين حكوميين هم : خفيران ومدرس وحلاق الصحة يوجد بها الآن العديد من الموظفين ، أما المدرسة الابتدائية التي لم يكن بها حتى عام ١٩٥٠ الا مدرس واحد فان بها الآن ثمانية مدرسين كلهم من أبناء الواحة .



(شكل ٨٦) سعيدة حارسة الحصن

وبالفرافرة الآن محطة أرصاد جوية بها موظف فنى وعاملان وحارسان وأربعة من هؤلاء من الأهالى أما الخامس فهو من مدينة موط بالداخلة ، وللهيئة العامة للتعمير الصحارى ممثل بالفرافرة كما أن لها مخازنها وأمين مخازن وحارسان ،

وجميعهم من الواحة . ويوجد مركز للشرطة به جنديان أحدهما من البحرية ، ولايزال الحارسان يؤديان مهامهما ولكنهما لا يسافران بالجمال الى البحرية لاحضار البريد لان الفرافرة ملحقة الآن اداريا بالواحة الداخلة . وفي عام ١٩٦٨ سعدت بلقاء واحد من الحارسين اللذين عرفتهما عام ١٩٣٨ وبلقاء حلاق الصحة وكلاهما لا يزال فى عمله القديم ، والى جانب هؤلاء الموظفين الحكوميين الدائمين يوجد حوالى ستة عشر شخصا ملحقون بأعمال مؤقتة ومرتباتهم مصدر دخل طيب بالواحة .

حدائق وحقول الفرافرة :

عند نهاية القرن الماضي كان ثمانية عشر عينا بالمنخفض كله (انظرBeadnell Farafra Oasis , p ,10 , وكانت مياه كل عين تروى مساحة محدودة من الأراضي الزراعية ، وقد قدر جوردن في عام ١٨٧٤ مساحة الاراضي الزراعية وحدائق النخيل بحوالى ٣٠٠ كم ، أى حوالى ٧٠٠ فدان[١] . وفي عام ١٩٦٠ حينما وصلت أحوال الواحة الى الحضيض لم يبق بها أكثر من ثمانية عيون كانت مياه احداها لا تروى الا مساحة نصف فدان ، أما عين بساى ، الواقعة بالقرب من بعض الاطلال العامة ، فانها لم تتأثر كثيرا وكانت مياهها كافية لرى ١٤٠ فدانا من مساحة ٢١٠ فدانا[٢] .

طبقا للأرقام التي نشرها عبد اللطيف واكد ، والمبنية على التقارير الرسمية لوزارة الزراعة ، فان اجمالي الدخل السنوى من الحدائق والحقول فى ذلك الوقت كان ٨٨٩٠ جنيها مصريا واذا ما وزعته بين الاهالى فان نصيب الفرد يكون ١٠,٢٥٣ جنيها[٣] والفواكة الرئيسية في حدائق الواحة هى البلح والزيتون والمشمش والعنب والبرتقال والليمون السكرى والليمون والرمان ، كما أن معظم الخضروات التى تنموا فى البحرية تزرع هنا كذلك مثل البامية والملوخية والطماطم والبصل والثوم والفجل والسبانخ واليقطين .

---

(١) تقدر مساحة الأرض المنزرعة الأن بالفرافرة بحوالى عشرين الف فدان .المراجع

(٢) عبد اللطيف واكد ، الوادى الجديد (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) ويمكن تقسيم هذا الاجمالى على النحو التالى ٤٦٠٠ جم من البلح والزيتون والمشمش المجفف ، ٢٥ جم من طن الزيتون ، ٣٠ جم من طن المشمش ٢٣٠٠ جم دخل مائة فدان فى فصل الشتاء ، ١٦٠٠ جم لمحاصيل الصيف ، ٣٩٠ جم من الانتاج الحيوانى (أى ١٠ ٪ من صافى الانتاج الزراعى) .

وتقتصر محاصيل الحقول على القمح والشعير والذرة والقطن بكميات محدودة ، وهذه المحاصيل لا تكفي الاستهلاك المحلي الا بالكاد أما القطن فلا يصدر وانما ينسج محليا ليغطي حاجات الاهالي .

وحيوانات الفرافرة هي الحمير والجمال والماشية والماعز والضأن وتربى القطط في المنازل كحيوانات أليفة أما الكلاب فتعتبر نجسة ، ويربى الدجاج والدجاج الرومي والحمام وقد بدأوا في تربية الاوز والبط ولكنهما لم ينتشرا بعد .

ولا توجد صناعات محلية ذات أهمية ، فيعصرون الزيتون المجفف بالطريقة التقليدية البدائية ، ويجدلون السلال ويصنعون الفخار ولكنه أقل جودة من فخار الداخلة وكما سبقت الاشارة فانهم ينسجون القطن محليا .

ورغم الازدهار النسبي الذي تنعم به الفرافرة في الوقت الحاضر فان عائلاتها لا تزال تعيش في المنازل القديمة البسيطة ولا يزالون يقيمونها على نفس الطراز التقليدي القديم ، ورغم أن المباني الحكومية عصرية يبدو أن الأهالي يفضلون عمارتهن ولا يميلون الى تقليد هذه المباني الحديثة .

أثناء زيارتي الأخيرة للواحة التقيت بأصدقائي القدامى فيها ، كان العمدة ابنا للعمدة الذي قابلته عام ١٩٣٨ وكان القاضي أحد أبناء الشيخ عبد النبي وقد حل الشيخ كامل ، ابن الشيخ حسين أبو مسرب ، في محل أبيه ، أما أبناء المرحوم الشيخ محمد أبو سيد ، الشيخ الثاني للفرافرة ، فقد فضلوا العمل كمدرسين في مدارس وادي النيل ، ويشغل منصبه الآن واحد من أشقائه . وقد استضافنا العمدة (أنا ورفيقي) في نفس المنزل القديم ، بل وفي نفس الحجرة حيث سبق ان استضافني هو ووالده من قبله أثناء زياراتي السابقة للواحة ، وفي الأصيل ذهبنا الى حديقة لأسرة أبو مسرب وهناك قابلنا العمدة والشيوخ والمدرسين وغيرهم من الموظفين وقضينا ساعتين نرتشف كؤوس الشاي ونأكل من الفواكة التي كانت مكومة على الحصير أمامنا وتركز الحديث على الذكريات القديمة وراح بعضهم يذكرني بأشياء فعلتها وبكلمات قلتها كانت قد غابت عن ذاكرتي ، لقد سعدت بقضاء ذاك الأصيل في حديقة بسيطة في وسط آخر الواحات الحقيقية في مصر وفي صحبة أناس طيبي القلوب ، صادقي الود يبذلون كل ما في وسعهم للحفاوة بي كصديق قديم .

ورغم أن ساعة الرحيل عن الفرافرة كانت قد حددت بفجر اليوم التالي ، فان النوم لم يعرف سبيله الى عيني ، فتركت الاستراحة ورحت أتجول وحيدا ، ثم استلقيت على

الرمل وجعلت اتأمل نجوم السماء محاولا أن أتعرف عليها ، وأخذت أفكر في الحياة التي تتغير بسرعة في الواحة وتساءلت لأي مدى يمكن لأهل الواحة أن يحتفظوا بتقاليدهم العريقة ، وقد أحزنتني كثيرا فكرة احتضار عدة آلاف مهاجر من وادي النيل حينما تسمح مشروعات الري الجديدة باستصلاح آلاف الأفدنة ، هل سيحاصر مواطنوا الفرافرة الطيبون المسالمون ويلقون جانبا على يد النازحين الوافدين تماما كما حدث في الواحة الخارجة ؟ ثم عادت مخيلتي الى الحديقة ، الى الشبان والرجال الذين كانوا يحيطون بي في ساعات الأصيل ، وتذكرت أحاديثهم وكيف أنها تختلف عن أحاديث آبائهم وأعمامهم . وفي طريق عودتي الى الاستراحة وحتى أويت الى فراشي جعلت أفكر في الجيل السالف الثأوي في الثرى خاصة الشيخ عبد النبي والشيخ عبد الله والعمدة . كيف تكون مشاعرهم تجاه التغيير الذي طرأ على واحتهم . وعند الفجر غادرت الفرافرة وفي قلبي مشاعر مختلطة ، كانت زيارتي السابقة لها عام ١٩٥٠ ، أي منذ ثمانية عشر عاما وتساءلت عما اذا كنت سأعود اليها مرة أخرى ومتى ؟ هل في خلال مدة أشهر ؟ أم عدة سنوات ؟ أم أنني لن أعود اليها على الاطلاق ؟ ان علم ذلك عند ربي سبحانه وتعالى .

فهرس الأشكال

صفحة

محتويات الكتاب

الجزء الثاني

واحة الفرافرة

رقم الإيداع ١٦٢٠١ / ٩٩
I. S. B. N.
977 - 305 - 193 - 5
مطابع المجلس الأعلى للآثار